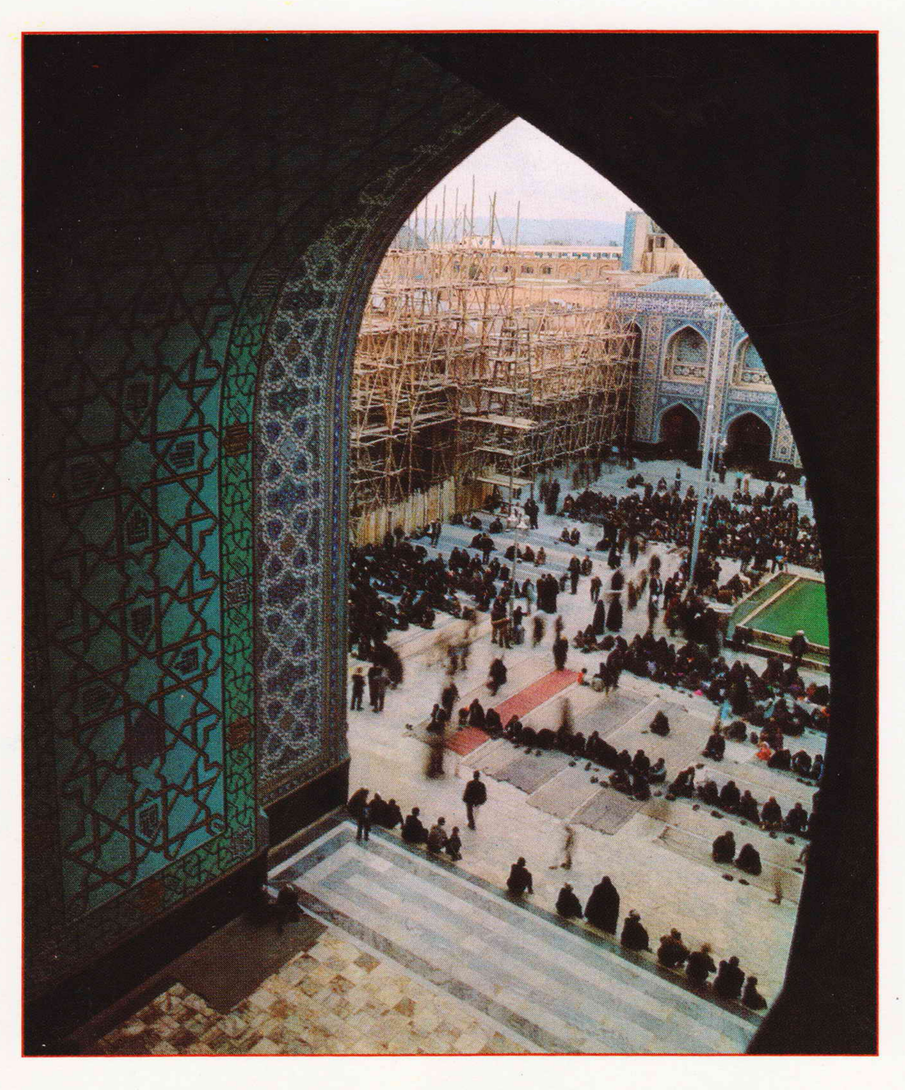
حسن الأمين

الرّضا (ع) والمأمون وولاية العهد

وصفحات من التاريخ العبّاسي



دار الجديد


شبكة الفكر
alfeker.net

حسن الأمين

الرّضا(ع) وَالمأمون وَولاية العَهد

وَصَفحات من التاريخ العَبّاسي

دار الجـديد

إنتاج وتنفيذ وتوزيع شركة دار الجديد ش. م. م. □ صندوق بريد: ١١/٥٢٣٢ بيروت ـ لبنان □ نضد النصوص: سناء سلامي وجميلة هزيمة □ انشاها كتاباً: علي حمدان □ ضبطها على اصولها: محمود عساف □ خط خطوط الغلاف: علي عاصي □ الفه: عمر حرقوص □ صورة الغلاف: باحة مقام الإمام الرضا (ع).

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

هناك صفحات كثيرة من تاريخنا كان يجب أن تجلى بأقلام حديثة ويوضح ما فيها لقراء اليوم، بعد أن ظلت مطوية خلال ما تراكم من هذا التاريخ في أقبية الماضي السحيق.

وهناك مفاهيم أُخذ بها على غير حقيقتها، وظل هذا الأخذ متداوَلاً في هذا العصر، ينقله جيل عن جيل دون الانتباه إلى ما فيه من تجنٍّ على الحقيقة.

وبين الذين يدعون إلى كتابة تاريخنا من جديد مخلصون أوفياء لهذا التاريخ، وهم يهدفون إلى تنقية هذا التاريخ مما علق به من أهواء الحاكمين، وعصبيات النحليين، وتجنيات المبطلين.

وبينهم غير مخلصين وغير أوفياء يريدون تشويه ما وصل إلينا من بعض الحقائق التي ساءهم أن تصل سليمة، فهم يحاولون طمسها، لتضيع من هذا التاريخ كل حقيقة.

وحين كنت أستعرض بعض الأسماء التي رشح أصحابها ليساهموا في إعادة كتابة التاريخ كنت أستعيذ بالله من شر ما يمكن أن تخرج أقلام هؤلاء من أضاليل، وما يمكن أن تنفث من سموم، وهكذا نكون قد خرجنا من شر لنقع فيما هو شر منه!

ولا أدعي أن في هذه الصفحات التي أقدمها للقارىء شيئاً مما نبغيه من محاولات لجلاء الحقائق، فهي أضيق من أن تسع ما نرمي إليه، وأقل من أن تحمل ما نستهدفه. ولكن فيها بعض ما سنح لي خلال مطالعتي، وبعض ما فهمته من النصوص التي كنت أمر بها ممعناً في قراءتها.

*

إن محاولة الخليفة العباسي، المأمون، نقل الخلافة إلى الرضا علي بن موسى(ع) حدث من أضخم أحداث التاريخ الإسلامي، كان يمكن له، لو تم، أن يغير مجرى هذا التاريخ. ومع ذلك فإن هذا الحدث لم يُعن به إلّا سطحياً، ولم يدرس كما يجب أن تدرس الأحداث الخطيرة في تاريخ الأمم.

فلم ينتبه أحد ـ مثلاً ـ إلى أن المأمون ترك منصب ولاية العهد شاغراً ثلاث سنوات لم يختر خلالها أحداً لشغله، مع ما في ذلك من خطر الفوضى وانبعاث الفتن، لو أن المأمون مات قبل أن يملأ هذا المنصب.

ولم ينتبه أحد إلى أن المأمون قد تجاوز ولده الأكبر في اختيار ولي العهد، مع أن السائد منذ معاوية حتى هارون الرشيد هو اختيار الأبناء لولاية العهود.

إن ذينك الأمرين هما اللذان كان على دارسي تاريخ تلك الفترة أن يتعمقوا في خفايا ما ينطويان عليه من أبعاد. ولو فعلوا ذلك لما تكلفوا ما تكلفوه من محاولة استنباط أسباب اختيار المأمون للرضا ولياً لعهده، ولما انتهى استنباطهم إلى ما هو بعيد عن الحقيقة.

والذي قلناه عن معالجة المتأخرين عن الحدث ـ معالجتهم معالجة سطحية، نقوله عن بعض المعاصرين له الذين لم يفهموا أبعاده الحقيقية، فتعاملوا معه تعاملاً بعيداً عن مراميه، فاعتبروه مجرد نقل للخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي فثاروا عليه عصبيةً للبيت الأول.

وبعض الذين عاشوا بعده تمكنت منهم (عقدة الاضطهاد)، الاضطهاد الذي توالى عليهم عشرات السنين فلم تستطع عقولهم أن تقبل هذا التحول المفاجىء من اضطهاد السلطات لهم إلى إرادة تسليم الحكم إلى إمامهم، فاسترسلوا في

الأمر ولم يطمئنوا له واتهموا المأمون بأنه نوى شيئاً وأظهر شيئاً خلافه حتى أدى بهم الحال إلى أن ينسبوا موت الرضا (ع) المفاجىء إلى سم المأمون له.

على أن الذين عايشوا الحدث من غير الفريق الأول كانوا على فهم لمراميه، فاغتبطوا به وأشادوا. لا سيما منهم المعروفون بولائهم لآل البيت الذين تحققت لهم أمنيتان: أمنية إنقاذ المملكة الإسلامية الكبرى من التدهور، وأمنية وصول آل البيت إلى حقهم، وفي الطليعة من هذا الفريق: الشاعر أبو تمام الطائي المعروف هو الآخر بولائه لآل البيت، فقال من قصيدة يخاطب بها المأمون:

اللّه يشهد أن هديك للرضا ... فينا ويلعن كل من لم يشهد
أوليّ أمة أحمد ما أحمد ... بمضيع ما أوليت أمة أحمد
أما الهدى فقد افتتحت بزنده ... في العالمين فويل من لم يهتد
وأرى الأمور المشكلات تمزقت ... ظلماتها عن رأيك المتوقد
ووسيلتي فيها إليك طريفة ... شامٍ يدين بحب آل محمد

*

لم أرد في هذه الصفحات التي أقدمها للقارىء أن أسجل تاريخاً للعصر العباسي الأول، ولا تاريخاً لعصر المأمون بما فيه من اختياره عليّاً الرضا (ع) لولاية عهده، وإنما هي بعض خطرات مرت في الذهن خلال دراساتي الطويلة لتاريخ تلك الحقبة أحببت أن أشرك القراء في تفهمها.

وأنا لا أطمح أن أزيل من ذهن هذا الجمهور ما علق به مما تداولته القرون قرناً بعد قرن ـ أن أزيله بكتابة صفحات محدودة، ولكنني واثق بأن النخبة ستعنى بهذه الصفحات، وسيكون لعناية هذه النخبة، جيلاً وراء جيل، ما يظهر الحقيقة ناصعة كشمس الضحى لمن ينشد هذه الحقيقة.

حسن الأمين

بيروت

٢١ صفر ١٤١٦ ـ ١٩ تموز ١٩٩٥



من الدعوة إلى الدولة



الانقلاب الأول والأخير... أو تولّي الرشيد

كان وصول الرشيد إلى الخلافة نتيجة انقلاب عسكري إذا أردنا استعمال مصطلحاتنا الحديثة، وإذا كانت الانقلابات العسكرية في هذا العصر تبدأ بالبلاغ رقم (١) ثم تكر البلاغات متتابعة من البلاغ رقم (٢) إلى ما لا يعلمه إلّا اللّه من أرقام، فإن الانقلاب الذي أتى بالرشيد لم يحمل أي رقم لأنه كان معداً له أن يكون البلاغ الأول والأخير، وهكذا كان، فقد استتبت الدولة بتولي الرشيد واستقر أمرها.

أما كيف كان هذا الانقلاب فهو هكذا:

كان الخليفة العباسي المهدي قد عهد بولاية العهد لولديه الاثنين: موسى وهارون واحداً بعد الآخر، على أن يتولاها بعده موسى الذي لقب بالهادي ويكون وليّ عهده أخوه هارون فيتولى بعد الهادي.

ولكن الهادي، على عادة من سبقه من الخلفاء الأمويين والعباسيين، صرف ولاية العهد عن أخيه هارون وجعلها لولده جعفر.

ولما كان يخشى أن لا يتم الأمر لجعفر، فقد عزم على قتل هارون ليخلو الجو لولده جعفر، ولكن الأقدار التي لا تقاوم كانت له بالمرصاد فمات في الليلة التي كان عازماً فيها على قتل أخيه هارون.

يقول الطبري عند ذكره وفاة الهادي: «وقد كان عزم على قتله، (يحيى بن خالد بن برمك)، وكان محبوساً وقتلِ هارون الرشيد».

الانقلاب العسكري تولاه قائدان، أحدهما تولى تركيز أمر الرشيد، والآخر تولى السيطرة على جعفر. أما القائد الأول فهو هرثمة بن أعين الذي لم يكد يعلم بوفاة الهادي حتى أسرع فأخرج هارون الرشيد ليلاً وأعلنه خليفة.

وإذا كان المؤرخون لم ينصّوا على ما اتخذه هرثمة من إجراءات بعد هذا الإعلان فلنا

أن نستنتج أنه أحاطه بما تحت يديه من جند حماية له مما يمكن أن يُفاجئهم به جعفر.

وأما القائد الثاني فهو خزيمة بن خازم الذي قاد قطعة من الجيش ليلاً وهاجم بها مقر جعفر فانتزعه من فراشه وقال له: واللّه لأضربن عنقك أو تخلع نفسك.

واحتجزه بقية الليل، فلما كان من الغد ركب الناس إلى باب جعفر ـ وقد انتشر خبر موت الهادي ـ ليبايعوا الخليفة الجديد، فأتى به خزيمة فأقامه على باب الدار في العلو والأبواب مغلّقة، فراح جعفر ينادي: يا معشر المسلمين، من كانت لي في عنقه بيعة فقد أحللته، والخلافة لعمي هارون ولا حق لي فيها.

وهكذا فإن هذين القائدين قد أخذا بالحزم، ولم يضيعا شيئاً من الوقت، بل أسرعا إلى تنفيذ الانقلاب في اللحظة التي عرفا فيها بموت الهادي.

وإذا كان القادة العسكريون في هذا العصر يختارون الليل لتنفيذ انقلاباتهم العسكرية فإن هرثمة وخزيمة قد سبقاهم في هذا الأسلوب، فكانا أول من اتخذ من الليل زمناً للانقلاب العسكري.

وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن يحيى بن خالد البرمكي كان محبوساً، وأن الهادي كان عازماً على قتله مع الرشيد. ونشير هنا إلى أن الرشيد بمجرد أن نصبه هرثمة خليفة أرسل من أتاه بيحيى من الحبس وقلّده الوزارة.

ولنا هنا أن نقول إن سجن الهادي ليحيى كان بسبب صلته الوثيقة بالرشيد، واعتقاد الهادي بأنه أبرز القائمين بأمره لذلك سجنه وعزم على قتله.

وكعادة أكثر الشعراء في كل زمان، وأكثر الصحفيين في هذا الزمان، الإسراع في تملق المنتصرين، أسرع إبراهيم الموصلي يتملق المنتصرين بقوله:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة   فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين اللّه هارون ذي الندى   فهارون واليها ويحيى وزيرها

وواصل الانقلابيون عملهم بسرعة، فقبل أن ينبلج الصباح كان الوزير قد باشر مهماته فاستدعى إليه يوسف بن القاسم بن صبيح، الذي يصفه الطبري بالكاتب. ويبدو جلياً من المهمات التي عهدت إليه أنه كان في ذلك العصر بمثابة المشرف على «الإعلام» في عصر الجرائد والإذاعة والتلفزيون، إذ أن يحيى أمره بإنشاء الكتب. وتظل جملة «إنشاء الكتب»، غامضة المقصود إلى حد ما، فهل المقصود بها: الكتب التي ترسل إلى أطراف المملكة معلنة انتصار الانقلاب؟ أم الكتب التي تستدعي من في العاصمة من كبار الرجال فقط ليبلغوا الأمر الواقع.

وأياً كان الحال فلم يأت الصباح حتى كان البلاغ قد أُعد والقواد العسكريون قد حضروا، وحتى كان «الكاتب» يوسف بن القاسم يتلوه عليهم وهذا نصه:

بعد الحمد للّه عز وجل والصلاة على النبي صلى اللّه عليه وسلم

إن اللّه بمنّه ولطفه مَنَّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه بيت الخلافة ومعدن الرسالة وإياكم أهل الطاعة من أنصار الدولة وأعوان الدعوة من نعمه التي لا تحصى بالعدد ولا تنقضي مدى الأبد وأياديه التامة أن جمع ألفتكم وأعلى أمركم وشد عضدكم وأوهن عدوكم وأظهر كلمة الحق وكنتم أولى بها وأهلها فأعزكم اللّه وكان اللّه قويّاً عزيزاً فكنتم أنصار دين اللّه المرتضى والذّابّين بسيفه المُنتضى عن أهل بيت نبيه صلى اللّه عليه وسلم وبكم استنقذهم من أيدي الظلمة أئمة الجور والناقضين عهد اللّه والسافكين الدم الحرام والآكلين الفيء والمستأثرين به فاذكروا ما أعطاكم اللّه من هذه النعمة واحذروا أن تغيروا فيغير بكم وإن اللّه جل وعز استأثر بخليفته موسى الهادي الإمام فقبضه إليه وولى بعده رشيداً مرضيّاً أمير المؤمنين بكم رؤوفاً رحيماً من محسنكم قبولاً وعلى مُسيئكم بالعفو عطوفاً وهو أمتعه اللّه بالنعمة وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة وتولاه بما تولى به أولياءه وأهل طاعته يعدكم من نفسه الرأفة بكم والرحمة لكم وقسم أعطياتكم فيكم عند استحقاقكم ويبذل لكم من الجائزة مما أفاء اللّه على الخلفاء مما في بيوت الأموال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً غير مقاص لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم وحاملاً باقي ذلك للدفع عن حريمكم وما لعلهُ أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين إلى بيوت الأموال حتى تعود الأموال إلى جمامها وكثرتها والحال التي كانت عليها فاحمدوا اللّه وجدّدوا شكراً يوجب لكم المزيد من إحسانه إليكم بما جدَّد لكم من رأي أمير المؤمنين وتفضل به عليكم أيده اللّه بطاعته وارغبوا إلى اللّه في البقاء ولكم به في إدامة النعماء لعلكم ترحمون وأعطوا صفقة أيمانكم وقوموا إلى بيعتكم حاطكم اللّه وحاط عليكم وأصلح بكم وعلى أيديكم وتولاكم ولاية عباده الصالحين.

نرى أن البلاغ قد صيغ صياغة محكمة فهو يتجاهل الانقلاب، ويتجاهل ما فعله الهادي من تولية عهده لولده جعفر، وهو يعرض خلافة الرشيد خلافة طبيعية بعد أخيه الهادي.

وإن صياغة البلاغ كانت لبقة واعية، فهي حين فعلت ذلك تكون قد سدت منافذ الاعتراض على من يتساءل: وأين عهد الهادي لجعفر؟

لقد جاء النص هكذا: إن اللّه جل وعز استأثر بخليفته موسى الهادي الإمام فقبضه إليه، وولّى بعده رشيداً مرضياً أمير المؤمنين... إلى آخر الكلام.

فاللّه هو الذي استأثر، واللّه هو الذي ولّى. فمن ذا الذي يعترض على اللّه؟! وذكر اللّه هو توكيد على أن الحق هو حق الرشيد لأن أباه الهادي عهد إليه بولاية العهد بعد أخيه،

فأصبح ذلك حقه عند اللّه، وما فعله الهادي كان خلاف هذا الحق.

ثم لا ينسى البلاغ أن يوعد بعدما وعد فيقول: إحذروا أن تغيروا فيغير بكم.

ثم هو يتوقع عصياناً ومعارضة فيقول: «وما لعله أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين». فإذا كان الانقلابيّون أحكموا سيطرتهم على العاصمة فالنواحي والأقطار غير معلوم أمرها. وكان الرشيد عندما بويع قد بلغ الثانية والعشرين من عمره، فكان أول إجراء يتخذه هو شفاء حقد شخصي ممن يُدعي أبا عصمة.

وذلك أنه بعد أن عزله أخوه الهادي من ولاية العهد وجعلها لولده جعفر، كان يسير هو وجعفر راكبين ومعهما أبو عصمة فلما بلغا قنطرة من قناطر عيساباذ[1] التفت أبو عصمة إلى هارون فقال له: مكانك حتى يجوز ولي العهد. فقال هارون: السمع والطاعة للأمير، فوقف حتى جاز جعفر.

فعندما تم أمر الرشيد قال: لا صَلَّيتُ الظهر إلّا ورأس أبي عصمة بين يدي. ثم لبس ثيابه وخرج وقدّم أبا عصمة فضرب عنقه وشد جمته في رأس قناة ودخل بها بغداد.

وقد دلّل في ذلك على عراقة الحقد في نفسه، ولم يدر يحيى في تلك الساعة الأولى من ساعات سلطة الرشيد التي كان هو ركنها الأول، الساعة التي انطلق فيها حقد الرشيد على حقيقته... لم يدر يحيى يومذاك أن ساعة أخرى من ساعات هذا الحقد ستنزل به وبأسرته!

الخراسانية

قبل التوغل في بحوث الكتاب علينا أن نبين حقيقة ما يقصد بـ «خراسان» و«الخراسانية» عند الحديث عن حركة العباسيين وقضية المأمون، وهو ما يراه القارىء في البحوث التالية:

أجمع المؤرخون على أن جل شيعة بني العباس من أهل خراسان. وتلك هي الحقيقة، ولكن هذا الإجماع يوهم في ظاهره أن هؤلاء الخراسانيين برمتهم أعاجم، وقد بالغ بذلك رهط من المستشرقين المتأخرين وقوم قلدوهم من الشرقيين، ولا غرض لهم إلّا التعريض ببني العباس وأن دولتهم صنيعة الموالي والأعاجم، وفي هذه الأقوال ما فيها من الغلو والإغراق.

(١) عيساباذ: محلة كانت بشرقي بغداد منسوبة إلى عيسى بن المهدي شقيق الهادي والرشيد وكانت إقطاعاً له، وفيها بنى المهدي قصره الذي سماه قصر السلام.

إن التأمل الجيد في نصوص التاريخ كفيل بإزالة هذا الوهم، فإن قدماء المؤرخين وثقاتهم إذا قالوا: «أهل خراسان» لم يقصدوا الأعاجم وحدهم، وإنما كانوا يقصدون بهذه العبارة، في كثير من المواضع، القبائل العربية المقيمة في خراسان. ولا تنكر مساهمة هذه القبائل في خدمة الدعوة العباسية، فأهل خراسان تعني أصحاب خراسان من العرب غالباً، وإنك لتجد تداول هذه العبارات على هذا الوجه واضحاً في خطب الولاة والأمراء وفي أقوال المؤرخين، تجدها كذلك، في خطب نصر بن سيار عامل الأمويين[٢] وفي خطب قتيبة بن مسلم وغيرهما من الأمراء، وكانوا ينسبون إلى المدن الخراسانية والفارسية فيقولون رازي وأصفهاني ومروزي وكرماني لأنهم ولدوا أو أقاموا فيها لا غير، وهم عرب صرحاء، والأمثلة على ذلك كثيرة. وهذا «الكرماني»، وهو من أشهر رؤساء خراسان في أواخر عصر بني أمية، وأخباره كثيرة في هذه الفترة من التاريخ، قد نسب إلى كرمان لأنه ولد فيها، وما هو إلّا عربي قح وكان يقال له: «شيخ خراسان وفارسها» في العصر المذكور.

وقد أَلِفَ العرب هذا النوع من الانتساب إلى حيث يولدون أو يقيمون من بعض البلاد الفارسية أو التركية. ألفوا ذلك حتى أواسط عصور الدولة العباسية أو بعد ذلك. فهذا أبو الفرج الأصفهاني قد اشتهر بنسبه إلى أصفهان وهو كما لا يخفى من أرومة أموية بل كان نزيل بغداد.

وفي كتب الفتوح ذِكْرٌ لخطط العرب ومنازلهم في البلاد المذكورة في **فتوح البلدان** للبلاذري. ورأينا بعض المؤرخين يقولون فلان «عربي خراساني» أو عربي من أهل خراسان. مثال ذلك العبارات التي يستعملها الجاحظ في رسالته المسماة **مناقب الترك**.

عروبة نقباء الدعوة

كان عدد مقاتلة العرب من أهل الكوفة والبصرة كبيراً في خراسان من عهد الفتوح الأولى، وهم من مختلف القبائل النزارية واليمانية بل كان جل نقباء الدعوة الهاشمية من زعماء العرب المنتمين إلى أشهر قبائلهم، فمنهم خمسة من خزاعة وثلاثة من تميم وبعضهم

(٢) أنظر خطب ابن سيار عامل خراسان في أيام مروان بن محمد، وفي بعضها يقول: «يا أهل خراسان إنكم غمطتم الجماعة وركنتم إلى الفرقة، السلطان المجهول تريدون وتنظرون؟... إن فيه لهلاككم معشر العرب». ألا ترى أنهم لا يعنون بأهل خراسان إلا العرب في هذه الكلمة؟ ومثل ذلك كثير. وانظر وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد حين استخلفه على جرجان فقد أوصاه بأحياء العرب فيها من اليمن وربيعة وقيس مع الإشارة إلى أسباب ذلك. (أنظر **تاريخ الأمم والملوك** و**الكامل** لابن الأثير).

من طي وربيعة ومزينة وغيرها من القبائل المشهورة[٣].

وقد كتب الجاحظ فصلاً ممتعاً في هذا الموضوع لم يسبقه إليه أحد في رسالته المسماة **مناقب الترك**[٤]، ومن هذا الفصل تعرف أن جل هؤلاء النقباء من العرب وإن كان فيهم عدد من الموالي. وله في هذا الباب فصل آخر أشار فيه إلى وقائع حاسمة في خراسان والعراق تفانى فيها أنصار الفريقين. وقد جاء فيه ما نصه: «وهل أكثر الدعاة إلّا من صميم العرب ومن صليب هذا النسب، كأبي عبد الحميد قحطبة[٥] بن شبيب الطائي وأبي محمد سليمان بن كثير الخزاعي، وأبي نصر مالك بن الهيثم الخزاعي، وأبي داود خالد بن إبراهيم الذهلي وكأبي عمرو لاهز بن طريز المربي[٦] وأبي عُيينة موسى بن كعب المراني، وأبي سهيل القاسم بن مجاشع المزني، ومن كان يجري مجرى النقباء ولم يدخل فيهم مثل مالك بن الطوف المزني وبعد فمن الذي باشر قتل مروان ومن هزم ابن هبيرة وقتل ابن ضبارة[٧] ومن قتل نباتة بن حنظلة[٨] إلّا عرب الدعوة والصميم من أهل الدولة»؟

هذا وللجاحظ كلمة كثيراً ما رأينا شداة التاريخ الإسلامي من عرب ومستعربين يحتجون بها في هذا الباب، وهي قوله: «دولة ولد العباس أعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية»[٩] ومن رأينا أنها كلمة لا تصلح للاحتجاج فيما نحن فيه، لأن صاحبها قالها في معرض المقارنة بين الدولتين من حيث استخدام الشعر والكلام العربي البليغ لحفظ الوقائع، وتقييد المآثر وتخليد المحاسن. ومن رأي الجاحظ أن العصر الأموي امتاز بهذا الضرب من الأدب البدوي العربي، والعرب، وهم أميون، أحفظ وأوعى لما يسمعون وأكثر عناية بالإنشاء وضرب الأمثال. ومن رأيه كذلك أن أنصار بني العباس قصروا عن الأمويين في حفظ

(٣) أنظر عن عروبة رجال الدعوة، **تاريخ الطبري** (٧٦/٩)، **وتاريخ اليعقوبي** (٧٢/٣)، **ومروج الذهب** (١٤٤/٢)، **والكامل** (٩٠/٦). وعن عروبة زعماء خراسان **المصدر نفسه** (١٩١٥)، وعن القبائل العربية المقيمة في خراسان من تميم وربيعة واليمن، **كتاب الوزراء** للجهشياري (٢٦٩) وعن أحياء العرب في خراسان كلمة لقتيبة بن مسلم في **البيان والتبيين** (١٩٩/١)؛ وعن بني تميم في خراسان كلمة خاطب الأحنف بن قيس قبيلته فيها، **البيان والتبيين** (١٨٤/١)؛ وعن ظعائن العرب تخرج من مرو إلى سمرقند بدون جواز، خطبة لقتيبة بن مسلم، **العقد الفريد** (٣٨٥/٢).

(٤) **مناقب الترك**، (٨ ـ ١٢).

(٥) كان قحطبة يقارن بأبي مسلم.

(٦) المشهور ابن قريط لا ابن طريز.

(٧) قتله قحطبة سنة ١٣١ هـ، وما رئي عسكر يجمع شتى المؤن والآلات والذخائر كعسكر ضبارة وكان يسمى عسكر العساكر حتى كان مدينة.

(٨) أنظر عن مقتل نباتة بن حنظلة ومن معه من أهل الشام على يد قحطبة، أنظر **الطبري** (١٠٥/٩ ـ ١٠٦) وهذه الموقعة من الوقائع الحاسمة في النزاع.

(٩) **البيان والتبيين**، المطبعة العلمية ١٥٤/٢.

وقائعهم وتدابير ملوكهم وسياسات كبرائهم في أهل الشام وما جرى لهم في هذا السبيل من حر الكلام وشريف المعاني في الدولة العباسية، إلى أن قال: «كان فيما قال المنصور وما فعل في أيامه وما أسس لمن بعده ما يفي بجماعة بني مروان»(١٠).

أولع الجاحظ بتكرار هذا المعنى في كتبه على وجه يؤكد لنا أنه لم يقصد بالكلمة المذكورة إلّا الناحية الأدبية العربية دون السياسة، وقد عقد في رسالته التي سماها **مناقب الأتراك** فصلاً قارن فيه بين العرب والعجم من حيث استخدام صناعة الكلام لحفظ الوقائع وتسجيل المثالب والمناقب، فـ «الشعر ديوان العرب، وهم أميون لا يتكلمون على الكتب المدونة والخطوط المطرسة، ولبعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر وهممهم أرفع، وهم من جميع الأمم أفخر ولأيامهم أذكر».

وخلاصة القول: يريد الجاحظ أن بني العباس اقتبسوا ما اقتبسوه من قواعد الدواوين ورسوم الدول الأعجمية البائدة، فنقلوه إلى دار خلافتهم، فأصبحت رسوم دواوينهم والقواعد المتبعة فيها شبيهة بتلك العادات والرسوم من بعض الوجوه.

هذا ما عناه فريق من قدماء المؤرخين والكتاب بقولهم عن الدولة العباسية إنها دولة فارسية وعن الدولة الأموية إنها دولة عربية أو أعرابية. وقد أُسيء فهم هذه الأقوال من قبل بعض المعنيين بالتاريخ شرقاً وغرباً، وعلى هذا الوجه الذي بيناه آنفاً فهمت أقوال الجاحظ في عصره، وعلى هذا الوجه ينبغي أن تفهم في كل العصور. ومن الخطأ الشنيع، بل من الظلم الفاحش أن تفسر هذه الأقوال بأن الدولة العباسية دولة فارسية في روحها ونزعتها وأن دعوة أنصارها كانت موجهة إلى الكيد من الأمة العربية، أو إلى بعث المجد الساساني البائد، وإن النزاع بين الدولتين إنما هو نزاع بين الفرس والعرب إلى أمثال ذلك من أقوال واهية ومزاعم مردودة.

كان إقبال الفرس وأبناء خراسان على الدين الإسلامي منقطع النظير حتى استأصل تلك النعرات القديمة من نفوس الشعوب الإيرانية والطورانية وإن لم ينزع كل ما تأصل في الطباع أو جرى في الدماء، أو امتزج بالأرواح بالمرة، فلا يصح أن يقال إطلاقاً إن الفرس حاولوا انتهاز الفرصة في العصر العباسي المذكور للرجوع إلى عوائدهم وأوابدهم القديمة.

إننا لا ننكر أن تبقى في العصر العباسي المذكور بقية من نحل فارسية وعادات وثنية

(١٠) المصدر نفسه.

خصوصاً في الأصقاع النائية من الشرق، بيد أن ذلك لم يكن له أثر يعتد به في حياة الشعوب المذكورة[١١].

عروبة الدعوة العباسية في خراسان

١ ـ إن المستأثرين من العرب المستقرين التابعين لقبائل متباينة هم الذين حرموا من العطاء ولذلك نظروا بعين الحسد إلى إخوانهم العرب المقاتلة من أصحاب الامتيازات، وتذمروا كذلك من تسلط الدهاقين عليهم في واحة مرو. كان هؤلاء يأملون تغيراً في الطبقة الحاكمة. وهذا يفسر حقيقة كسب الثورة العباسية للعرب من اليمانية والربعية والمضرية الذين كانوا يشعرون بخيبة الأمل.

٢ ـ كان للعرب المقاتلة من أصحاب الامتيازات المسجلين في ديوان العطاء مشاكلهم كذلك مع السلطة الأموية تتعلق بسياسة التجمير وحصتهم من الفيء والغنيمة وكذلك بضرورة بقاء وارد خراسان في خراسان لكي يصرف على تحسين حالتها. ولا تأخذ منه الخزينة المركزية إلّا بمقدار حصتها. ولقد رأى هؤلاء في الدعوة أملاً جديداً لحياة أحسن.

٣ ـ لقد سكن العرب في القرى الواقعة في واحة مرو وكان لهم حاميات عسكرية في عدد من المدن الخراسانية ولذلك كانت الدعاية العباسية مركزة على هذه المناطق فلقد أدرك الدعاة بأن العرب وحدهم مصدر السلطة لأنهم مصدر القوة الضاربة الوحيدة. ومن أجل الوصول إلى السلطة يجب أولاً كسبهم إلى الدعوة، ولم يفضل الدعاة في البداية قبيلة عربية على أخرى رغم أنهم حصلوا على عضد من اليمانية أكثر من المضرية إلّا أنهم كانوا دائماً يرحبون بالمضريين والربعيين الذين يرغبون بالانضمام للدعوة.

ولا ينكر انضمام غير العرب إلى الدعوة إلّا أنهم كانوا أيضاً إلى جانب الأمويين ولا يمكن مقارنتهم من حيث الدور والفعالية بالعرب.

٤ ـ يظهر أن عرب خراسان سئموا النزاع فيما بينهم وليس أدل على ذلك من تسمية تلك الأيام بأيام الفتنة وأيام الفورة وأيام العصبية[١٢].

(١١) الشيخ محمد رضا الشبيبي.
(١٢) أنظر:
أ ـ تاريخ الطبري، ج٣، ص ٣ فما بعد
ب ـ ابن الكلبي، جمهرة ١٤٠ ب، ٤٤ ب.
جـ ـ ابن حزم، ص ٣٥٩.
د ـ الدينوري، ص ٣٥٠
هـ ـ **أخبار الدول المنقطعة**، ص ١٠٠ أ.

يقول مؤلف **أخبار العباس** (ص ١١٩أ):

«فطالت الفتنة بين نصر بن سيار وعلي بن الكرماني[١٣] ومن كان بها من العرب حتى أضجر ذلك كثيراً من أصحابها وجعلت نفوسهم تتطلع إلى غير ما هم فيه وإلى أمر يجمعهم فتحركت الدعوة، يدعو اليماني من الشيعة اليماني، والربعي الربعي والمضري المضري حتى كثر من استجاب لهم وكفوا بذلك عن القتال في العصبية».

٥ ـ يورد الجاحظ افتخار العرب بدورهم في الدعوة العباسية فيقول: «إن العربي يقول... وهل أكثر النقباء إلّا من صميم العرب ومن صليب هذا النسب... وبعد فمن هذا الذي باشر قتل مروان ومن هزم ابن هبيرة ومن قتل ابن ضبارة ومن قتل ابن حنظلة إلّا عرب الدعوة والصميم من أهل الدولة».

ويقول الخراساني: «نحن النقباء وأبناء النقباء ونحن النجباء وأبناء النجباء ومنا الدعاة قبل كشف القناع وزوال التقية»[١٤].

ويشير ابن المقفع إلى أن أصل أهل خراسان يعود إلى أمصار العراق والبصرة والكوفة حيث هاجروا من هناك إلى مرو فيقول للمنصور: «أهْل خراسان أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعته وحقيبته مع اختلاطهم بأهل خراسان»[١٥].

٦ ـ من شعارات الثورة العباسية «يا محمد يا منصور» ولعل هذا الشعار دليل واضح على تركيز الدعوة على القبائل اليمانية خاصة في خراسان ذلك لأن المنصور هو المنقذ لقبائل اليمن الذين يسمونه «منصور اليمن» أو «منصور حمير». وقد اتخذ الخليفة الثاني أبو جعفر لقب المنصور لأسباب سياسية كذلك.

٧ ـ يتمثل دعاة التفسير العنصري للثورة العباسية بأبيات شعر بشار بن برد حيث يذكر نصرة «الموالي» للعباسيين ويفتخر بنسبه وبمنزلته كمولى. على أننا نستطيع أن نستند على أبيات عديدة من الشعر تذكر نصرة العرب للعباسيين.

فهذا دعبل الخزاعي يفخر بأن القبائل اليمانية من أنصار العباسيين هم الذين قتلوا مروان[١٦].

(١٣) إن الوضع المتدهور في خراسان بسبب التصادم بين نصر بن سيار وجديع بن علي الكرماني، شيخ قبائل الأزد اليمانية، ساعد الدعاة العباسيين على تركيز جهودهم خلال سنة ١٢٨ ـ ١٢٩ هـ، لجذب الأنصار، فاستطاعوا كسب شيخ الأزد وأتباعه إلى صفوف الدعوة، وهذا الكسب رجح كفة الثوار العباسيين فكانت نهاية نصر والأمويين.

(١٤) **مناقب الترك**، ص ٨.

(١٥) أنظر **رسالة في الصحابة**، ص ١٢٤.

(١٦) أنظر **الأغاني**، ج٤، ص ٩٥ ـ ٩٦.

ويقول شاعر آخر من شيعة العباسيين:

إنـا وإخـوانـنـا الأنـصـار شـيـعـتـكـم إذا تـفـرقـت الأهـواء والـشـيـع

٨ ـ لقد أظهرت حوادث الثورة العباسية بأن الإيرانيين في مناطق مختلفة لم يشتركوا في الثورة ولم ينحازوا إليها بل إن قسماً منهم في جرجان ومنها وفد نيسابور وبلخ انحاز إلى نصر بن سيار والأمويين. ولم تشترك في بلاد ما وراء النهر أية مدينة في الثورة.

ثم لماذا لم يساند الإيرانيون الدولة العباسية بعد نشوئها إذا كانت قد قامت على أكتافهم وحققت رغباتهم؟ إن إيران كانت في العصر العباسي من أكثر المناطق اضطراباً وعدم استقرار.

٩ ـ قال أبو مسلم الخراساني مخاطباً شيعة العباسيين في خراسان: «أمرني الإمام (إبراهيم)، أن أنزل في أهل اليمن وأتألف ربيعة ولا أدع نصيبي من صالحي مضر وأحذر أكثرهم من أتباع بني أمية وأجمع إلي العجم»[١٧].

وكان الإمام محمد العباسي قد أوصى أبا عكرمة السراج بما يشابه هذه الوصية حيث قال: «فلتكن دعوتك إلى الرضا من آل محمد... وليكن اسمي مستوراً من كل أحد إلّا عن رجل توثقت منه وأخذت بيعته. فإذا قدمت مرو فاحلل في اليمن وتألف ربيعة وتوقَّ مضر وخذ نصيبك من ثقاتهم»[١٨].

١٠ ـ لعل سبب اختيار خراسان مكاناً للثورة يرجع إلى أن العرب لم يُصابوا فيها بانتكاسة أو ضربة قوية لعدم قيام ثورات علوية أو غيرها فيها. وهذا ربما كان مغزى قول محمد العباسي حين أرسل دعاته إلى خراسان.

كما وأنه «في خراسان جمجمة العرب وفرسانها» هؤلاء الفرسان المتمرسون بالقتال السنوي مع الكفار عبر بلاد ما وراء النهر.

١١ ـ لقد كان النقباء في غالبيتهم من العرب من خزاعة وتميم وطي وشيبان وبجيلة، وكذلك نظراء النقباء والدعاة.

١٢ ـ لقد كان العمل مشتركاً في مجلس النقباء من شيعة العباسيين على أن أبا مسلم كان يحاول دوماً أن يبرز دور سليمان بن كثير الخزاعي رئيس النقباء.

والواقع أن سليمان الخزاعي لعب دوراً رئيسياً في الدعوة والاتصال بابن الكرماني

(١٧) أنظر **أخبار العباس**، ص ١٣٨.
(١٨) **المصدر نفسه**، ص ١٩٥ ب.

والمفاوضات مع نصر، وتحركات الجيش الخراساني. ولعل إبراز الدعوة لسليمان الخزاعي كان حركة بارعة لإظهار الواجهة العربية المتمثلة بالخزاعي من أجل كسب العرب.

١٣ ـ حاول نصر بن سيار أن يفرق بين العرب من أنصار العباسيين حيث أشار إليه أحد قواده قائلاً: «ما أهون شوكة هؤلاء إن كفت عنهم اليمن وربيعة» مما يدل على مساندة هذه القبائل للثورة[١٩].

١٤ ـ تشير بعض الروايات إلى أن أنصار العباسيين كانوا علوج القرى وسقاط العرب على أن رواية الجاحظ تؤكد بأنهم عرب إلّا أن استيطانهم في القرى وامتزاجهم بالسكان المحليين أدى إلى صعوبة تمييزهم، يقول: «وقد نرى الناس من أبناء الأعراب والأعرابيات الذين وقعوا إلى خراسان فلا نشك أنهم علوج القرى» ولذلك فليس من المستغرب أن يحتفظ المقدسي بالمثل القائل: «رجال مرو من قراها».

١٥ ـ تحفل المصادر التاريخية بذكر أسماء القواد والوجوه الذين ميزوا أنفسهم بما قاموا من أعمال في سبيل الدعوة.

١٦ ـ وفي «الصحيفة الصفراء»، وهي الوصية التي سلمت إلى محمد بن علي العباسي من قبل أبي هاشم، يأتي ذكر العرب كأنصار للدعوة: «... أي أحياء العرب أنصارهم».

١٧ ـ وفي حديث للمنصور بعد قيام الدولة العباسية يذكر فيه أن الدعوة قامت على أكتاف اليمانية وأن النقباء كلهم يمانية. ثم يقول عن اليمانية: «فيحق لنا أن نعرف لهم حق نصرهم لنا وقيامهم بدعوتنا ونهوضهم بدولتنا».

١٨ ـ وقد خاطب المنصور أثناء حصار واسط اليمانية قائلاً: «السلطان سلطانكم والدولة دولتكم».

١٩ ـ وحين يتكلم صاحب كتاب **الإمامة والسياسة** عن الجيش العباسي يفرق بين أهل خراسان من العرب وبين الفرس فيقول بأن تعداد الجيش كان ١٢ ألفاً من أهل خراسان سوى الأعاجم[٢٠].

٢٠ ـ وقد طلب عبد اللّه بن علي العباسي العون من اليمانية حيث حاصر دمشق قائلاً:

(١٩) **المصدر نفسه**، ص ١٣٣ أ.

(٢٠) **الإمامة والسياسة**، ج٢، ص ٢٥٣.

«إنكم وإخوانكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وأنصارنا. فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر»[٢١].

وهكذا نلاحظ أن العناصر التي قامت بالثورة العباسية كانت عربية في غالبيتها، أي أن العرب شكلوا القوة الضاربة في الثورة، كما اشترك غير العرب فيها ولكن دورهم لم يكن كدور العرب. وقد انحاز غير العرب إلى الجانبين الأموي والعباسي.

وعن الوصية التي قيل إن إبراهيم الإمام وصى بها أبا مسلم الخرساني والتي يقول فيها: «أنظر هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم فإن اللّه لا يتم هذا الأمر إلّا بهم واتهم ربيعة في أمرهم. وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار. واقتل من شككت فيه. وإن استطعت ألّا تُبقي بخراسان من يتكلم العربية فافعل»، إن هذه الوصية غير متفق عليها من قبل المؤرخين لذلك لا يمكن قبولها من دون تمحيص.

والمهم هنا أن يذكر بأن رواية الدينوري وكتاب **العيون والحدائق** لا تذكر النص الذي يأمر فيه إبراهيم أبا مسلم بقتل العرب دون تمييز ولكن الوارد أن الأمر كان بقتل العرب الذين يرفضون الدخول في الدعوة العباسية أو المشكوك في ولائهم لها «واقتل من شككت في أمره» أو كما يقول العوفي: «اقتل كل المدعين أو المطالبين بالإمامة». ويؤيد ذلك ما يذكره صاحب **أخبار العباس** على لسان أبي مسلم: «أمرني أن أنزل في أهل اليمن وأتألف ربيعة ولا أدع نصيبي من صالحي مضر وأحذر أكثرهم من أتباع بني أمية وأجمع إليّ العجم».

ويمكن تلخيص النقد الداخلي للوصية بالنقاط التالية:

١ ـ الرواية مجزأة في الطبري إلى قسمين تذكر بينهما حوادث ذات علاقة بتطور الدعوة ولا علاقة لها بالوصية.

٢ ـ تأتي الوصية تحت عنوان «سبب قتل مروان بن محمد لإبراهيم الإمام» مما يدل على أنها أو بعضها على الأقل دعاية ضد العباسيين وضعت من جانب أعدائهم.

٣ ـ يظهر من نص الرواية تناقضات كثيرة فكيف يصح أن يأمر إبراهيم الإمام بقتل كل العرب وهو يدرك أهميتهم ويوصيه في بداية الرواية بتعهد اليمانيين وإلى درجة الربعيين.

٤ ـ وأخيراً لا آخراً فإن سياسة أبي مسلم وسليمان الخزاعي في خراسان لم تسر أبداً حسب الوصية المزعومة، فإن الدعاة العباسيين تقربوا لليمانية والربعية حتى أن أبا مسلم قبل الكثير من المضريين في صفوف الثورة.

(٢١) الأزدي، **تاريخ الموصل**، ص ١٢٤.

لقد اعتبر بعض المؤرخين الانتصار العباسي على الأمويين بأنه انتصار أهل العراق بعد الكفاح الطويل الذي دام قرابة القرن على أهل الشام. ولذلك فقد نقل العباسيون مركزهم إلى العراق، ذلك الانتقال التاريخي الذي إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على مدى الأهمية التي علّقها العباسيون على القبائل العربية العراقية والخُراسانية؛ خاصة إذا علمنا أنّ أغلبية القبائل العربية الخُراسانية تعود في الأصل إلى البصرة والكوفة، باعتبار أنّ العراق كان قاعدة الفتوحات العربية الإسلامية في بلاد إيران. كما أنّ هذا الانتقال يدلّ كذلك على ازدياد أهمية الأقاليم الشرقية؛ كالعراق وفارس وخُراسان من الناحية السياسية والاقتصادية على غيرها من أطراف الدولة الإسلامية. على أنّ طبيعة الدعوة العباسية وتعقيداتها السياسية والاجتماعية والدينية لا يمكن أن ترتضي لنفسها هذا التفسير الإقليمي البسيط، ولعلّنا نستبق القول ونشير بأنّ الثورة العباسية قامت على أساس تحالف متين بين كل العناصر الساخطة على الحكم الأموي، عربية وإيرانية. أما عصبها الرئيسي فقد كان يتكون من القبائل العربية الخُراسانية وخاصة اليمانية والربعية وقليل من المضرية. كما أنّ شعاراتها البرّاقة جذبت إليها الموالي المتذمرين والعجم من غير المسلمين، وخاصة الأمراء و «أبناء الملوك» والدهاقين الذين أضرّتهم إصلاحات الوالي الأموي نصر بن سيّار. على أنّ دور هؤلاء العجم كان ضئيلاً إذا قورن بدور العرب من أهل خُراسان.

إنّ التفسير الذي نتبناه والذي يحاول إثبات وإظهار دور العرب المقيمين في خُراسان في إشعال الثورة العباسية ودحض التفسير الإقليمي الآنف الذكر، وكذلك التفسير العنصري الذي يعتبر الثورة العباسية ثورة قام بها الموالي من الفُرس ضد العرب الحاكمين ـ إنّ هذا التفسير لا يهدف إلى مجرد القول بأنّ العرب وحدهم قاموا بالثورة إذ إننا ندرك بأن التأكيد على العرب وحدهم لا يخرجنا من دائرة التفسير العنصري للتاريخ الذي نادى به المستشرقون الألمان والذي نرفضه بحزم ودون تردد إنما نقول بأنّ عرباً وفُرساً ساندوا الدعوة العباسية؛ كما أنّ عرباً وفُرساً عارضو الدعوة، وكذلك الدولة العباسية بعد تأسيسها. والمسألة في حقيقتها ليست إذاً إقليمية ولا هي عنصرية؛ بل إنّها ذات طبيعة معقّدة سياسية، عسكرية، اجتماعية واقتصادية وحتى دينية. ولعلّ تذمّر العرب المستقرّين في خُراسان وخاصة في مرو وقراها قبل غيرهم من سكان البلاد الأصليين، من سياسة الأمويين المالية والاجتماعية التي ميّزت بينهم وقسمتهم إلى مقاتلة ومستقرّين، كانت الشرارة الأولى التي أنذرت بقرب وقوع الثورة.

وقد وجهت الدعوة فعالياتها إلى خُراسان، ولعلّ الدوافع التي دفعتها إلى اختيار خُراسان كونها موطن العرب المقاتلة الذين عركتهم الحروب الطويلة مع التُرك، والذين عبّروا مراراً

عن تذمّرهم من سياسة الأمويين، ولكونهم كذلك لم ينقسموا بعد إلى فِرَقٍ وأشياع متنافرة كل واحدة تتبع هوىً معيّناً ويقاتل بعضها البعض الآخر، كما هو الحال في العراق والجزيرة وبلاد الشام. كما أن سياسة الكبت والقوّة الأموية لم تمارس بعد في خُراسان لعدم حدوث ثورة عارمة على الأمويين كما حدث في العراق مثلاً، ولذلك فالعرب من أهل خُراسان كانوا ما يزالون على تماسكهم وصلابتهم. وقد انتشر الدعاة في قرى مرو حيث استقرت القبائل العربية، وفي كل مدينة كان فيها حامية عربية. لقد أدرك الدعاة أنّ العرب وحدهم مصدر السلطة والقوّة الضاربة في خُراسان. ومن أجل الانتصار على الأمويين كان يتحتم على الدعاة كسب العرب إلى الدعوة. وكان العرب في خُراسان ينقسمون إلى كتلتين: المقاتلة، والمستقرّين المستوطنين الذين مارسوا التجارة والحِرَف والزراعة.

إنّ ظروف خُراسان من حيث قبائلها وعلاقتهم ببعضهم وبالسكان المحليين، والخلافة الأموية في دمشق لعبت دوراً في إيجاد الجو المناسب للثورة. فالعرب الذين استوطنوا قرى مرو كانت لهم أسباب للتذمر ترجع إلى حرمانهم من الامتيازات التي يتمتع بها المقاتلة من العرب، ومنها حرمانهم من العطاء والمناصب السياسية والعسكرية والإدارية المهمة. ومما زاد تذمّرهم أنّ الوالي الأموي سلّط عليهم الدهاقين الفُرس لجباية خراج الأرض منهم، ومن الطبيعي أن يستاء هؤلاء العرب المسلمون من سيطرة الأمراء المحليين الذين لم يكونوا فُرساً فحسب؛ بل أغلبهم غير مسلمين في ذلك الوقت. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد كان للمقاتلة العرب أسبابٌ للتذمر كذلك تعود أوّلاً إلى إبقائهم على خطوط النار شتاءً وهذا ما يُسَمّى بالتجمير، وثانياً إلى أنهم كانوا لا يتسلّمون حصّتهم من الفيء والغنيمة أحياناً، أو يأخذون أقلّ من حصّتهم منها، وثالثاً إلى أن رَيْع خُراسان كان لا يُصرف على خُراسان وأهلها بل غالباً ما كان يُرسل كلّه أو بعضه إلى دمشق، ورابعاً إلى النزاع المستمر بين شيوخ القبائل وبين الوالي للوصول إلى السلطة في خُراسان، والوضع المرتبك في بلاد الشام أوجد عند القبائل الخُراسانية نوعاً من القلق وعدم الاستقرار، ولذلك كانت الدعوة العباسية بالنسبة لهم أملاً جديداً لحياة أكثر استقراراً وَيُسْراً.

وقد وقعت في جرجان معركة مهمة حيث وقف أهل جرجان الفُرس مع الأمويين، على أنّ الجيش الخُراساني استطاع احتلال جرجان وقتل الكثير من الفُرس الذين قاوموا الخُراسانية. إنّ معركة جرجان دليل آخر على أنّ الدعوة العباسية لم تكن ثورة الفُرس على الأمويين؛ ذلك أنّ الفُرس من أهل جرجان وقفوا إلى جانب الأمويين على العباسيين من أهل خُراسان.

وفي الوقت الذي لم تُثر الدعوة العباسية الكثير من المدن الإيرانية بالدرجة التي يصوّرها

ڤان فلوتن وولهاوزن وغيره فقد هبّت القبائل العربية في العراق لمساعدة الجيش العباسي الذي وصل إلى العراق بقيادة قحطبة الطائي وهدته إلى أقصر الطرق للوصول إلى الكوفة.

وعَيّنَ أبو العباس عمه عبد اللّه بن علي لقيادة الجيش، وكان الجيشان متقاربَي العدد ولكنهما لم يكونا بنفس الانسجام والقوة المعنوية؛ فقد كان الجيش الأموي تعوزه القوة المعنوية وتفتّته العصبية القبلية، وقد أنهكته الحروب الكثيرة ضد الخوارج والثوار. واستمرت المعركة عشرة أيام انهزم مروان في نهايتها وانسحب باتجاه الموصل التي أغلقت أبوابها بوجهه؛ فاضطر إلى التقهقر إلى الشام. وقد حاول مروان أن يستنجد بالقبائل الشامية وخاصة القيسية ولكنها لم تستجب له، وانقسمت دمشق على نفسها بين مؤيد ومعارض فتركها يتبعه الخُراسانية حتى قُتِل في بوصير، إحدى قرى صعيد مصر، في ذي الحجة سنة ١٣٢هـ/تموز ٧٥٠م، قائلاً قولته المشهورة: «انفرجت عني قيس انفراج الرأس، ما تبقى منهم أحد، وذلك أننا وضعنا الأمر في غير موضعه».

أما في العراق فقد فتحت الموصل أبوابها للجيش الخُراساني مستقبلة إياه بالتهليل. وأرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر لحصار واسط حيث تحصّن ابن هبيرة، واستطاع أبو جعفر أن يغري القبائل اليمانية المعتصمة داخل واسط قائلاً لهم «السلطان سلطانكم والدولة دولتكم». فانشقّت والتحقت به، ولذلك قَدّرَ موقفها هذا قائلاً: «يحق لنا أن نعرف لهم حق نصرهم لنا...». مما اضطر ابن هبيرة أنْ يستسلم ويطلب الأمان. أما في البصرة فقد اعتصم مسلم بن قتيبة الباهلي ولم يُسَلّم الإمارة للوالي العباسي سفيان المهلبي، ولكن اعتصامه هذا لم يدم طويلاً حيث ترك البصرة إلى الحجاز لما علم بمقتل ابن هبيرة. وبهذا استطاع العباسيون أن يقضوا على فلول الأمويين في العراق[٢٢].

تولية الأمين

عقد الرشيد لولده محمد بولاية العهد سنة ١٧٥هـ ولقبه بالأمين، وكان عمره خمس سنين. ولم يكن هذا العقد أمراً مفروض الوقوع كعقود من سبقه من أولياء العهد، ويكفي في ذلك أن أخاه عبد اللّه كان أكبر سناً منه، وعلى القاعدة العامة التي جرى عليها من

(٢٢) للدكتور فاروق عمر قول آخر في هذا الموضوع. فقد قال خلال مقال له في مجلة العرب، (م ٥، ص٦٠٧): «إن الدولة العباسية في عصرها الأول لم تقدم العجم على العرب الذين احتفظوا بمراكز القيادة في السياسة والإدارة والجيش، ولكنها أشركت الموالي في هذه الوظائف والامتيازات، على أن الدولة العباسية التي قامت على أكتاف العرب من أهل خراسان والعراق، وخاصة القبائل اليمنية والربعية منهم كانت تنظر نظرة حذر وشك إلى القبائل الشامية الموالين للأمويين فلم تقرب شيوخهم ولم تصطفهم إلا نادراً.

سبقوا الرشيد من الخلفاء فإن الولد الأكبر هو ولي العهد.

ومما يدلنا على أن الأمر لم يكن مبتوتاً به لمحمد، هو أن عيسى بن جعفر[٢٣]، خال محمد، توسط الفضل بن يحيى البرمكي ليعمل على حمل الرشيد على عقد ولاية العهد لابن أخته محمد.

وكان البرامكة يومذاك في أوج عزهم وقمة نفوذهم وأقرب حالاتهم من الرشيد بحيث إن مثل عيسى بن جعفر يخاطب الفضل بمثل هذا التوسل قائلاً له: أنشدك اللّه لما عملت في البيعة لابن أختي محمد، فإنه ولد لك، وخلافته لك.

فعيسى حفيد أبي جعفر المنصور، شقيق زبيدة زوجة الرشيد، لا يرى غضاضة في أن يرجو الفضل بن يحيى بأن يعتبر محمد بن الرشيد ولداً له.

وقد وعده الفضل أن يفعل.

على أنه يبدو من نص للطبري أن بعض بني العباس كان فيهم من يطمح لأن يكون هو ولياً للعهد، فقد قال الطبري وهو يروي قصة عقد ولاية العهد للأمين ما يلي: «وكانت جماعة من بني العباس قد مدوا أعناقهم إلى الخلافة بعد الرشيد لأنه لم يكن له ولي عهد. فلما بايع لمحمد أنكروا بيعته لصغر سنه».

والرشيد الذي جاء إلى الخلافة بانقلاب عسكري، يبدو أنه خشي أن يحدث بعده مثل ما حدث له، لذلك فقد كان أول ما فعله لتوطيد أمر محمد أن أخذ له بيعة القواد والجند.

وهنا يبدو اضطراب في رواية الطبري، فهو يقول: «وقد كان الفضل لما تولى خراسان أجمع على البيعة لمحمد، ففرق فيهم أموالاً وأعطى الجند أعطيات متتابعات ثم أظهر البيعة لمحمد بن الرشيد فبايع الناس له وسماه الأمين، فلما تناهى الخبر إلى الرشيد بذلك وبايع أهل المشرق، بايع لمحمد وكتب إلى الآفاق فبويع له في جميع الأمصار».

فهذا النص يوحي بأن الذي بدأ بإعلان ولاية عهد محمد هو الفضل لا الرشيد، وأن الفضل هو الذي سماه الأمين. وأن ذلك أنهى التردد في نفس الرشيد فصمم على البيعة لمحمد.

ومع تسليمنا بنفوذ البرمكيين على الرشيد وإقراره لما يُقِرّونه، نستبعد أن يسبق الفضل الرشيد في إعلان ما أعلن. إلّا أن يكون الأمر مدبراً بينهما بأن يعلن الفضل البيعة في المشرق فتصبح واقعاً لا بد من إقراره.

(٢٣) عيسى بن جعفر بن المنصور شقيق زبيدة أم محمد.

ومهما كان الأمر فلا بد من أن نسجل هنا أن الداعي الأول لخلافة الأمين كان فارسياً، وأن هذه الدعوة قامت أول ما قامت في خراسان.

وحين نعلم أن المنافس الحقيقي للأمين هو المأمون، ندرك أن خؤولة المأمون الفارسية لم تنفعه عند هذا الفارسي العريق، ولا نفعته عند فرس خراسان. وأن الزعم بارتكاز المأمون بعد ذلك في صراعه مع أخيه الأمين على الفرس ليس بصحيح كما سنرى في الآتي من القول.

المأمون بعد الأمين

في سنة ١٨٢هـ خرج هارون الرشيد من مكة متجهاً إلى مقره الصيفي في الرقة[٢٤] على أطراف بلاد الشام القريبة من أطراف العراق، وبوصوله إلى الرقة، قدّم ولده عبد اللّه وبايع له بولاية العهد بعد ابنه محمد، ولقّبه «المأمون» بعد أن كان من قبل قد بايع بولاية العهد لولده محمد ولقّبه «الأمين».

ولو ترك الرشيد وشأنه لبايع بولاية العهد لابنه عبد اللّه أولاً، ثم لابنه محمد، فهذا التصرف هو التصرف الطبيعي لأن عبد اللّه هو الأكبر سناً ثم هو البادي التفوق بذكائه وعقله وحسن تدبيره واتجاهه إلى اكتساب العلم والمعرفة[٢٥].

ولكن الرشيد تجاوز ذلك كله، وخالف ما كان يتمناه فبايع لمحمد الأمين أولاً ولعبد اللّه المأمون ثانياً، وذلك ـ لا شك ـ بضغط من زوجته زبيدة أم الأمين[٢٦].

ولئلا تضيع مواهب المأمون، وتذهب كفاءته سدىً، فقد جعله ولياً لعهد الأمين، على أمل أن تصل إليه الخلافة فيحسن تدبير أمورها وتنتفع البلاد بمزاياه، ولو بعد الأمين.

على أنه لم يؤخر الإفادة منه إلى حين وصوله إلى الخلافة، بل عجل ذلك بأن عينه بعد وصوله إلى بغداد والياً على خراسان وما يتصل بها إلى همذان. ويعبر الطبري عن ذلك

(٢٤) المعروف أن الرقة كانت مصيفاً للرشيد. ولكن الرشيد حين عوده من سفره إلى خراسان سنة ١٨٩ هـ مر ببغداد مجتازاً لها في طريقه إلى الرقة دون أن يعرج عليها معللاً عدم تعريجه على بغداد واتخاذ الرقة مقاماً كما يروي الطبري بقوله: أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق، والبغض لأئمة الهدى، والحب لشجرة اللعنة بني أمية، مع ما بها من المارقة والمتلصصة ومخيفي السبيل ولولا ذلك ما فارقت بغداد.

ومن هذا القول يفهم أن إقامة الرشيد في الرقة كانت لأسباب تتعلق بالدولة وشؤونها لا للاصطياف كما هو مشهور.

(٢٥) من مظاهر تقدير الرشيد لمواهب المأمون واعتماده عليه أنه في سنة ١٩٠ هـ غزا الصائفة فاستخلف المأمون بالرقة وفوض إليه الأمور وكتب إلى الآفاق بالسمع له والطاعة ودفع إليه خاتم المنصور يتيّمن به وهو خاتم الخاصة.

(٢٦) كانت بيعة الأمين بولاية العهد سنة ١٧٥ هـ وبيعة المأمون سنة ١٨٣ هـ وزبيدة هي بنت جعفر بن المنصور.

بقوله: «ولاه من حد همذان إلى آخر المشرق» كما كان قد جعل للأمين الشام والعراق[٢٧].

وحين نتخيل المساحة التي جعل المأمون حاكماً عليها، أو حين ننظر اليوم إلى الخريطة المشتملة على هذه الولاية، نرى أنه قد خصه بالقسم الشرقي من المملكة الإسلامية، القسم الشرقي كله؛ أي مما يقرب من حدود العراق إلى آخر المملكة شرقاً. ولكي يوطد الرشيد أمر المأمون أخذ له ـ وهو في الرقة ـ البيعة على الجند، ثم وجهه إلى بغداد وحين وصل إليها أخذت له البيعة فيها قبل عودة الرشيد، إذ لم يعد الرشيد إلى بغداد إلّا في جمادى الآخرة سنة ١٨٤هـ. وفي بيعة الرشيد للمأمون يقول الشاعر سلم الخاسر:

بايع هارون إمامُ الهدى ... لذي الحجى والخلق الفاضل
المخلف المتلف أمواله ... والضامن الأثقال للحامل
والعالم الناقد في علمه ... والحاكم الفاضل والعادل
والراتق الفاتق حلف الهوى ... والقائل الصادق والفاعل
لخير عباس إذا حصلوا ... والمفضل المجدي على العاقل
أبرهم براً وأولاهم ... بالعرف عند الحدث النازل
فتم بالمأمون نور الهدى ... وانكشف الجهل عن الجاهل

وبالرغم من يقيننا بأن هذا الشاعر كغيره من الشعراء إنما يمدح متملقاً، ويثني مستجدياً، فإننا لا نستطيع إلّا أن نقف عند الأوصاف التي وصف بها هذا الشاعر ممدوحه المأمون، فهي ليست أوصافاً تقليدية تقال في كل أمير ممدوح، بل هي صفات معينة، حددها الشاعر مضافة إلى الأوصاف الأخرى التي تغدق على الممدوحين إغداقاً مهما كانت حقيقتهم.

(٢٧) يقول الشيخ محمد رضا الشبيبي عن ولاية المأمون على خراسان:

«مرت بلاد الأتراك والشرق بأسره في الفترة الواقعة بين أواخر خلافة هارون الرشيد إلى أواخر خلافة المأمون وأوائل خلافة المعتصم بمرحلة خطيرة من مراحل الانتقال. مرحلة امتازت بإقبال الأتراك على الدخول في حظيرة الإسلام وهي ثمرة من ثمرات السياسة الإنشائية التي انتهجها المأمون في ولايته على خراسان بل في خلافته بأسرها وولاية عهده قبل ذلك. أقبل أتراك ما وراء النهر ـ أتراك الصغد والشاش وأشروسنة والصغانيان، وفي مقدمتهم ملوكهم وأمراؤهم وأشهرهم كاوس وابنه حيدر بن كاوس المعروف بالأفشين وأمثالهم ـ على الإسلام وازدحمت وفودهم على باب المأمون أمير خراسان. هكذا أسفرت هذه السياسة الإنشائية عن نتائج باهرة في تلك البلاد إذ نعمت بعهد منقطع النظير من الطمأنينة والرخاء في عصر المأمون وغلب الإسلام على أهل تلك البلاد في خلافة المأمون».

وقد نحا المأمون نحو سياسة مثمرة أساسها الكف عن الغزو والإثخان في البلاد النائية وقوامها التعاون مع أهل البلاد المفتوحة والميل إلى الصلح وتسوية ما بين الفريقين من الخصومات تسوية سلمية مهما أمكن ذلك.

وفي عصر المأمون أبلى الأتراك بلاء حسناً في الدفاع عن حدود الدولة في بوادي تركستان وعلى تخوم الشرق الأقصى. وهي ثمرة من ثمرات السياسة التي سار عليها المأمون (ابن الغوطي، الصفحة ١٨٠ وما بعدها).

كتاب الأميـن إلى الرشيد

بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد اللّه هارون أمير المؤمنين كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله وجواز من أمره طائعاً غير مكره أن أمير المؤمنين ولاني العهد من بعده وصيّر البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً وولى عبد اللّه بن هارون أمير المؤمنين العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدي برضى مني وتسليم طائعاً غير مكره وولاه خراسان وثغورها وكورها وجندها وخراجها وطرزها وبريدها وبيوت أموالها وصدقاتها وعشرها وجميع أعمالها في حياته وبعده وشرطت لعبد اللّه هارون أمير المؤمنين برضى مني وطيب نفسي أن لأخي عبد اللّه بن هارون عليَّ الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعاً بعدي وتسليم ذلك له وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلها ومما أقطعه أمير المؤمنين من قطيعة أو جعل له من عُقدة أو ضيعة من ضياعه أو ابتاع من الضياع والعقد وما أعطاه في حياته وصحته من مال أو حلى أو جوهر أو متاع أو كسوة أو منزل أو دواب أو قليل أو كثير فهو لعبد اللّه ابن هارون أمير المؤمنين، موفراً مسلماً إليه. وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً فإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت وأفضت الخلافة إلى محمد بن أمير المؤمنين فعلى محمد إنفاذ ما أمر به هارون أمير المؤمنين في تولية عبد اللّه بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها ومن ضم إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقرماسين وأن يمضي عبد اللّه بن أمير المؤمنين إلى خُراسان والرَّيّ والكور التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد اللّه بن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحبَّ من لدن الرَّي إلى أقصى عمل خُراسان ليس لمحمد بن أمير المؤمنين أن يحوّل عنه قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين، ولا يحول عبد اللّه بن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاه إياها هارون أمير المؤمنين من ثغور خراسان وأعمالها كلها ما بين عمل الرَّيّ مما يلي همذان إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها وما هو منسوب إليها ولا شخصهُ إليه ولا يفرق أحداً من أصحابه وقوّاده عنه ولا يولي عليه أحداً ولا يبعث عليه ولا على أحد من عُماله وولاة أموره بنداراً ولا محاسباً ولا عاملاً ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير ضرراً، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره ولا يَعْرض لأحد ممن ضم إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته وقضاته وعُمّاله وكتابه وقُوّاده وخدمه ومواليه وجنده بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم في أنفسهم ولا قراباتهم ولا مواليهم، لا أحد يتنسل منهم ولا في دمائهم ولا في أموالهم ولا في ضياعهم ودورهم ورباعهم وأمتعتهم ورقيقهم

ودوابهم شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً، ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه وبترخيص له في ذلك وإدهان منه فيه لأحد من ولد آدم ولا يحكم في أمرهم ولا أحد من قضاته ومن عماله وممن كان بسبب منه بغير حكم عبد اللّه بن أمير المؤمنين ورأيه ورأي قضاته. وإن نزع إليه أحد ممن ضم أمير المؤمنين إلى عبد اللّه بن أمير المؤمنين من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابته وقواده وعماله وكتابه وخدمه ومواليه وجنده ورفض اسمه ومكتبه ومكانه مع عبد اللّه بن أمير المؤمنين عاصياً له أو مخالفاً عليه فعلى محمد بن أمير المؤمنين ردُّه إلى عبد اللّه بن أمير المؤمنين بصغر له وقمإ حتى ينفذ فيه رأيه وأمره فإن أراد محمد بن أمير المؤمنين خلع عبد اللّه بن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده أو عزل عبد اللّه بن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان وثغورها وأعمالها والذي من حد عملها مما يلي همذان والكور التي سماها أمير المؤمنين في كتابه هذا أو صرف أحد من قواده الذين ضمهم أمير المؤمنين إليه من قدم قوْماسين أو أن ينتقصه قليلاً أو كثيراً مما جعله أمير المؤمنين له بوجه من الوجوه أو بحيلة من الحيل صغرت أو كبرت فلعبد اللّه بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين وهو المقدم على محمد بن أمير المؤمنين وهو وليّ الأمر من بعد أمير المؤمنين والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون من أهل خراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبد اللّه بن أمير المؤمنين والقيام معه والمجاهدة لمن خالفه والنصر له والذبّ عنه ما كانت الحياة في أبدانهم وليس لأحد منهم جميعاً من كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ولا يعصيه ولا يخرج من طاعته ولا يطيع محمد ابن أمير المؤمنين في خلع عبد اللّه بن هارون أمير المؤمنين وصرف العهد عنه من بعده إلى غيره أو ينتقصه شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون في حياته وصحته واشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام وفي هذا الكتاب وعبد اللّه بن أمير المؤمنين المصدق في قوله وأنتم في حل من البيعة التي في أعناقكم لمحمد بن أمير المؤمنين هارون إن نقص شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد اللّه بن أمير المؤمنين هارون ويُسلم له الخلافة وليس لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ولا لعبد اللّه بن أمير المؤمنين أن يخلعا القاسم بن أمير المؤمنين هارون ولا يقدما عليه أحداً من أولادهما وقراباتهما ولا غيرهم من جميع البرية فإذا أفضت الخلافة إلى عبد اللّه بن أمير المؤمنين فالأمر إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته وتقديم من أراد أن يقدم قبله وتصيير القاسم ابن أمير المؤمنين بعد من يقدم قبله يحكم في ذلك بما أحب ورأى. فعليكم معشر المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا أو شرط عليهم وأمر به وعليكم

السمع والطاعة لأمير المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد اللّه بن أمير المؤمنين وعهد اللّه وذمته وذمة رسوله صلى اللّه عليه وسلم وذمم المسلمين والعهود والمواثيق التي أخذ اللّه على الملائكة المقربين والنبيين والمرسلين ووكدها في أعناق المؤمنين والمسلمين لتَفُنَّ لعبد اللّه أمير المؤمنين بما سمى ولمحمد وعبد اللّه والقاسم بني أمير المؤمنين بما سمى وكتب في كتابه هذا واشترط عليكم وأقررتم به على أنفسكم فإن أنتم بدّلتم من ذلك شيئاً أو غيرتم أو نكثتم أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين واشترط عليكم في كتابه هذا فبرئت منكم ذمة اللّه وذمة رسوله محمد صلى اللّه عليه وسلم وذمم المؤمنين والمسلمين وكلّ مال هو اليوم لكلّ رجل منكم أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين وعلى كل رجل منكم المشي إلى بيت اللّه الحرام الذي بمكة خمسين حجة نذراً واجباً لا يقبل اللّه منه إلّا الوفاء بذلك وكل مملوك لأحد منكم أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة حُرٌ وكل امرأة لي فهي طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج لا مثنوية فيها واللّه عليكم بذلك كفيل وراع وكفى باللّه حسيباً.

كتاب المأمون إلى الرشيد

هذا كتاب لعبد اللّه هارون أمير المؤمنين كتبه له عبد اللّه بن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله وجواز من أمره وصدق نية فيما كتب في كتابه هذا ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين أنَّ أمير المؤمنين هارون ولّاني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون وولاني في حياته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لي من الخلافة وولاية أمور العباد والبلاد بعده وولاية خراسان وجميع أعمالها ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين وابتاعَ لي من الضياع والعُقد والرباع وابتعت منه من ذلك وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجوهر والكساء والمتاع والدواب والرقيق وغير ذلك ولا يعرض لي ولا لأحد من عمالي وكتّابي بسبب محاسبة ولا يتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أبداً ولا يُدخل عليّ ولا عليهم ولا على ما كان معي ومن استعنت به من جميع الناس مكروهاً في نفس ولا دم ولا شعر ولا بشر ولا مال ولا صغير من الأمور ولا كبير فأجابه إلى ذلك وأقر به وكتب له كتاباً أكد فيه على نفسه ورضي به أمير المؤمنين هارون وقبله وعرف صدق نيته فيه فشرطت لأمير المؤمنين وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه وأنصحه ولا أغشه وأوفي ببيعته وولايته ولا أغدر ولا أنكث وأنفذ

كتُبه وأموره وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحيتي ما وفى لي بما شرط لأمير المؤمنين في أمري وسمى في الكتاب الذي كتبه لأمير المؤمنين ورضي به أمير المؤمنين ولم يتبعني بشيء من ذلك ولم ينقض أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه فإن احتاج محمد بن أمير المؤمنين إلى جند وكتب إليّ يأمرني بإشخاصه إليه أو إلى ناحية من النواحي أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد نقص شيء من سلطانه أو سلطاني الذي أسنده أمير المؤمنين إلينا وولّانا إياه فعليّ أن أنفذ أمره ولا أخالفه ولا أقصر في شيء كتب به إلي وإن أراد محمد أن يولي رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدي فذلك له ما وفى لي بما جعله أمير المؤمنين إليّ واشترطه لي عليه وشرط على نفسه في أمري وعليّ إنفاذ ذلك والوفاء له به ولا أنقص من ذلك ولا أغيّره ولا أبدّله ولا أقدّم قبله أحداً من ولدي ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين إلّا أن يولي أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدي فيلزمني ومحمد الوفاء له وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد عليّ الوفاء بما شرطت وسميت في كتابي هذا ما وفى لي محمد بجميع ما اشترط لي أمير المؤمنين عليه في نفسي وما أعطاني أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسماة في هذا الكتاب الذي كتبه لي وعليّ عهد اللّه وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتي وذمم آبائي وذمم المؤمنين وأشد ما أخذ اللّه على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين من عهوده ومواثيقه والأيمان المؤكدة التي أمر اللّه بالوفاء بها ونهى عن نقضها وتبديلها فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت وسميت في كتابي هذا أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت فبرئتُ من اللّه عزّ وجل ومن ولايته ودينه ومحمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولقيتُ اللّه يوم القيامة كافراً مشركاً وكل امرأة هي لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج وكل مملوك هو لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه اللّه وعليّ المشي إلى بيت اللّه الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة نذراً واجباً عليّ في عنقي حافياً راجلاً لا يقبل اللّه مني إلّا الوفاء بذلك وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هديٌ بالغ الكعبة وكل ما جعلت لأمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا لازم لي لا أضمر غيره ولا أنوي غيره وشهد سليمان بن أمير المؤمنين وفلان وفلان وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة.

كتاب الرشيد إلى العمال

بسم اللّه الرحمن الرحيم، أما بعد فإن اللّه وليّ أمير المؤمنين ووليّ ما ولاه والحافظ لما استرعاه وأكرمه به من خلافته وسلطانه والصانع له فيما قدم وأخر من أموره والمنعم عليه بالنصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها والكالىء والحافظ والكافي من جميع خلقه وهو

المحمود على جميع آلائه المسؤول تمام حسن ما أمضى من قضائه لأمير المؤمنين وعادته الجميلة عنده وإلهام ما يرضى به ويوجب له عليه أحسن المزيد من فضله وقد كان من نعمة اللّه عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما تولى اللّه من محمد وعبد اللّه ابني أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أملت الأمة ومدّت إليه أعناقها وقذف اللّه لهما في قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون إليهما والثقة بهما لعماد دينهم وقوام أمورهم وجمع ألفتهم وصلاح دهمائهم ودفع المحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم حتى ألقوا إليهما أزمتهم وأعطوهما بيعتهم وصفقات أيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلظة عليهم أراد اللّه فلم يكن له مردٌّ وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته ولا صرف له عن محبته ومشيئته وما سبق في علمه منه وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة عليه وعليهما في ذلك وعلى الأمة كافة لا عاقب لأمر اللّه ولا معقب لحكمه ولم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عقد العهد لمحمد بن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين ولعبد اللّه بن أمير المؤمنين من بعد محمد بن أمير المؤمنين يعمل فكره ورأيه ونظره ورؤيته فيما فيه الصلاح لهما ولجميع الرعية والجمع للكلمة واللمّ للشعث والدفع للشتات والفرقة والحسم لكيد أعداء النعم من أهل الكفر والنفاق والغل والشقاق والقطعُ لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها وانتهازها منهما بانتقاص حقهما ويستخير اللّه أمير المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على ما فيه الخيرة لهما ولجميع الأمة والقوة في أمر اللّه وحقه وائتلاف أهوائهما وصلاح ذات بينهما وتحصينهما من كيد أعداء النعم وردّ حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما فعزم اللّه لأمير المؤمنين على الشخوص بهما إلى بيت اللّه وأخذ البيعة منهما لأمير المؤمنين بالسمع والطاعة والإنفاذ لأمره واكتتاب الشرط على كل واحد منهما لأمير المؤمنين ولهما بأشد المواثيق والعهود وأغلظ الأيمان والتوكيد والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتهما ومودتهما وتواصلهما وموازرتهما ومكانتهما على حسن النظر لأنفسهما ولرعية أمير المؤمنين التي استرعاهما والجماعة لدين اللّه عز وجل وكتابه وسنن نبيه صلى اللّه عليه وسلم والجهاد لعدو المسلمين من كانوا وحيث كانوا وقطع طمع كل عدو مظهر للعداوة ومُسِرٍّ لها وكل منافق ومارق وأهل الأهواء الضالة المضلة من فرقة تكيد بكيد توقعه بينهما وبدحس يدحس به لهما وما يلتمس أعداء اللّه وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة والسعي بالفساد في الأرض والدعاء إلى البدع والضلالة نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته وأمة نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم ومناصحة للّه ولجميع المسلمين وذباً عن

سلطان اللّه الذي قدره وتوحد فيه للذي حمله إياه والاجتهاد في كل ما فيه قربة إلى اللّه وما ينال به رضوانه والوسيلة عنده فلما قدم مكة أظهر لمحمد وعبد اللّه رأيه في ذلك وما نظر فيه لهما فقبلا كل ما دعاهما إليه من التوكيد على أنفسهما بقبوله وكتبا لأمير المؤمنين في بطن بيت اللّه الحرام بخطوط أيديهما بمحضر ممن شهد الموسم من أهل بيت أمير المؤمنين وقوّاده وصحابته وقضاته وحجبة الكعبة وشهاداتهم عليهما كتابين استودعهما أمير المؤمنين الحجبة وأمر بتعليقهما في داخل الكعبة فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كله في داخل بيت اللّه الحرام بطن الكعبة أمر قضاته الذين شهدوا عليهما وحضروا كتابهما أن يعملوا جميع من حضر الموسم من الحاج والعمار ووفود الأمصار ما شهدوا عليه من شرطهما وكتابهما وقراءة ذلك عليهم ليفهموه ويعوه ويعرفوه ويحفظوه ويؤدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم ففعلوا ذلك وقرىء عليهم الشرطان جميعاً في المسجد الحرام فانصرفوا وقد اشتهر ذلك عندهم وأثبتوا الشهادة عليه وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم وحقن دمائهم ولمّ شعثهم وإطفاء جمرة أعداء اللّه وأعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه في ذلك وقد نسخ لك أمير المؤمنين ذينك الشرطين اللذين كتبهما لأمير المؤمنين ابناه محمد وعبد اللّه في بطن الكعبة في أسفل كتابه هذه فاحمد اللّه عز وجل على ما صنع لمحمد وعبد اللّه وليَّي عهد المسلمين حمداً كثيراً واشكره ببلائه عند أمير المؤمنين وعند وليَّيْ عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمّة محمد صلى اللّه عليه وسلم كثيراً واقرأ كتاب أمير المؤمنين على من قبلك من المسلمين وأفهمهم إياه وقم به بينهم وأثبته في الديوان قبلك وقبل قواد أمير المؤمنين ورعيته قبلك واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء اللّه وحسبنا اللّه ونعم الوكيل وبه الحول والقوة والطول وكتب إسماعيل بن صبيح يوم السبت لسبع ليال بقين من المحرم سنة ست وثمانين ومائة.

خروج الرشيد من بغداد ووفاته

وفي سنة ١٩٢هـ في شهر ربيع الأول ترك الرشيد الرقة متجهاً إلى بغداد في طريقه إلى خراسان، واستخلف بالرقة ولده القاسم، وفي شهر شعبان من هذه السنة ترك بغداد متجهاً إلى خراسان مستخلفاً ولده محمد ببغداد.

وكان الهدف من هذه الرحلة إخماد ثورة قام بها رافع بن ليث بن نصر بن سيار بسمرقند مخالفاً للرشيد وخالعاً إياه ونازعاً يده من طاعته، على ما ينص الطبري.

وإذا كان الرشيد قد أناب عنه في الرقة ولده القاسم، وفي بغداد ولده محمداً، فإن عبد اللّه لم يكن له من الأمر شيء، بل بقي في حكم محمد.

وهنا تنبه الفضل بن سهل لهذا الأمر ـ وكان هواه مع عبد اللّه المأمون ـ فنبه عبد اللّه إلى وضعه وما يمكن أن تصير إليه حاله إذا طرأ على الرشيد طارىء في حياته في سفره هذا فقال للمأمون: «لست تدري ما يحدث بالرشيد وهو خارج إلى خراسان وهي ولايتك ومحمد المقدم عليك وإن أحسن ما يصنع بك أن يخلعك وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم، وزبيدة وأموالها، فاطلب إليه أن يُشخصك معه».

فاستجاب عبد اللّه لطلب الفضل، وطلب إلى أبيه الإذن له بالسفر معه، فأبى أن يأذن له. ولكن الفضل أصر على عبد اللّه أن يعاود الاستئذان بحجة أن أباه مريض وأنه يريد من السفر معه أن يخدمه، فاستجاب الرشيد لطلب عبد اللّه فسافر معه.

وكان رحيل الرشيد هذا عن بغداد هو آخر رحيل له إذ لم يعد إليها بل مات في خراسان ودفن في طوس، وكان عمره عند وفاته خمساً وأربعين سنة، وحين تولى الخلافة كان في سن الثانية والعشرين، وكانت مدة خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وتوفي سنة ١٩٣هـ.

مات الرشيد في طوس، وابنه عبد اللّه المأمون في مدينة مرو عاصمة خراسان، وابنه الآخر محمد الأمين في بغداد. وكان قد صحب الرشيد في سفره إلى خراسان ولده صالح.

ولما توفي الرشيد بويع في عسكر الرشيد بخراسان لمحمد الأمين بالخلافة، وكتب صالح إلى أخيه الأمين بوفاة الرشيد، فلما وصله الخبر أمر الناس بالحضور ليوم الجمعة فحضروا وصلى بهم، وبعد الصلاة خطبهم ونعى أباه وعزى نفسه وعزى الناس، ووعدهم خيراً. فبايعه أهل بيته وخاصته ومواليه وقواده. ثم أوكل بتقبل البيعة من بقية الناس أحد أقربائه وأحد قواده.

وكان الرشيد حين سار إلى خراسان قد جدد البيعة لعبد اللّه المأمون على القواد الذين معه، وأشعر من معه من القواد وسائر الناس وغيرهم أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون، وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك، هو للمأمون.

وكان المأمون قبل أن يبلغه خبر وفاة أبيه قد ترك مرو متجهاً إلى سمرقند، فلما كان على فرسخ من مرو وصله خبر وفاة أبيه فعاد إلى مرو ودخل دار الإمارة ونعى الرشيد على المنبر وبايع لأخيه محمد الأمين.

ومن الإنصاف أن نقول إن مجرى الأحداث كلها يدل على أن المأمون كان مصمماً على تنفيذ وصية أبيه والتسليم بالخلافة لأخيه، والاستقلال بخراسان كما تنص عليه الوصية،

وأنه لم يداخله أي تفكير بالإخلال في إنفاذ ما أمر أبوه بإنفاذه. فكل تصرفاته قولاً وعملاً توحي بذلك. كما أنها توحي بأنه لم يكن في ذهنه أن أخاه الأمين يمكن أن يخل بشيء من أمر الوصية.

على أن الأمر كان مختلفاً عند الرجل الأول في أنصاره: الفضل بن سهل. فهذا الرجل البعيد النظر الذي أصر من قبل على المأمون بأن يصر على مصاحبة أبيه في سفره إلى خراسان تحسباً لما قد يحدث للرشيد في هذا السفر، وخوفاً من أن يكون المأمون أسيراً عند أخيه الأمين، إذا مات أبوهما في سفره هذا، والذي كان يتوقع الغدر من الأمين فأراد أن يحتاط للمأمون كل الاحتياط. وقد صدقت توقعاته فمات الرشيد في سفره، ونجا المأمون من إطباق أخيه عليه في بغداد.

إن هذا الرجل ظل على ريبة من الأمين، ولم يشأ أن يستسلم للأقدار فيمضي كما مضى المأمون مخلصاً للوصية دون أي احتياط أو حذر.

فهو نفسه يتحدث لبعض خلصائه بأنه، بعد أن اشتدت العلة بالرشيد، استقبل وجوه أهل خراسان وفيهم الحسين بن مصعب. فأسرَّ إليه هذا قائلاً إن الرشيد ميت أحد هذين اليومين، وأمر محمد بن الرشيد ضعيف، والأمر أمر صاحبك، فمدَّ يدك فمد يده فبايع للمأمون بالخلافة.

ثم إن الحسين هذا أتى الفضل بعد أيام ومعه الخليل بن هاشم، فقال هذا ابن أخي وهو لك ثقة، خذ بيعته.

وهكذا نرى أن الفضل بن سهل قد أخذ البيعة بالخلافة للمأمون في الوقت الذي كان فيه الرشيد لا يزال حياً، وكان الأمين لم يبد في الظاهر أي اعتراض على تنفيذ وصية أبيه، وأنه بويع بالخلافة للمأمون وهو لا يدري بهذه البيعة.

ولكن إذا كان الأمين لم يتظاهر بالعزم على نقض وصية أبيه، وإذا كان الفضل بن سهل قد تصرف بما تصرفِ والرشيد لا يزال حياً، وأنه كان يضمر ما لا يظهره من الترتيبات التي تدعم المأمون...

إذا كان الأمر كذلك فإن الأمين هو الآخر قد بدأ يعد الشر لأخيه المأمون ويجهد لأمره في الوقت الذي كان فيه الرشيد حياً، وكما أسرّ الفضل بن سهل نواياه كذلك كان الأمين قد أسرّ نواياه. وهكذا فإن الصراع قد بدأ والرشيد مريض مسجّى في طوس لا يزال في الحياة.

وقد رأينا أن الفضل بن سهل قد تقبل بيعة الحسين بن صعب وبيعة الخليل بن هاشم

بالخلافة للمأمون، وهو ما دوَّنه لنا الطبري، أما ما لم يدوِّنه مما كان يعتمل في ذهن الفضل، وما كان قد تدبر أمره فيه سراً، فلا شك أنه شيء في غاية الأهمية.

أما ترتيبات الأمين فتتلخص في أنه عندما بلغه وهو في بغداد أن أباه قد اشتدت علته، وأنه موشك على الموت بعث من يأتيه بخبره في كل يوم، وأرسل بكر بن المعتمر بمهمة كانت تعبيراً واضحاً عما يتردد في نفسه من مخاصمة أخيه المأمون، فقد حمّل بكراً رسائل إلى من في خراسان يبدو صريحاً مما ذكره الطبري أنها كانت لجماعات معينة في خراسان، ولكن الطبري نفسه لم يذكر ممن أرسلت لهم الرسائل إلّا المأمون، وإلّا أخاه صالحاً، إذ إن صالحاً هذا كان مصاحباً لأبيه في سفر خراسان.

ومع أن عبارة الطبري صريحة بأن ما حمله المعتمر كان «كتباً» لا كتابين، فإن الطبري لم يذكر إلّا نص كتابين اثنين، أحدهما للمأمون والآخر لصالح.

ويبدو أن أهمية المرسل إليهما الكتابان هي التي حفظت النص المرسل إلى كل واحد، وإن كتب الآخرين لم تجد من يحفظ نصوصها، أو أن الأمر كان أمر خشية مما حوته تلك النصوص من تحريض على المأمون فآثر أصحابها إتلافها خوفاً من اطّلاع السلطة القائمة عليها، هذه السلطة المتمثلة بالمأمون الذي أصبح، منذ وصول نعي أبيه، الحاكم المطلق لخراسان حسب ما نصت عليه وصية أبيه، فهو عندما أذاع نعي أبيه على المنبر وبايع لأخيه بالخلافة، كان يعلن بذلك نفسه حاكم خراسان، لأن الوصية لا تتجزأ، فعندما يعلن إنفاذ شطر منها، كان معنى ذلك إعلان إنفاذ الشطر الآخر.

ومهما يكن من أمر فنحن لا ندري لا لمن كانت كتب الأمين ولا نصوص تلك الكتب، والذي ندريه هو أنه كان في تلك الرسائل شيء خطير اقتضى أن يحملها بكر بن المعتمر مخفية إخفاء لا يستطيع أحد معرفة مكانها، وأن يؤمر حاملها بأن يحفظ سرها حتى لو قتل، ولا يعرف أمرها حتى الرشيد نفسه.

ومن هنا استنتاجنا بأن ما فيها كان شيئاً خطيراً يتضمن الدعوة إلى خذلان المأمون، ومن هنا إصرار الأمين على أن لا يطلع عليها الرشيد.

وإننا نأخذ عبارة الطبري بنصها. قال الطبري في الصفحة ١٢٤ من الجزء العاشر، طبعة دار القاموس الحديث، ما يلي: «فلما بلغ محمد بن هارون أن أباه قد اشتدت علته وأنه لِما به بعث من يأتيه بخبره كل يوم فأرسل بكر بن المعتمر وكتب معه كتباً وجعلها في قوائم صناديق منقورة ألبسها جلود البقر، وقال لا يظهرن أمير المؤمنين ولا أحد ممن في عسكره على شيء من أمرك وما توجهت فيه ولا ما معك ولو قُتلت حتى يموت أمير المؤمنين، فإذا

مات فادفع إلى كل رجل منهم كتابه». وهذا القول صريح بأن الرسائل كانت موجهة لا إلى المأمون وأخيه صالح فقط، بل إلى زعماء خراسانيين أيضاً، لقول الطبري عن لسان الأمين: «فادفع إلى كل رجل منهم كتابه».

وحِرْصُ الأمين على هذه السرية دليل ـ كما قلنا ـ على خطورة ما تحمله الرسائل. وبذلك نستطيع القول بأن الأمين قد صمم على عزل أخيه المأمون من ولاية العهد، قبل موت والده. كما كان في ذلك أمر الفضل بن سهل، ولكن الفرق بين الأمرين أن أمر الفضل كان أمراً وقائياً تحسباً لما قد يقع، وأمر الأمين كان أمراً متعمداً.

أما ما جرى لبكر بن المعتمر حامل رسائل الأمين فهو كما يلي: وصل بكر إلى طوس والرشيد مريض، وكان أولَ من فاجأهم وصول بكر، الرشيدُ نفسه، فعندما بلغه قدوم بكر دعا به وسأله ما أقدمك؟ فقال بكر بعثني محمد لأعلم له خبرك وآتيه به. ولكن هذا الجواب لم يقنع الرشيد، مدركاً أن بكراً مكلف من الأمين بمهمة كبيرة، فقال له هل معك كتاب؟ قال بكر: لا ولكن الرشيد لم يصدق، فأمر بما معه ففتش فلم يهتدوا إلى شيء. فهدده بالضرب، فلم يقر بشيء، فأمر به فحبس وقيّد.

ولا شك أن اهتمام الرشيد بمعرفة ما وراء مجيء بكر هو يقينه بأن تدبيراً ما يدبره الأمين لإفساد أمر أخيه المأمون، وهو لا يريد إفساد هذا الأمر.

وفي اليوم الذي مات فيه الرشيد طلب قبيل موته إلى الفضل بن الربيع أن يذهب إلى محبس بكر بن المعتمر فيقرّره فإن أقر وإلّا قتله، إذ كان يرى أن في قتله إفشالاً للمهمة التي جاء من أجلها. فذهب إليه الفضل فقرره فلم يقر بشيء.

ويصف الطبري الموقف بهذا الكلام: «ثم غشي على الرشيد فصاح النساء فأمسك الفضل عن قتله وصار إلى هارون ليحضره. ثم أفاق هارون وهو ضعيف قد شغل عن بكر وعن غيره لحسّ الموت، ثم غشي عليه غشية ظنوا أنها هي، وارتفعت الضجة، فبعث بكر ابن المعتمر برقعة منه إلى الفضل بن الربيع مع عبد اللّه بن أبي نعيم يسأله أن لا يعجلوا بأمر، ويعلمه أن معه أشياء يحتاجون إلى علمها».

وإذا عرفنا أن هوى الفضل بن الربيع هو مع الأمين، وأن مهمة ابن المعتمر هي لمصلحة الأمين، أدركنا أنه تعمد عدم قتل ابن المعتمر متذرعاً بانشغاله بدنو أجل الرشيد.

وابن المعتمر الذي يعلم ميل الفضل بن الربيع إلى الأمين أرسل إليه بأن لا يعجل في أمره لأن عنده أشياء يحتاج الفضل إلى معرفتها.

وهكذا كانت المصالح تتشابك وتتعارض والناس يتآمرون على من يدَّعون حبهم،

ويشترك في هذا التآمر حتى الأبناء على الآباء، والجميع لا يرون إلّا مصالحهم... هذا هو الإنسان في كل زمان ومكان...

فلما توفي الرشيد دعا الفضل بن الربيع ببكر من المعتمر من ساعته، فسأله عما عنده، فأنكر أن يكون عنده شيء، وخشي على نفسه من أن يكون الرشيد حياً، فلما صح عنده موت الرشيد، أدخله الربيع عليه فأخبره أن عنده كتباً من الأمين وأنه لا يجوز له إخراجها وهو في قيوده وحبسه، فأطلقه الفضل، فأتاهم بالكتب التي عنده في قوائم المطابخ المجلدة بجلود البقر. فدفع إلى كل إنسان منهم كتابه ـ كما يقول الطبري ـ وكان في تلك الكتب كتاب من الأمين إلى المأمون، وكتاب إلى صالح.

كتاب الأمين إلى أخيه المأمون

بسم الله الرحمن الرحيم، إذا ورد عليك كتاب أخيك أعاذه اللّه من فقدك عند حلول ما لا مردّ له ولا مدفع مما قد أخف وتناسخ الأمم الخالية والقرون الماضية بما عزاك اللّه به واعلم أن اللّه جل ثناؤه قد اختار لأمير المؤمنين أفضل الدارين وأجزل الحظين فقبضه اللّه طاهراً زاكياً قد شكر سعيه وغفر ذنبه إن شاء اللّهُ فقم في أمرك قيام ذي الحزم والعزم والناظر لأخيه ونفسه وسلطانه وعامة المسلمين وإياك أن يغلب عليك الجزع فإنه يُحبط الأجر ويعقب الوزر وصلوات اللّه على أمير المؤمنين حياً وميتاً وإنا للّه وإنا إليه راجعون وخُذ البيع على من قبلك من قوادك وجندك وخاصتك وعامتك لأخيك ثم لنفسك ثم للقاسم بن أمير المؤمنين على الشريطة التي جعلها لك أمير المؤمنين من فسخها له أو إثباتها فإنك مقلد من ذاك ما قلدك اللّه وخليفته وأعلم من قبلك رأيي في صلاحهم وسدّ خلتهم والتوسعة عليهم فمن أنكرته عند بيعته أو اتهمته على طاعته فابعث إليّ برأسه مع خبره وإياك وإقالته فإن النار أولى به واكتب إلى عمال ثغورك وأمراء أجنادك بما طرقك من المصيبة بأمير المؤمنين وأعلمهم أن اللّه لم يرض الدنيا له ثواباً حتى قبضه إلى روحه وراحته وجنته مغبوطاً محموداً قائداً لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء اللّه ومُرهم أن يأخذوا البيعة على أجنادهم وخواصّهم وعوامّهم على مثل ما أمرتك به من أخذها على من قبلك وأوعز إليهم في ضبط ثغورهم والقوّة على عدوّهم إني متفقد حالاتهم ولامّ شعثهم وموسّع عليهم ولا آنٍ في تقوية أجنادي وأنصاري ولتكن كتبك إليهم كتباً عامة لتُقرأ عليهم فإن ذلك ما يسكنهم ويبسط أملهم واعمل بما نأمر به لمن حضرك أو نأى عنك من أجنادك على حسب ما ترى وتشاهد فإن أخاك يعرف حسن اختيارك وصحة رأيك وبُعد نظرك وهو

يستحفظ اللّه لك ويسأله أن يشدّ بك عضده ويجمع بك أمره إنه لطيف لما يشاء وكتب بكر بن المعتمر بين يديّ وإملائي في شوّال سنة ١٩٢.

كتاب الأمين إلى أخيه صالح

بسم اللّه الرحمن الرحيم، إذا ورد عليك كتابي هذا عند وقوع ما قد سبق في علم اللّه ونفذ من قضائه في خلفائه وأوليائه وجرت به سنته في الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرّبين فقال كلُّ شيء هالك إلّا وجهه له الحكم وإليه ترجعون فاحمدوا اللّه على ما صار إليه أمير المؤمنين من عظيم ثوابه ومرافقة أنبيائه صلوات اللّه عليهم إنا إليه راجعون وإياه نسأل أن يحسن الخلافة على أمة نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم وقد كان لهم عصمة وكهفاً وبهم رؤوفاً رحيماً فشمّر في أمرك وإياك أن تلقي بيديك فإن أخاك قد اختارك لما استنهضك له وهو متفقد مواقع فقدانك فحقق ظنه ونسأل اللّه التوفيق وخذ البيعة على من قبلك من ولد أمير المؤمنين وأهل بيته ومواليه وخاصّته وعامّته لمحمد أمير المؤمنين ثم لعبد اللّه بن أمير المؤمنين ثم للقاسم بن أمير المؤمنين على الشريطة التي جعلها أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه من فسخها على القاسم أو إثباتها فإن السعادة واليمن في الأخذ بعهده والمضيّ على مناهجه وأعلم من قبلك من الخاصة والعامة رأيي في استصلاحهم وردّ مظالمهم وتفقد حالاتهم وأداء أرزاقهم وأعطياتهم عليهم فإن شغب شاغب أو نعر ناعر فاسطُ به سطوة تجعله نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتّقين واضمم إلى الميمونِ ابنِ الميمونِ الفضلِ بنِ الربيع ولدَ أمير المؤمنين وخدمَه وأهلَه ومره بالمسير معهم فيمن معه وجنده ورابطته وصيّر إلى عبد اللّه بن مالك أمر العسكر وأحداثه فإنه ثقة على ما يلي مقبولٌ عند العامة واضمم إليه جميع جند الشرط من الروابط وغيرهم إلى من معه من جنده ومُره بالجد والتيقظ وتقديم الحزم في أمره كله ليله ونهاره فإن أهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يغتنمون مثل حلول هذه المصيبة وأقرّ حاتم بن هزيمة على ما هو عليه ومره بحراسة ما يحفظ به قصور أمير المؤمنين فإنه ممن لا يُعرف إلّا بالطاعة ولا يدين إلّا بها بمعاقد من اللّه مما قدّم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء ومُر الخدم بإحضار روابطهم من يسدّ بهم وبأجنادهم مواضع الخلل من عسكرك فإنهم حدّ من حدودك وصيّر مقدّمتك إلى أسد بن يزيد بن مزيد وساقتك إلى يحيى بن معاذ فيمن معه من الجنود ومرهما بمناوبتك في كلّ ليلة والزم الطريق الأعظم ولا تَعْدُوَنّ المراحل فإن ذلك أرفق بك ومر أسد بن يزيد أن يتخير رجلاً من أهل بيته أو قوّاده فيصير إلى مقدّمته ثم يصير أمامه لتهيئة المنازل أو بعض الطريق فإن لم يحضرك في عسكرك بعض من سميت فاختر

لمواضعهم من تثق بطاعته ونصيحته وهيبته عند العوام فإنّ ذلك لن يُعوزك من قوادك وأنصارك إن شاء اللّه وإياك أن تنفذ رأياً أو تبرم أمراً إلّا برأي شيخك وبقية آبائك الفضلِ بنِ الربيعِ وأقرر جميع الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك ولا تخرجن أحداً منهم من ضمن ما يلي إلى أن تقدم عليّ وقد أوصيت بكر بن المعتمر بما سيبلغكه واعمل في ذلك بقدر ما تشاهد وترى وإن أمرت لأهل العسكر بعطاء أو رزق فليكن الفضل بن الربيع المتولي لإعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه بمحضرٍ من أصحاب الدواين فإن الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمّات الأمور وأنفذ إليّ عند وصول كتابي هذا إليك إسماعيل بن صبيح وبكر بن المعتمر على مركبيهما من البريد ولا يكون لك عرجة ولا مهلة بموضعك الذي أنت فيه حتى توجّه إليّ بعسكرك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء اللّه أخوك يستدفع اللّه عنك ويسأله لك حسن التأييد برحمته وكتب بكر بن المعتمر بين يدّي وإملائي في شوال سنة ١٩٢.

دسائس الفضل بن الربيع

ذكرنا من قبل أن الرشيد حين سار إلى خراسان جدد البيعة للمأمون على القواد الذين معه، (مع الرشيد)، وأشعر من معه من القواد وسائر الناس وغيرهم أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون، وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك هو للمأمون.

وإذا عرفنا أن مسير الرشيد إلى خراسان كان على رأس حملة عسكرية قادها لإخماد ثورة رافع بن ليث بن نصر بن سيار، عرفنا ضخامة ما أوصى به الرشيد من رجال ومال وسلاح وآلات.

وكان إنفاذ وصية الرشيد يقضي بأن يضم ذلك كله إلى المأمون. ولكن الذي حدث أن الذين وصلتهم كتب الأمين مع بكر بن المعتمر من القواد والجند، وفيهم الفضل بن الربيع، تشاوروا باللحاق بالأمين في بغداد، وقال الفضل بن الربيع مبرراً ذلك: لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يُدرى ما يكون من أمره.

ويعني بالملك الحاضر ملك الأمين، وبالملك الذي لا يُدرى أمره ملك المأمون. على أنه لم يكن بحاجة إلى هذا التعليل فهواه معروف أنه مع الأمين.

وأمر الجميع بالرحيل إلى بغداد فاستجابوا وتركوا العهود التي كانت أخذت عليهم من الرشيد للمأمون.

فكان ما فعلوه الخطوة الأولى في الانشقاق الذي سيستمر خطوة فخطوة. وكان المسؤول عن ذلك الأمين وجماعته وعلى رأسهم الفضل بن الربيع، في حين أن المأمون لم يبد منه حتى ذلك الوقت أي قول أو فعل يتنافى مع إنفاذ وصية أبيه، بل على العكس من ذلك فقد كتب إلى الأمين بالتعظيم وأهدى إليه من طُرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح.

وفشلت المحاولات التي قام بها الرسل الذين أرسلهم المأمون لإقناع الذاهبين بالعودة إليه وواصلوا سيرهم إلى بغداد.

وقد شد الفضل بن سهل من عزم المأمون ودعاه إلى الصبر والصمود وقوى عزيمته، فتجاهل المأمون ما جرى وانصرف إلى حكم ما عهد إليه به أبوه في خراسان ونواحيها، وكان يكاتب أخاه الأمين بالتعظيم وواصل إرسال الهدايا إليه في ذلك من آنية ومسك ودواب وسلاح.

أما فيما يتعلق بالأخ الثالث أو ولي العهد الثالث، (القاسم المؤتمن)، فإن الأمين أقره في أول الأمر على ما عهد إليه أبوه من حكم الجزيرة والثغور والعواصم، وولى على الجزيرة والياً مستقلاً على اعتباره تابعاً للقاسم، وتولى القاسم بنفسه حكم قنسرين والعواصم. ولكن الأمين لم يلبث أن عزل القاسم المؤتمن عن كل ما كان أبوه قد عهد به إليه وهو الشام وقنسرين والعواصم والثغور، وأمره بأن يقيم في بغداد.

فكان ذلك أول نقض صريح يعلنه الأمين بنفسه لوصية والده، وإذا كان نقض الفضل بن الربيع للعهود التي قطعها للرشيد بالولاء للمأمون وذهابه إلى بغداد منضماً إلى الأمين، وقبول الأمين لكل ذلك واعتباره الفضل واحداً من رجاله ـ إذا كان ذلك في حقيقته نقضاً لوصية الرشيد واعتداء على المأمون، فإنه لم يكن في الظاهر على الأقل صادراً من الأمين نفسه، بل كان الأمين مقراً له، معترفاً به.

أما ما جرى على القاسم المؤتمن فكان صادراً من الأمين نفسه، ومعنى ذلك أن الأمين استضعف المؤتمن فعزله، ولو أن المأمون ضعيف ضعف المؤتمن لكان مصيره نفس المصير.

إن رحيل الفضل بن الربيع عن طوس إلى بغداد ورفضه الالتحاق بالمأمون في مرو إنما كان مجاهرة بالعداء للمأمون، وأصبح ما يهم الفضل هو القضاء على المأمون وعدم وصوله إلى الخلافة، لأن في وصوله إلى الخلافة هلاك الفضل وما دام ولياً لعهد الأمين فإن وصوله إلى الخلافة محتمل في كل وقت، وما دامت الأعمار بيد اللّه فقد يصل غداً أو ما بعد

ذلك، قَرُبَ هذا (البعد) أم بَعُدَ، لذلك راح يدبر لعزل المأمون من ولاية العهد، ويوغر صدر الأمين على المأمون ويهوّن عليه عزل المأمون وجعل ابنه موسى مكانه ولياً للعهد.

وإنصافاً للأمين نقول إن هذا لم يكن في تفكيره، سواء كان ذلك صادراً عن يقينه بقوة المأمون، أو عن سبب آخر. المهم أن الأمين لم يكن في تفكيره عزل المأمون من ولاية العهد وإن كان في تفكيره إضعافه وتفريق الناس عنه. ولكن الفضل بن الربيع ضم إليه آخرين مثل علي بن عيسى بن ماهان والسندي لإقناع الأمين بخلع المأمون، وما زال الفضل يزين ذلك للأمين، ويصغّر في عينه شأن المأمون حتى أدى ذلك إلى إقناع الأمين، ولكنه رأى أن لا يبدأ به دفعة واحدة، فأول ما فعل ضم اسم ابنه موسى إلى من يدعى لهم على المنابر بالإمرة وهم الخليفة، (الأمين)، ووليّا عهده، (المأمون والمؤتمن)، وكتب بذلك إلى جميع العمال في الأمصار كلها. ثم عزل أخاه المؤتمن عن ولايته واستقدمه إلى بغداد كما تقدم.

الأمين ينقض العهد والمأمون يرد

لمّا أيقن المأمون أن الأمين مقبل على عزله عاجلاً أو آجلاً، وأن الأمين إذا كان قد اكتفى الآن بعزل المؤتمن من ولايته ولم يعزله من ولاية العهد فإنه سيفعل ذلك عما قريب، وأنه إنما يخطو في تصميمه خطوة وراء خطوة لذلك أخذ هو المبادرة، فأول ما فعله أن قطع البريد عن الأمين وقطع اسمه من الطرز.

وكانت ثورة رافع بن ليث بن نصر بن سيار لا تزال قائمة، ولكن ليثاً لما بلغه حسن سيرة المأمون في الشعب وإحسانه إلى الناس، أرسل إلى المأمون عارضاً عليه التسليم، ثم التحق به فأكرمه المأمون، وعندما التحق رافع بالمأمون كان القائد هرثمة المتولي قمع ثورة رافع لا يزال مقيماً في سمرقند ومعه طاهر بن الحسين، فاستأذن هرثمة المأمون في القدوم عليه بعد انطفاء الثورة، فعبر بعسكره، والنهر جامد فتلقاه الناس وولاه المأمون الحرس، فرأى الأمين في ذلك تصرفاً استقلالياً يتجاهله كل التجاهل، فأراد الرد على ذلك فبعث إلى عامل المأمون على الري العباس بن عبد اللّه بن مالك أن يبعث إليه بغرائب غروس الري، فنفذ العباس طلب الأمين، وبلغ ذلك المأمون فعزل العباس.

وهنا عزم الأمين على إنهاء الأمر فأرسل إلى المأمون وفداً من ثلاثة رجال يطلب إليه بأن يقدم موسى بن الأمين على نفسه فرفض المأمون ذلك وأباه.

وكان المأمون لما بلغه توجه هذا الوفد إليه كتب إلى عماله في الري ونيسابور وغيرهما يأمرهم بإظهار العدة والقوة، ففعلوا. وقد أراد المأمون بذلك أن يضعف معنويات الوفد

بالظهور بمظهر القوي بجنده ورجاله.

واستطاع الفضل بن سهل أن يقنع أبرز رجال الوفد، العباس بن موسى، بالانضمام سراً إلى المأمون وأن يبايع له، مغرياً إياه بتوليته الولايات عند نجاح دعوة المأمون، وصار عيناً للمأمون في بغداد يكتب إليه بالأخبار ويشير بالآراء وعاد الوفد إلى الأمين مبلغاً إياه رفض المأمون.

ولما بلغ الأمر إلى هذا الحد صار الفضل بن الربيع يلح على الأمين أن يعلن خلع المأمون من ولاية العهد وبيعة ابنه موسى بها حتى انصاع إليه وأرسل إلى مكة من أخذ الكتابين اللذين وضعهما الرشيد في الكعبة وأحضرهما إليه ومزقهما.

وعمد المأمون إلى اتخاذ تدابير وقائية تمنع اتصال دعاة الأمين بالخراسانيين، فوضع على الحدود حراساً في مداخل الطرق لا يدعون أحداً يعبر إلى خراسان إلّا إذا كان يحمل جوازاً معطى إليه لدى خروجه من خراسان يسمح له بالعودة إليها، أو كان تاجراً معروفاً مأموناً، ومنع دخول جماعات السابلة والطارئة وفتشت الرسائل التي يحملها القادمون.

وكان الأمين قد أرسل جماعة إلى خراسان يعبّر الطبري عن مهمتهم بأنهم وُجّهوا ليعلم أنهم قد عاينوا وسمعوا، ثم يلتمس منهم أن يبذلوا ويحرموا فيكون مما قالوا حجة يحتج بها أو ذريعة إلى ما التمس.

وكانت هذه الجماعة أول جماعة تصل إلى الحدود بعد إقامة الحواجز عليها واتخذ ما اتخذ من تدابير احترازية، فلما وصلوا إلى حد الري فوجئوا بحراس الحدود يحيطون بهم ويمنعونهم من الاتصال بأحد ويصبحون معتقلين في أيديهم.

وكتب الحرس بشأنهم إلى مرو فجاء الأمر منها بنقلهم مخفورين إليها «لا خبر يصل إليهم ولا خبر يتطلّع منهم إلى غيرهم» على حد تعبير الطبري.

ويبدو أنهم أخضعوا للاستجواب الحازم فتبين أنهم قادمون للقيام بما نسميه اليوم «الدعاية» في جمهور الناس وعامتهم، والاتصال بأهل القوة لاستمالتهم بالمال والوعود بالمناصب والولايات وتمليك الأراضي والمنازل.

فأوصلهم الحرس إلى المأمون، وكانوا يحملون إليه رسالة جافة من الأمين تطالبه ببعض المطالب، فرد المأمون برسالة خاطب بها الأمين بلقب أمير المؤمنين قال له فيها فيما قال: «فلا تبعثني يا ابن أبي على مخالفتك وأنا مذعن بطاعتك، ولا على قطيعتك وأنا على إيثار ما تحب من صلتك، وارضَ مما حكم به الحق في أمرك أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك والسلام».

ونحن حين نتمعن في التدابير الاحترازية التي نفذتها «حكومة خراسان» على حدودها نراها لا تختلف عما تتخذه الحكومات في هذا العصر، ففرض حمل الجوازات على الخارجين والداخلين، وإقامة المخافر على مداخل الحدود لمنع دخول غير المرغوب فيهم ممن لا يحملون جوازات، ومنع الغرباء المشبوهين من الاتصال بالمواطنين، واحتجاز المعادين واستجوابهم واستخراج الحقائق منهم، والتفتيش عن الرسائل ومراقبتها... إلى غير ذلك... هذا كله مظنون أنه من مبتكرات هذا العصر، ولكن تبين أنه كان مطبقاً بدقة فيما سلف من العصور.

واستدعى المأمون الموفدين المعتقلين وسلمهم رسالته إلى أخيه ذاكراً اسمه أمامهم بكل احترام، ملقباً له بأمير المؤمنين.

وأعيد الموفدون إلى الحدود دون أن يعرفوا ماذا يجري في خراسان ودون أن يستطيعوا حمل خبر أو معرفة رأي أو بث كلمة. وقد كان لهذا الحزم في معاملتهم أثر معنوي كبير في نفوسهم أيقنوا معه أن الأمر أكبر مما في تصور من في بغداد، وأنه جدّ، لا هوادة فيه.

ولما وصل وفد المأمون إلى الأمين وقرأ كتاب المأمون ملكه الغيظ، فكان أن منع من الدعاء للمأمون على المنابر وأرسل له كتاباً كله وعيد وتهديد.

وكان أهل المأمون وأولاده لا يزالون في العراق، وكان له فيه من المال الذي خصه به الرشيد قبل سفره إلى خراسان ما يبلغ مئة مليون درهم. فتشاور مع الفضل بن سهل فيما ينبغي فعله لاستنقاذ أهله وماله، فكان من الرأي الذي اتفقا عليه أن يكون ليناً في الطلب وأن لا يبادر إلى ما يؤدي إلى السرعة في وقوع الصدام.

فكتب المأمون كتاب تابع إلى متبوع، وطالب بالمال لإنفاقه في حفظ الثغور واستصلاح الجند في بلاد قليلة الخراج، كما طالب بأن يسهل الأمين عودة من يعيد الأهل والولد من الرقة إلى مرو.

فرد الأمين بما مؤداه أن المال ما دام يراد به مصلحة الرعية، فللرعية مصلحة هنا وهي مصدر المال فهي أولى به.

وأما حمل الأهل إليه فالأفضل بقاؤهم في الوقت الحاضر في مكانهم خوفاً من تعريضهم للتشتت، وعندما يضمن سلامتهم يوجههم إليه مع من يثق به.

وحتى الآن لم يكن الأمين قد أعلن خلع المأمون من ولاية العهد وكل ما كان فعله هو أنه نهى عن الدعاء على المنابر في منطقة نفوذه كلها للمأمون والقاسم وأمر بالدعاء له عليها

ثم من بعده لابنه موسى، وابنه هذا يومئذ طفل صغير فسماه الناطق بالحق، وكان الذي أشار عليه بذلك الفضل بن الربيع.

ومع معرفتنا بأن الشعراء في ذلك العصر وفيما قبله وفيما بعده ليسوا دائماً لسان الشعب الذي يعبر عن شعوره، بل هم مع من يدفع لهم - مع ذلك ربما كان لنا أن نعتبر الشاعر الذي أوحى له هذا الحادث بالقصيدة الآتية التي لم يُسمِّ الطبري صاحبها بل عبر عنه ببعض الشعراء، ربما كان لنا أن نعتبر الشاعر معبراً عن شعور الرأي العام، لأن هذا الشاعر لم ينظم قصيدته رغبة بما يمكن أن يكافأ به، ولا رهبة مما يمكن أن يناله لو لم ينظمها. بل إن الأمر على العكس من ذلك، فهو نظمها حيث لو اشتهر عنه نظمها لناله عقاب لا يقل عن القتل.

وقد مهد الطبري للقصيدة بقوله: «لما بايع محمد لابنه موسى ووجّه علي بن عيسى قال شاعر من أهل بغداد في ذلك لما رأى تشاغل محمد بلهوه وبطالته»:

أضاع الخلافة غش الوزير ... وفسق الإمام وجهل المشير
ففضل وزير وبكر مشير ... يريدان ما فيه حتف الأمير
وما ذاك إلّا طريق غرور ... وشر المسالك طرق الغرور
فهذا يدوس وهذا يداس ... كذاك لعمري اختلاف الأمور
فلو يستعينان هذا بذاك ... لكان بعرضة أمر ستير
ولكن ذا لجّ في كوثر ... ولم يشف هذا دعاس الحمير
وأعجب من ذا وذا أننا ... نبايع للطفل منا الصغير
وما ذاك إلّا بفضل وبكر ... يريدان نقض الكتاب المنير
وهذان لولا انقلاب الزمان ... أفي العير هذان أم في النفير
ولكنها فتن كالجبال ... تدفّع فيها الوضيع الحقير
فصبراً ففي الصبر خير كبير ... وإن كان قد ضاق صبر الصبور
فيا رب فاقبضهما عاجلاً ... إليك وأورد عذاب السعير
ونكل بفضل وأشياعه ... وصلّبهم حول هذي الجسور

هذا بعض ما قاله ذلك الشاعر، ولم نذكر القصيدة كلها تحرّجاً من بعض ألفاظها.

فهل يمكننا اعتبار هذه القصيدة صدى لما قوبل به عمل الأمين من منع الخطبة للمأمون وأخيه القاسم، واقتصارها عليه وعلى ابنه، هذا العمل الذي هو في حقيقته خلع للمأمون من ولاية العهد؟

وهل يمكننا الحكم استناداً إلى منطوق القصيدة بصحة ما ينسب إلى الأمين من فسق وعكوف على اللهو والمجون وانشغاله بهما، هذه الصفات وأمثالها التي نسبت إلى الأمين، والتي رفض قبولها من جاؤوا بعد ذلك بحجة أن المنتصرون عليه نسبوها إليه بعد زوال سلطته بقصد إساءة سمعته.

هذا واحد ممن عايشوا الأمين وكانوا معه في بلده وفي حكمه يشهد هذه الشهادة. ثم هل يمكننا اعتبار هذه القصيدة تعبيراً عن نقمة الشعب على ما يجري وتعاطفه مع المأمون...؟ والمأمون يردّ.

كان من رأي الفضل بن سهل أن لا يشتد المأمون في الطلب لئلا يكون هو المبادر بالقطيعة النهائية وأن يترك هذه المبادرة للأمين، فيكون الأمين هو المعتدي، والمأمون هو المعتدى عليه.

واتفقا على اليقين بأن الحال تمشي إلى التدهور السريع، وأن الأمين مقبل على إجراء حاسم، وأنه لا بد للمأمون من أن يرسل إلى بغداد رجلاً حكيماً موثوقاً به يكتب معه إلى أعيان أهل العسكر في بغداد وإلى أهل النباهة فيهم. فإذا عزم الأمين على خلع المأمون، سلم الرسول الكتب إلى أصحابها. وكان مضمون ما في الكتب استطلاع آراء المكتوب إليهم فيما وصل إليه الحال، مخاطباً كل واحد منهم: «وأنت يرحمك اللّه من الأمر بمرأى ومسمع وبحيث إن قلت آذنُ لقولك» و «فاكتب إليّ برأيك وأعلم ذلك لرسولي ليؤديه إليّ عنك».

واختلفت مواقف الذين وصلتهم كتب المأمون، فمنهم من أبى أن يجيب كتابة، وأبدى رأيه للرسول مشافهة، ومنهم من أجاب كتابة. وذكر الطبري نصاً واحداً كتبه أحدهم جواباً على رسالة المأمون. وإنك لتكاد لا تفهم شيئاً من هذا النص، ولا يبين لك ما يقصد الكاتب مما كتب، وفي هذا ما يدل على أن الناس يومذاك هم ككل الناس في كل زمان لا يريدون أن يتخذوا موقفاً واضحاً وهم لا يعلمون على من ستدور الدائرة.

على أن الذي يلفت النظر ويقتضي طول التأمل والبحث هو نص العبارة التي ذكرها الطبري وهو يروي هذه الواقعة، النص الذي أهمله من كتبوا عن تاريخ تلك الأيام ولم يولوه أدنى اهتمام في حين أنه جدير بكل اهتمام لما فيه من دلالات على اتجاهات المأمون الفكرية، ومن إيضاحات للتصرف الخطير الذي تصرفه حين أفضت الخلافة إليه من تولية الإمام علي الرضا (ع) ولاية العهد بعده، ومن ميول علوية متأصلة في نفسه، وارتباطات شيعية سابقة.

يقول الطبري: «وعلم المأمون والفضل أنه سيحدث بعد كتابه من الحدث ما يحتاج إلى عمله ومن الخبر ما يحتاج إلى أن يباشره بالثقة من أصحابه وأنه لا يحدث في ذلك حدثاً دون مواطأة رجال النباهة والأقدار من الشيعة وأهل السابقة فرأى أن يختار رجلاً يكتب معه» إلى آخره.

إن الطبري هنا يميز بين الذين كتب لهم المأمون، أنهم أولاً من "الشيعة"، ثم غيرهم من أهل السابقة، إذاً فقد كان هناك ارتباط معنوي بين الشيعة في بغداد وبين المأمون، فإن عواطف المأمون الشيعية، التي أعلن بعد توليه الخلافة أنها ترسخت في نفسه منذ صباه، والتي اعترف بأن الذي رسخها ـ دون أن يقصد ـ أبوه الرشيد حين حدثه حديثاً في إجابته له عن سبب تعظيمه للإمام موسى الكاظم(ع) في إحدى المناسبات، والتي ظلت راسخة طيلة حياته، والتي تبدو واضحة في تصرفاته، مثل الذي جرى له ـ وهو خليفة ـ مع الفقهاء الأربعين وعلى رأسهم قاضي القضاة يحيى بن أكثم، ومناظرته لهم، المناظرة التي فصلها ابن عبد ربه في كتابه **العقد الفريد**.

والذي يهمنا هنا ما يدل عليه تخصيص المأمون الشيعة في رسائله التي يستطلع بها آراء من في بغداد، وعبارة الطبري المقتضبة لا تنفعنا في توضيح ما نريد استيضاحه، وما نود معرفته عن مدى العلاقة بين شيعة بغداد وبين المأمون المقيم في مرو. ولكن قول الطبري: «ما يحتاج أن يباشره بالثقة من أصحابه» قول واضح في أن الشيعة من أصحابه.

والطبري الذي يحدثنا عما كانت عليه أجوبة المسؤولين على رسائل المأمون، إنما يحدثنا حديثاً إجمالياً، وهو حين خص الشيعة بالذكر في كلامه الأول، لم يحدد لنا موقفهم في الإجابة ولم يخصهم بالذكر فيها.

وأكبر الظن، مما نستنتجه استنتاجاً، أنهم ـ وهم الذين يعلمون أنهم مراقبون، وأن السلطة التي تعلم ميول المأمون الشيعية تتابع حركاتهم وسكناتهم، وتحصي عليهم أنفاسهم ـ لم يشاؤوا أن يجازفوا بتسجيل آرائهم كتابة، ولا أدلوا بها للرسول مشافهة، بل آثروا أن يتصلوا بالمأمون مباشرة برسول منهم إليه.

وكان من كتاب الرسول إلى المأمون وإلى الفضل هذه الجملة: «وجدت أكثر الناس ولاة السريرة ونفاة العلانية». ثم يختم كتابه بقوله: «والقوم على جدّ».

وفي هاتين الجملتين تلخيص للوقت: فأكثر الناس يوالون سراً، ولكنهم في العلن على خلاف ذلك وعلى هذا فلا يمكن الاطمئنان إليهم. أما الأمين وأنصاره فإنهم على جد مصرون على تحقيق أهدافهم.

وعلى هذا فإن الفضل بن سهل أخذ يتصرف تصرف الواثق بأن خلع المأمون واقع لا محالة، وأن الحرب لا بد منها باتخاذ تدابير عسكرية، فجمع قطعات الجيش من أماكنها المتفرقة وحسّن أوضاعها وجعل قيادتها إلى طاهر بن الحسين ووجهها إلى الري.

وكذلك فعل الأمين إذ وجّه قطعة من الجيش إلى همذان على أن تستقر القيادة فيها وتوجه مقدمة إلى ساوة.

وراح الفضل بن الربيع يمهد للخلع ويستشير الوجوه والقادة فكان بعضهم ينهاه عن ذلك ويحذره العاقبة، وظل هو وعلي بن عيسى بن ماهان يحمّسان الأمين ويحرضانه على الخلع.

المسير إلى الحرب

بعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد أصبح الكلام لا يجدي، لذلك توجه من بغداد، في ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٩٥هـ، جيش بقيادة علي بن عيسى بن ماهان مقداره زهاء أربعين ألفاً.

وإذا كان لمؤسسات المخابرات في الدول في عصرنا هذا ما لها من الأثر في مصير الأمور، بما تقوم به، سواء من التجسس أو التغلغل في أوساط الأعداء بالتظاهر بالولاء وإفساد أحوالها بالآراء المضللة، والتوجيهات الضارة، فقد كان لمثل هذه المؤسسات نظائر في تلك العهود. فابن الأثير يقول إن السبب في اختيار علي بن عيسى بن ماهان لقيادة الجيش الذاهب لحرب المأمون أن الفضل بن سهل كان له عين عند الفضل بن الربيع يرجع إلى قوله ورأيه، فكتب الفضل بن سهل إلى ذلك الرجل يأمره أن يشير بتعيين علي بن عيسى لقيادة الجيش. وكان مقصوده أن علياً هذا لما وليَ خراسان أيام الرشيد أساء السيرة في أهلها، فظلمهم، فعزله الرشيد لذلك، ونفر أهل خراسان عنه وأبغضوه[٢٨] فأراد الفضل

(٢٨) يقول الشيخ محمد رضا الشبيبي في كتابه **ابن الغوطي** (ص ٥١، ج١): «يعد علي بن عيسى بن ماهان من جبابرة العصر العباسي الأول، نشأ في عصر الرشيد وعاش إلى عصر الأمين والمأمون وشارك في الفتنة بينهما، وكان إلى جانب الأمين فيها لأنه هو وصاحبه الحميم، الفضل بن الربيع وزير الرشيد، من أعدى أعداء المأمون، ومرد هذه العداوة إلى أن المأمون لم يكن يرى رأيهما في كثير من الشؤون السياسية، ومنها ـ على الغالب ـ نكبة البرامكة. فإن للمأمون فيها رأياً آخر، إذ كان يفضل التخلص من البرامكة بطريقة أخرى، كما كان غير واحد من أقطاب الدولة يرون رأي المأمون في ذلك، ومنهم بنو سهل وزراؤه. ولما نكب ابن ماهان في أواخر خلافة الرشيد أظهر عبد الله المأمون اغتباطه بذلك، هذا إذا لم نقل إن له يداً في هذه النكبة.

«دامت ولاية علي بن عيسى بن ماهان في عهد الرشيد على خراسان وما وراء النهر، وهي من أغنى أقطار الدولة العباسية، عشر سنوات رسخ فيها سلطان هذا الوالي وزادت مكنته، ولذلك حصلت له من هذه الولاية، كما حصل

ابن سهل أن يزداد أهل خراسان جداً في محاربة الأمين وأصحابه.

ففعل ذلك الرجل ما أمر به الفضل بن سهل، فتولى علي بن عيسى بن ماهان قيادة الجيش...

وفي أثناء ذلك أقدم أحد رجال طاهر بن الحسين، بموافقة طاهر، على صعود منبر المسجد في الري فخلع الأمين ودعا للمأمون بالخلافة.

كان الأمل معقوداً على جيش علي بن عيسى في إنهاء أمر المأمون، وباعتبار أن الجيش سيصل بعد انفصاله عن العراق أول ما يصل إلى المنطقة التي عرفت باسم (الجبل) أو (الجبال)، فقد جعل الأمين عليّ بن عيسى والياً عليها كلها بما فيها نهاوند وهمذان وقم وأصفهان، إضافة إلى خراسان التي سيستخلصها من المأمون.

وضم الأمين إلى علي بن عيسى جماعة من القواد ومنحه مئتين وخمسين ألف دينار كما ومنح ولده مبلغاً آخر، منحهما ذلك لحسابهما الخاص كما أعطى الجند أموالاً كثيرة.

وقد أراد الأمين تبرير إرساله هذه الحملة القوية لإخضاع المأمون، فبعد صلاة الجمعة دخل منزله بعدما أجلس موسى ابنه في المحراب ومعه الفضل بن الربيع وجميع من أحضر، فقرأ عليهم كتاباً من الأمين يبين حقه عليهم، وما سبق لهم من البيعة ولزوم ذلك لهم.

ثم يشير بعد ذلك إلى أن المأمون تجاوز حقوقه وتسمى بالإمامة ودعا لنفسه واستقل بالأمور.

فقام أحد الحاضرين يؤيد مضمون الكتاب. وتكلم الفضل بن الربيع مشدداً على حق الأمين مبالغاً في دحض أمر المأمون. وختم كلامه بالإغراء المالي قائلاً:

إن الأمير موسى بن أمير المؤمنين قد أمر لكم يا معاشر أهل خراسان من صلب ماله

لأهله وأتباعه، ثروة بالغة يخطئها الإحصاء. وقد حصل آل ماهان وأتباعهم على أكثر هذه الثروة من وجوه غير مشروعة غالباً كالغصب والمصادرة والمظالم والرشاوى والهدايا وما إلى ذلك، وفي هذا السبيل قتل صناديد خراسان وطراخنتها - كما يقول الجهشياري في **كتاب الوزراء** (ص ٢٢٨) - وحمل أموالهم وكانت أموالاً طائلة إلى بغداد، فاغتبط الرشيد بوصولها ظاناً بأن عامله جبى تلك الأموال، ونفوس أهلها طيبة، ولم يعلم أن الأمر على خلاف ما ظن وأن العامل أرهق الرعية وأساء السيرة وخان الأمانة».

ونقول: إن اختياره لقيادة الجيش الذاهب لإخضاع المأمون جاء مطابقاً لهواه في العودة إلى خراسان من جديد بما في هذه العودة من سلطان له في خراسان يعيد فيه مظالمه التي عرفها الخراسانيون أيام ولايته الأولى. وقد كان مستخفاً بقوى المأمون موقناً بانتصاره السهل عليه، حاملاً معه قيداً من الفضة لتقييده به عند أسره.

بثلاثة آلاف ألف درهم، تقسم بينكم.

ومن عجائب أمر هؤلاء الحكام كل الحكام يومذاك أن يمنوا على الناس بأنهم منحوهم من صلب مالهم، لا من خزينة الدولة.

وإننا لنسأل ـ من وراء التاريخ ـ نسأل الفضل هذا من أين لأميرك هذه الملايين من الدراهم، لتمن على الناس أنها من صلب ماله؟

هل هي أرباح تجارته، أم محصول من زراعته، أم نتاج من صناعته؟

غادر علي بن عيسى بغداد عشية اليوم الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ١٩٥هـ يقود أربعين ألفاً، ويحمل ـ فيما يحمل من آلات الحرب ومعداتها ـ قيداً إذا لم يكن ككل القيود من حديد فقد كان من فضة!

وليس الفضل له أنْ كان هذا القيد من فضة، إذ لو خُيّر هو لجعله من أصلب الحديد والفولاذ، إن كان هناك تفاوت في الصلابة بين حديد وحديد، وفولاذ وفولاذ!

إن الفضل في ذلك لأم الأمين التي رق قلبها على الأسير المقيد ابن زوجها وأخي ابنها، فلم تشأ أن يكون قيده من حديد قاتم، بل من فضة لماعة، ناسية أن القيد هو قيد سواء كان من حديد أو من فضة!

وليت قلبها الرقيق هذا كان رقيقاً حقاً فلم تنفخ في نار الفتنة بين الأخوين وتحرض ابنها على نقض العهود ونكث الوعود!

أما علي بن عيسى بن ماهان الذي كان لا يقل في تحمل مسؤولية هذه الفتنة عن رفيق دربه وقرين حقده الفضل بن الربيع، فقد رآها فرصة العمر أن ينتقم من المأمون، وأن يذله هو بيده فيسوقه أسيراً مقيداً، ولا يبالي في تنفيذ رغبة السيدة زبيدة بأن يكون القيد من فضة، ما دام سيرى قدمي المأمون مقيدتين...!

ولكي يعرب الأمين عن كبير ثقته بجيش الأربعين ألفاً وبقائده خرج يشيعه حتى النهروان. وهناك عرض الجيش، وأقام بقية يومه في النهروان ثم عاد إلى بغداد.

ومضى ابن ماهان مغذاً السير حتى بلغ همذان. وببلوغها يكون قد وصل إلى أول مدينة من مدن حكمه الذي عهد إليه به عبد اللّه الأمين، فباشر فيها سلطته المطلقة بأن ولى عليها والياً من قبله.

ثم تقدم من همذان قاصداً مدينة الري. وكان ينتظره فيها قائد المأمون طاهر بن الحسين في أربعة آلاف مقاتل، مقابل ما يقود هو من الأربعين الألفاً!

وكان علي بن عيسى لما سار بجيشه من بغداد وجاز حلوان[٢٩] لقيته القوافل من

(٢٩) حُلْوان فيما يقول في **معجم البلدان**: «هي آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد». أي أنها تقع قريباً من الحدود العراقية الإيرانية. دخلها الفاتحون سنة ١٩هـ، (٦٤٠م)، وكانت مدينة مزدهرة وظلت كذلك في القرون الهجرية الأولى. وأحرقها السلاجقة سنة ٤٣٧ هـ،(١٠٤٦م)، وعرضت لها الزلازل لا سيما زلزال سنة ٥٤٤ هـ، (١١٤٩م)، فخربتها. وفي القرن السابع أصبحت خرائب.

ويقول ياقوت: «ليس بأرض العراق بعد الكوفة والبصرة وواسط وبغداد أكبر منها»، فياقوت يعتبرها مدينة عراقية.

ونخلتا حلوان شهيرتان في الشعر العربي. قال مطيع بن إياس الليثي: نزلنا بحلوان، (أيام المنصور العباسي)، فجلست على العقبة وأنا مستند إلى نخلة على العقبة وإلى جانبها نخلة أخرى فأنشدت أقول:

أسعداني يا نخلتي حلوان — وأبكياني من ريب هذا الزمان
واعلما أن ريبه لم يزل يفـ — ـرق بين الألّاف والجيران
ولعمري لو ذقتما ألم الفر — قة أبكاكما الذي أبكاني
أسعداني وأيقنا أن نحساً — سوف يأتيكما فتفترقان
كم رمتني صروف هذه الليالي — بفراق الأحباب والخلان

إلى آخر الأبيات، وكان ذلك أول ما ذكرت النخلتان في الشعر العربي. وقيل إن المنصور اجتاز بنخلتي حلوان وكانت إحداهما على الطريق وكانت تضيّقه وتزدحم الأشغال عليه فأمر بقطعها فأنشد قول مطيع:

واعلما إن بقيتما أن نحساً — سوف يلقاكما فتفترقان

فقال: لا واللّه لا كنت ذلك النحس الذي يفرق بينهما، فانصرف وتركهما. ولما خرج الرشيد إلى طوس واجتاز بحلوان مرض فأشار عليه الطبيب بأكل جُمّار، فأحضر دهقان حلوان وطلب منه، فأعلمه الدهقان أن بلادهم ليس بها نخل، ولكن على العقبة نخلتان فأمر بقطع إحداهما، ثم ذُكر البيتان فقال: لقد عز عليّ أن كنت نحسكما.

ومما قيل في النخلتين:

أيا نخلتي وادي بُوانة حبذا — إذا نام حراس النخيل جناكما

وقيل:

جعل اللّه سدرتي قصر شيـ — ـرين فداء لنخلتي حلوان
جئت مسعداً فلم تسعداني — ومطيع بكت له النخلتان

وقيل:

أيها العاذلان لا تعذلاني — ودعاني من الملام دعاني
وابكيا لي فإنني مستحق — منكما بالبكاء أن تسعداني
إنني منكما بذلك أولى — من مطيع بنخلتي حلوان
فهما تجهلان ما كان يشكو — من هواه وأنتما تعلمان

وقيل من قصيدة:

وكذاك الزمان ليس، وإن — ألّف، يبقى عليه مؤتلفان
سلبت كفّه العزيز أخاه — ثم ثنى بنخلتي حلوان
فكأن العزيز مذ كان فرداً — وكأن لم تجاور النخلتان

ومما قيل في حلوان نفسها من الشعر قول أحد الأعراب:

تلفت من حلوان والدمع غالب — إلى روض نجد أين حلوان من نجد
كحصباء نجد حين يضربها الندى — ألذ وأشفى للعليل من الورد
ألا ليت شعري هل أناس بكيتهم — لفقدهم هل يبكينهم فقدي
أداوي ببرد الماء حرّ صبابة — وما للحشا والقلب غيرك من برد

خراسان فكان يسألها عن الأخبار يستطلع علم أهل خراسان. فيقال له إن طاهراً مقيم بالري يعرض أصحابه ويرمّ آلته فيضحك، ثم يقول: وما طاهر!؟ فواللّه ما هو إلّا شوكة من أغصاني أو شرارة من ناري، وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ويلقى الحروب. ثم التفت إلى أصحابه فقال: واللّه ما بينكم وبين أن ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصف إلّا أن يبلغه عبورنا عقبة همذان، فإن السخال لا تقوى على النطاح، والثعالب لا صبر لها على لقاء الأسد، فإن يقم طاهر بموضعه يكن أول معرّض لظباة السيوف وأسنة الرماح.

وكان في يقين علي بن عيسى أن طاهراً سيسلم إليه بمجرد أن يقبل عليه، ولكن طاهراً لم ينتظر في الري، بل خرج منها للدفاع عنها قبل أن تحاصر، فنزل قسطانة وهي أول مرحلة من الري إلى العراق.

يقول أحمد بن هشام ـ وهو من جماعة طاهر بن الحسين ـ : أقبل علي بن عيسى في جيشه فامتلأت الصحراء بياضاً وصفرة من السلاح والذهب!

ولكن المقادير إذا جاءت لم تفد في دفعها التدابير، ويصف الطبري طلائع المعركة وصفاً غامضاً، فيه كل الغرابة، لا ندرك منه سوى أنه لم تحصل معركة، وأن رجلاً من عسكر علي بن عيسى تقدم فشد عليه طاهر آخذاً السيف بكلتا يديه فضربه فصرعه وشد رجل من جيش طاهر على علي بن عيسى فصرعه.

ويقول الطبري: وكانت ضربة طاهر هي الفتح، فسمي يومئذ «ذا اليمينين» بذلك السبب لأنه أخذ السيف بيديه. ثم يقول الطبري ناقلاً عن أحد الشهود من جيش طاهر: وتناول أصحابه النشاب ليرمونا فلم أعلم بقتل علي حتى قيل قتل واللّه الأمير، فتبعناهم فرسخين وواقفونا اثنتي عشرة مرة كل ذلك نهزمهم.

وقال شاعر يذم أهل حلوان:

ما إن رأيت جواميساً مقرنة ... إلا ذكرت ثناء عند حلوان

قوم إذا ما أتى الأضياف دارهم ... لم يُنزلوهم ودلوهم على الخان

ويقول في **تاريخ العراق بين احتلالين**، (ج ٤، ص ٢٤)، إن حلوان يسمى محلها اليوم باسم (سربل) ويقع بين قلعة شاهين، (وهي قرية من قرى درتنك)، ونفس زهاب وبشيوه وتقع على ضفة نهر الوند. وهناك كانت مدينة حلوان ولم يبق منها إلا أطلال وقنطرة صخرية لا تزال قائمة.

على أنه قال في ملحق الجزء الثاني من الكتاب نفسه (ص ٦) ما يلي: درتنك كانت مشهورة بـ (حلوان). ونقل عن صاحب **الشرفنامه** قوله: درتنك في أيام الأكاسرة كانت مشتهرة بولاية حلوان. ونقل عن المعجم قوله بها تين في غاية الجودة. ثم يقول صاحب **تاريخ العراق**: وعندنا، حتى هذا العهد، ينعت باعة التين الجيد وكذا الإجاص بالحلواني. ويقول في موضع آخر وهو يتحدث عن هولاكو: أرسل هولاكو إلى حسام الدين هذا رسلاً وكان حاكماً على درتنك (حلوان) ونواحيها.

ومن الطريف أن علي بن عيسى كان قد أمر أن يهيأ له الغداء بالري.

هذا الرجل الذي ظن أنه مستطيع أن يحدد المستقبل، فهيأ نفسه للتسلط على الخراسانيين، وأعد القيد للمأمون، وأمر أن يهيأ له الغداء في الري...

هذا الرجل، عوضاً عن أن يقيد المأمون جيء بجثمانه مقيداً كما يقول الطبري: ثم جاؤوا بعلي وقد شد الأعوان يديه إلى رجليه يحمل على خشبة كما يحمل الحمار وأمر به فلف في لبد وألقي في بئر...

وقع الخبر في مرو

يقول الفضل بن سهل واصفاً الحال عندما بلغهم زحف علي بن عيسى بجيشه القوي: كنا قد وجهنا هرثمة واحتشدنا في السلاح مدداً وسار المأمون في ذلك اليوم وشيعه، فقلت للمأمون لا تبرح أبداً حتى يسلم عليك بالخلافة فقد وجب لك ولا نأمن أن يقال: يصلح بين الأخوين، فإذا سلم عليك بالخلافة لم يمكن أن نرجع، فتقدمت أنا وهرثمة والحسن بن سهل فسلمنا عليه بالخلافة وتبادر شيعة المأمون، فرجعت وأنا كالٌّ تعبٌ لم أنم ثلاثة أيام في جهاز هرثمة، فقال لي الخادم: هذا عبد الرحمن بن مدرك وكان يلي البريد ونحن نتوقع الخبر لنا أو علينا، فدخل وسكت، قلت: ويلك ما وراءك؟ قال: الفتح، فإذا كتاب طاهر إليّ: أطال اللّه بقاءك وكبت أعداءك وجعل من يشنأك فداءك، كتبت إليك ورأس علي بن عيسى بين يدي وخاتمه في أصبعي والحمد للّه رب العالمين.

فدخلت على المأمون فبشرته وقرأت عليه الكتاب، فأمر بإحضار أهل بيته والقواد، ووجوه الناس فسلموا عليه بالخلافة.

وكان الخبر قد وصل إلى مرو، بمضي ثلاث ليال فقط مع أن المسافة بين مكان القتال وبين مرو نحو خمسين ومئتي فرسخ، وذلك لأن الخبر أرسل على خيل البريد.

وفي هذا النصر يقول أحد الشعراء من قصيدة طويلة:

أصبحت الأمة في غبطة ... من أمر دنياها ومن دينها
إذ حفظت عهد إمام الهدى ... خير بني حواء مأمونها
على شفا كانت فلما وفت ... تخلصت من سوء تحيينها
قامت بحق اللّه إذ دُبرت ... في ولده كتب دواوينها
ألا تراها كيف بعد الردى ... وفقها اللّه لتزيينها

والذي لاحظناه في الشعر المتقدم الذي مُدح به المأمون وهو بعد أمير شاب ـ الذي لاحظناه من أن ذاك المدح لا يتضمن صفات المتسلطين الجبابرة، بل يتضمن وصفاً بالعلم والهدى وما إلى ذلك. نلاحظه هنا في هذا الشعر الذي يُمدح به المأمون بعد أن انتصر جيشه وتمكن هو في السلطة، بل صار إلى قمة في هرم السلطة، نلاحظ أن الشاعر لا يسبغ على المأمون صفات الأبهة والتسلط والنفوذ، كما يسبغ مثله من الشعراء على من هم في مثل موضع المأمون من الحكم، فهو حين يرى أن الأمة إذا اغتبطت بنصر المأمون لأمورها الدنيوية، فهي في الوقت نفسه تغتبط بذلك لأمور دينها. ثم إن المأمون عند الشاعر ليس مجرد حاكم نافذ، بل هو إمام الهدى.

وإذا كان من الطبيعي أن يبايع للمأمون بالخلافة في مرو بعد هذا الانتصار، وأن يبايع له كذلك في الري، فقد كان مفاجئاً أن تتم هذه البيعة في مصر. فالمقريزي يقول في الجزء الأول من خططه في الصفحة ١٧٨ ما يلي:

«لما تباعد ما بين محمد الأمين وبين أخيه عبد اللّه المأمون وخلع محمد أخاه من ولاية العهد وترك الدعاء له على المنابر وعهد إلى ابنه موسى ودعا له تكلم الجند بمصر بينهم في خلع محمد غضباً للمأمون. وأقبل السري بن الحكم يدعو الناس إلى خلع محمد. وكتب المأمون إلى أشراف مصر يدعوهم إلى القيام بدعوته فأجابوه وبايعوا للمأمون في رجب سنة ١٩٦».

على أن أنصاراً للأمين أظهروا دعوته فقامت فتنة وقتال. ولما بلغ أنصار الأمين قتله تفرقوا.

أثر الهزيمة في بغداد(٣٠)

وصلت أخبار مقتل علي بن عيسى وهزيمة جيشه الكبير إلى بغداد: إلى الشعب، وإلى الأمين، وإلى القواد العسكريين، فأما أثرها في الشعب فقد عبر عنه الطبري بهذه العبارة: «لما قتل عيسى أرجف الناس ببغداد إرجافاً شديداً». ولا نحسب عبارة أبلغ منها في وصف ما تركته هزيمة جيش الأمين في نفوس الناس.

وأما الأمين فقد أدرك سوء عاقبة ما أقدم عليه من نقض وصية أبيه، وخلع أخيه، وندم

(٣٠) يروي الطبري أنه لما جاء خبر الهزيمة ومقتل علي بن عيسى إلى الأمين كان على النهر يتلهى بصيد السمك، فقال للذي أخبره: ويلك دعني فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين وأنا ما اصطدت شيئاً بعد!...
كما يروي عن لسان عبد اللّه بن خازم أنه لما جاء خبر الهزيمة قال: يريد محمد إزالة الجبال وفلّ العساكر بتدبيره والمنكوس من تظهيره، هيهات واللّه كما قال الأول: قد ضيّع اللّه ذوداً أنت راعيها.

على ما فعل ندماً شديداً، وأدرك أن الأمر ليس بالسهولة التي تصورها، أو صورها له الفضل ابن الربيع.

وأما القواد العسكريون الذين كانوا يعلمون أنهم هم الذين سيحملون عبء القادم من الأحداث، فقد سلكوا مسلكاً عجيباً: لقد أرادوا بالفعل أن يعدوا جنودهم للحرب التي ستتواصل، ولكنهم في الوقت نفسه أرادوا استغلال حاجة الأمين إليهم، ليضمنوا لأنفسهم المنافع الشخصية، فحركوا جنودهم ليطالبوا بزيادة أرزقاهم وجوائزهم، وحرضوهم على الشغب، فاجتمعوا بعامتهم يضجون ويكبرون ويصيحون بمطالبهم، فتصدى لهم بعض أنصار الأمين، فتراموا بالنشاب واقتتلوا قتالاً شديداً.

وهكذا أصبحت المعركة داخل بغداد بين رجال الصف الواحد، ويبدو أن الواقعة كانت في مكان قريب من قصر الأمين فسمع الضجيج ووصلت إليه أصداء الاقتتال، فأرسل أحد مواليه ليعرف حقيقة ما يجري، فعاد إليه يخبره أن الجند قد اجتمعوا وشغبوا لطلب أرزاقهم، فاطمأن عند ذلك للأمر وقال: ما أهون ما طلبوا.

وكان يقود أنصاره عبد اللّه بن حازم فأرسل إليه يأمره بالرجوع، وحقق مطالب الشاغبين، وأمر للقواد والخواص بالصلات والجوائز، وراح يعد لجيش جديد يرسله لقتال المأمون.

والذي يلفت النظر في هذا الجيش أن الطبري يذكر أن عدده كان عشرين ألفاً من الأبناء بقيادة عبد الرحمن الأبناوي، فمن هم هؤلاء الأبناء[٣١]؟

المعروف أن كلمة (الأبناء) تعني أكثر من شيء واحد: تعني السلالة التي ولدت في اليمن من الفرس الذين أرسلهم كسرى الأول أنوشروان لنجدة سيف بن ذي يزن ملك اليمن على الأحباش.

(٣١) هم الذين أرسلهم كسرى لنجدة الملك سيف بن ذي يزن لطرد الأحباش. وسموا بالأبناء لأن كسرى قال لسيف بن ذي يزن حين جهزهم معه: إن ظفروا فأبناؤك وإن قتلوا فأعداؤك. وقيل إنما سموا بالأبناء لأنه يقال لهم أبناء سيف، وقيل سموا بذلك لأنهم لما استوطنوا اليمن تزوجوا ورزقوا أولاداً فصاروا يدعون بالأبناء لأنهم من أبناء أولئك الفرس.

وهؤلاء الأبناء بعد أن استقروا في اليمن أصبحوا جزءاً من كيانه يشاركون في أحداثه وينحازون إلى فريق من فرقائه، وعدا عن المعارك القتالية كانت تقوم معارك شعرية لا تقل ضراوة عن الأولى فيغتنم الشعراء فارسية أصول الأبناء فينفذون منها للطعن فيهم. ولكننا لا يمكن أن نعزو ذلك إلى نزعة عنصرية في الشعراء لأنهم في الوقت الذي يقارعون فيه الأبناء هذا القراع الشعري العنيف كانوا يشملون بهذا القراع وعنفه حلفاء (الأبناء) اليمنيين العرب الأقحاح. ولعل في شعر الشاعر عبد الخالق بن أبي الطلح بن محمد الجهور أوضح مثال على ما ذكرنا، فهو يهجو العمرميين بني عدي الذين كانوا حلفاء الأبناء بمثل ما يهجو الأبناء في قصيدة واحدة. فهو القائل من قصيدة:

فإن تغضب لنا يمن تجينا ... سراعاً ما لأيهم انثناء

وتعني سلالة أوائل الداعين لنصرة الدولة العباسية وهي اختصار الجملة: أبناء الدعوة.
وتعني قبيلة تميمية كانت تسكن الدهناء.

بخيل شزب قب عليها رجال في الحروب لهم غناء
ترحل فارساً وبني عدي فإن قلوبنا منهم ملاء
من الأحقاد تحسبنا سكارى وطوراً قد تقول بنا انتشاء
إلى الأوطان أولهم وكل إلى صنعاء كان له انتواء
فوا جذلا وذاك يقر عيني إذا نقلوا كما نقل السباء
وأضحت فارس وبنو عدي على آثار دمنتها العفاء
يقول القائلون لقد تولوا فتلك ديارهم منهم خلاء
فتنقع غلة للضيم هيماً كما يشفي من الداء الدواء
وتعلم فارس وبنو عدي لأي بني أب نصب اللواء
ومن أهل البلاد أنحن أم هم غداة غد إذا انقطع الحراء
فإن نظفر بذلك من عديٍّ وما فيهم فمنتقم جزاء
وإن أخذل فما لي في نزار أب أُدعى إليه ولا انتماء
ولا في الفرس لي نسب قريب ولا لي في دمائهم بواء
سأترك دار مضيعة وذل لدار لا يرام لها فناء
وأوشك رحلة منها لأخرى يسر لها المقيم ولا يساء
فلي عن فارس وبني عدي رواح إن خذلت ولي اغتداء
ويا يمنا لئن تركت عدي بما ارتكبوا لقد عظم البلاء
وفارس إنها بطرت فرامت مرامكم فأخلفها الرجاء

وعلى عادة العرب من الانتماء إلى القبيلة، فيقال: الهمداني والثقفي والمذحجي... صار يقال للواحد من الأبناء (الأبناوي) واشتهروا بالأسماء العربية مثل: القاضي هشام بن يوسف الأبناوي المعروف بقاضي صنعاء، وهو أحد شيوخ الإمام الشافعي في اليمن، وله في **الصحيحين** عدة أحاديث، وكان له مع وظيفة القضاء إمامة جامع صنعاء.

ويبدو أنه كان له مشاركة فعلية في الصراعات اليمنية، لذلك لم يوفره هذا الشاعر من الهجاء متخذاً من الأصل الفارسي والجذر المجوسي وسيلة للطعن فيه فيقول من قصيدة:

ووتر يا لُخَيْبَرَ فانقموه فدى لكم العمومة والخؤول
تلافوه بطعن كُلى وضرب دراك في الرؤوس له صليل
تذوق الفرس بأسكم وميلوا عليهم إن كلكلكم ثقيل
وصولوهم بدارهم بتبرا كما كانت جدودكم تصول
هشام لقد جشمت مدى بعيداً بلا نحو وجار بك الدليل
أتفخر بالمجوس على ملوك حصونهم الأسنة والنصول
فلا تفخر عليّ بغير فخر وأقصركم تجور بك السبيل

وعدا هذا القاضي فهناك قاض آخر منهم، منسوب في اسمه إليهم، هو أبو الدغيش الأبناوي. ثم اندمج الأبناء في المجتمع اليمني فلا يعرف بهذا الاسم وغيره أحد منهم. وتوجد قريتان في خولان ثم في بني حشيش، إحداهما تسمى الفرس والأخرى الأبناء، وفيهما بطون منهم. وكذا في بيت بوس: بنو بهرام. ولعل تسمية بني بهلول انتزعت من أحد أبناء الفرس، فبهلول اسم فارسي.

أما المعنى الثالث فمن المؤكد أن الطبري لا يعنيه، فهل يمكن أن يعني المعنى الأول؟ وهل بلغ هؤلاء الأبناء من الكثرة حداً جعلهم متميزين بين الكتل اليمانية التي كانت عماد جيوش الفتوحات الإسلامية وظلوا على تميزهم حتى العصر العباسي الأول؟ وهل تعمَّد الأمين اختيارهم ليقذف بهم في أتون حرب تجري على أرض آبائهم الأول؟

وهل النسبة التي ارتبط بها قائد هذا الجيش، (الأبناوي)، مرتبطة بهم ليكون الجيش وقائده من فصيلة واحدة؟

إننا نستبعد ذلك ونرى أن كلمة «الأبناء» يراد بها هنا المعنى الثاني: أبناء أوائل الداعين لنصرة الدولة العباسية. وأن الأمين تعمد اختيارهم واختيار قائدهم منهم لعراقتهم في الانتصار للعباسيين، وليدلل على أنه هو وحده وريث الدولة العباسية. وللدكتور فاروق عمر رأي في هذا الموضوع نورده فيما يلي:

أما الأبناء فشاع اسمهم كذلك أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون. وتشير رواياتنا التاريخية إلى ارتباطهم الوثيق بـ «أهل خراسان» فيسميهم ابن سعد «أبناء أهل خراسان» وتشير رواية أُخرى إلى أحدهم بقولها: «إنه من أبناء هذه الدولة أصله من مرو وولادته في بغداد». وفي سنة ١٨٠هـ، كان لا يزال عدد من «أبناء أهل خُراسان» يستوطنون الأنبار. ويسميهم ابن طيفور «أبناء خُراسان المولودون». ورغم ارتباط الأبناء بـ«أهل خراسان» إلّا أنهم كانوا يميّزون أنفسهم عنهم، بل إنهم يفخرون على الموالي والعرب والأعراب؛ مما يدلّ على أنّ الأبناء كانوا كتلة متميزة عن غيرها، وهذه الكتلة خُراسانية بغدادية المولد.

ورغم أن الدكتور صالح العلي يشير إلى الصلة القوية بين الأبناء «أبناء الملوك» الذين كانوا أبرز عناصر الجيش العباسي في العصر العباسي الأول، وبين أمراء المدن والأقاليم الإيرانية معتبراً هؤلاء الأبناء أحفاداً لأمراء الأقاليم والمدن الخُراسانية الذين كانوا يحملون لقب «ملك» في القرن الأول الهجري، إلّا أننا نعتقد بأن كتلة الأبناء لم تكن كتلة أعجمية؛ لأنّ الشيعة العباسية من أهل خُراسان كانوا عرباً وأعاجم؛ فالأبناء دون شك سيكونون مزيجاً من العنصرين العربي والأعجمي. ثم إنّ لقب ملك لم يكن مقصوراً على الفُرس بل على زعماء العرب المستوطنين في بلاد فارس. وكان من أبرز الزعماء العرب من كتلة الأبناء عبد اللّه بن حميد بن قحطبة الطائي؛ كما أنّ من أبرز الزعماء الأعاجم من كتلة الأبناء يحيى بن خالد البرمكي. هذا من جهة؛ ومن جهة أُخرى فإنّ مصادرنا لا تشير إلى أي دور لعبه هؤلاء «الملوك» الأعاجم في أحداث الدولة العباسية، فكيف يا ترى كان الأمر بأبناء هؤلاء الملوك والأمراء المحليين. وهناك نقطة ثالثة ربما كانت مهمة وهي أنّ

اصطلاح الأبناء اصطلاح عربي قديم ظهر في اليمن قبل الإسلام، وكان يُطلق على الجيل الجديد الذي نشأ نتجية اختلاط العرب بغيرهم، ويعني الجيل الذي لا تزال تجري في عروقه دماء عربية.

على أنّ الفارق بين الأبناء وبين أهل خُراسان هو أنّ أهل خُراسان وخاصة العرب منهم تأثروا بالبيئة الإيرانية وتقاليد حضارتها لاستقرارهم هناك ردحاً من الزمن، أما الأبناء فتأثروا بتقاليد الخلافة العباسية في العراق الذي كانت بيئته تختلف تماماً عن بيئة خُراسان الأعجمية (انتهى).

استكمل عبد الرحمن إعداد جيشه وزوده الأمين بما استطاع من المال والسلاح والخيل، وأعلنه والياً على حلوان إلى ما غلب عليه من أرض خراسان. وأن يعجل في السير حتى ينزل مدينة همذان قبل أن يصلها طاهر بن الحسين.

واختيار همذان مقراً للعمليات العسكرية في محاربة طاهر، وجعل الدفاع عنها هو الأساس في عمليات الدفاع الذي تقرر اعتماده أولاً ـ كان لأن همذان هي كبرى المدن بعد الحدود العراقية، فسقوطها بيد طاهر يفتح أمامه أبواب العراق، لذلك كان لا بد لجيوش الأمين من اتخاذها قاعدة الدفاع الأولى، ودفع جيش طاهر عنها، ثم الانطلاق منها للهجوم بعد الدفاع.

ونفذ عبد الرحمن ما عهد إليه بتنفيذه، وكان الأمر بينه وبين طاهر أمر تسابق في الوصول إلى همذان، واستطاع عبد الرحمن أن يسبق طاهراً إليها، فأول ما فعله هو تحصين سورها وأبوابها وسد ثلمها. ثم ضبط الطرق الموصلة إليها، وجمع أكثر ما يمكن جمعه فيها من الميرة، تحسباً لما قد يضطر إليه من التحصن داخلها في حصار قد يفرضه عليه طاهر.

على أنه كان يمكن أن يكون هناك خط دفاعي عن همذان يتولاه يحيى وهو ابن القائد المهزوم جيشه والمقتول هو في تلك الهزيمة، (علي بن عيسى).

فإن يحيى هذا، بعد مقتل أبيه وهزيمة جيشه، هرب مع جماعة من أصحابه واستقر بين الري وهمذان ينتظر فلول جيش أبيه الهاربة مثله، فيقنعهم بالمرابطة معه، حتى اجتمع إليه جمع منهم، وكان في تصوره أن الأمين حين يبلغه أمره هذا سيعهد إليه مكان أبيه ويمده بالخيل والرجال، بعد أن يجتمع إليه ما يجتمع، وكتب بذلك إلى الأمين يعلمه بأمره ويستمده ويستنجده.

ولكن الأمين كان قد قرر ما قرر، فكتب إليه أن يقر في مكانه استعداداً للقاء طاهر

المتوقع زحفه بعد انتصاره، وأنه إذا احتاج إلى نجدة فعليه أن يكتب إلى عبد الرحمن فيمده بما يشاء.

وبذلك أرضى الأمين استقلالية يحيى بالقيادة وأبقى عبد الرحمن على قيادته للجيش الكبير.

وكما كان المتوقع فإن طاهراً لما بلغه تقدم عبد الرحمن نحو همذان تقدم هو نحوه، ولما صار قريباً من يحيى ضعفت عزيمة يحيى، وهي المضعضعة من قبل بالهزيمة ومقتل الأب، فقال لأصحابه ـ وهو الذي جمعهم ليقاتل بهم ـ قال لهم: «إن طاهراً قد قرب منا ومعه من تعرفون من رجال خراسان وفرسانها، وهو صاحبكم بالأمس ولا آمن إن لقيته بمن معي من هذا الفل أن يصدعنا صدعاً يدخل وهنه على من خلفنا وأن يعتل عبد الرحمن بذلك ويقلدني به العار والوهن والعجز عند أمير المؤمنين وإن أستنجد به وأقم على انتظار مدده لم آمن أن يمسك ضناً منه برجاله وإبقاء عليهم وشحاً بهم على القتل. ولكن نتزاحف إلى مدينة همذان فنعسكر قريباً من عبد الرحمن فإن استعنا به قرب منا عونه وإن احتاج إلينا أعناه وكنا بفنائه وقاتلنا معه».

وبالرغم من أن في بعض هذا الكلام بعض المنطق، فلم يكن الباعث عليه ما فيه من منطق، بل كان الباعث الخور وانكسار المعنويات.

وهو لم يكتف بخوره وانكسار معنوياته، بل زادهما في رجاله الخائرين المنكسرين مثله، فهوّل عليهم برجال خراسان وفرسانها، وبصاحبهم بالأمس طاهر. فوافقوه على رأيه، ولكنهم لم يكادوا يقربون من همذان حتى أسلموه وتفرقوا عنه.

وبذلك خلت الطريق أمام طاهر حتى همذان من كل مقاومة، فزحف إلى همذان، وخرج إليه عبد الرحمن، فاقتتلوا قتالاً شديداً وصبر الفريقان وكثرت القتلى والجرحى فيهم، ثم انتهى الأمر بهزيمة عبد الرحمن وتحصن داخل همذان وأعاد تنظيم جيشه، وخرج لقتال طاهر، فدارت معركة حامية الوطيس انتهت بانهزام عبد الرحمن ولجوئه إلى المدينة. وقام طاهر محاصراً لها، وضاقت الحياة بأهل همذان لشدة الحصار، وهم يرون أن لا شأن لهم فيما يجري، بل هي حرب بين أخوين. وخشي عبد الرحمن أن يثور به أهل همذان فيقع بين نارين: نار طاهر ونار الهمذانيين لذلك آثر الاستسلام، فأرسل إلى طاهر يطلب الأمان لنفسه ولمن معه فاستجاب له طاهر ووفى له بأمانه.

هكذا انتهى أمر الحملتين اللتين وجههما الأمين للقضاء على المأمون، حملة علي بن عيسى، وحملة عبد الرحمن الأبناوي ـ انتهى أمرهما بالهزيمة، ووصلت سلطة خلافة

المأمون على مقربة من حدود العراق. وكان طاهر قبل معركة همذان قد خشي أن يأتيه من خلفه كثير بن قادرة عامل الأمين على قزوين، فمضى إليه بقطعة من جيشه، فهرب كثير، فولى عليها طاهر والياً من قبله.

ويبدو أن طاهراً كان يطمع بأن ينضم إليه عبد الرحمن برجاله فلم يجردهم من سلاحهم ولم يفرقهم، فأقام عبد الرحمن يُري طاهراً المسالمة والسكون حتى سنحت له فرصة رآهم فيها على غير أهبة الحرب فباغتهم برجاله بالهجوم عليهم وأعملوا فيهم السيوف فكان للمباغتة أثرها، ولكن أصحاب طاهر ثبتوا لهم وقاتلهم الرجّالة أشد قتال، إلى أن استطاع الفرسان المساهمة بالقتال، فلم يلبث أصحاب عبد الرحمن أن هزموا، وترجل عبد الرحمن عن فرسه عازماً على الموت وأبى الهرب فقتل في المعركة.

وكان الأمين قد أرسل لعبد الرحمن، وهو لا يزال في همذان، نجدة كبيرة من الفرسان كانت في طريقها إليه عندما حلت هذه الهزيمة بجماعته، ووصل المنهزمون إلى معسكر النجدة وأخبروا بما جرى، فحل الهلع والرعب في قلوب فرسانها فولوا هاربين دون قتال، ولم يوقفهم شيء حتى بغداد. وخلت الساحة لطاهر فواصل تقدمه مجتازاً البلاد بلدة وراء بلدة حتى نزل بقرية شلاشان من قرى حلوان فعسكر فيها وحصّن مواقعه.

الحال في البلاد

إن تتابع الهزائم بهذا الشكل المريع كان له في بغداد صدى مخيف، وأشد الناس ذعراً كان الفضل بن الربيع، المسؤول الأول عن دفع الأمين إلى الغدر بأخيه. ويروي أسد بن يزيد بن مزيد حديثاً جرى له مع الفضل إثر وصول خبر الهزيمة الأخيرة، وفي هذا الحديث يحمل الفضل على الأمين ويصوره بصورة اللاهي العابث الذي لا يعي حقيقة ما يجري، وينذر بسوء العاقبة إن ظل الأمر على ما هو عليه، هذا السوء الذي سينال الفضل في أول من ينالهم.

وينسى الفضل أن شخصية الأمين لم تتبدل بين عشية وضحاها، وأن الأمين الذي يصفه بما سنراه من الصفات، هو نفسه الأمين حامل تلك الصفات يوم أغراه بما أغراه به من خلع أخيه، وليست هذه الصفات جديدة فيه، فقد كان عليه أن يدرك، وهو يورط الأمين بما ورطه به، أن حامل تلك الصفات ليس من رجال مثل هذه المهمات.

ولكن الفضل الذي تحكمت فيه أحقاده وأطماعه فغشت على بصيرته فاستسهل عواقب الغدر، وحسب أن المأمون أكلة آكل، جاء اليوم يرمي سخطه على الأمين ويجعله المسؤول عن الهزائم المتتابعة، وعن الآتي الأعظم.

قال أسد بن يزيد بن مزيد ـ على ما يروي الطبري ـ إن الفضل بن الربيع بعث إليه بعد مقتل عبد الرحمن الأبناوي، قال فأتيته فلما دخلت عليه وجدته قاعداً في صحن داره، وفي يده رقعة قد قرأها واحمرت عيناه واشتد غضبه وهو يقول، (عن الأمين): ينام نوم الظربان لا يفكر في زوال نعمة ولا يروّى في إمضاء رأي ولا مكيدة، قد ألهاه كأسه وشغله قدحه فهو يجري في لهوه والأيام تضرّع في هلاكه. قد شمّر عبد اللّه، (المأمون)، عن ساقه وفوّق له أصيب أسهمه، يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ والموت القاصد، قد عبّى له المنايا على متون الخيل وناط له البلاء في أسنة الرماح وشفار السيوف. ثم استرجع (الفضل) وتمثل بأبيات من الشعر.

ويتابع أسد حديثه قائلاً: ثم التفت إليّ (الفضل) فقال: يا أبا الحارث أنا وإياك لنجري إلى غاية إن قصرنا عنها ذممنا، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا، وإنما نحن شعب من أصل إن قوي قوينا وإن ضعف ضعفنا، إن هذا، (الأمين)، قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء يشاور النساء ويعتزم على الرؤيا وقد أمكن بمسامعه ما معه من أهل اللهو والجسارة، فهم يعدونه الظفر ويمنونه عقب الأيام. والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل، وقد خشيت واللّه أن نهلك بهلاكه ونعطب بعطبه، وأنت فارس العرب وابن فارسها، فزع إليك في لقاء هذا الرجل وأطعمه فيما قبلك أمران: أما أحدهما فصدق طاعتك وفضل نصيحتك، والثاني يُمن نقيبتك وشدة بأسك. وقد أمرني إزاحة علتك وبسط يدك فيما أحببت، غير أن الاقتصاد رأس النصيحة ومفتاح اليمن والبركة فأنجز حوائجك وعجل المبادرة إلى عدوك فإني أرجو أن يوليك اللّه شرف هذا الفتح ويلم بك شعث هذه الخلافة والدولة (انتهى).

ونحن حين نرجع إلى نصوص الطبري السابقة نراه يذكر أن الرشيد حين شخص إلى خراسان جدد البيعة للمأمون على القواد الذين معه ـ وفيهم الفضل بن الربيع ـ وأشهد من معه القواد وسائر الناس وغيرهم أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون.

وقد كان على الفضل تنفيذاً لهذه البيعة أن ينضم هو والقواد الآخرون ومن معهم من الجند ـ أن ينضموا إلى المأمون ويكونوا من أتباعه فور وفاة الرشيد. ولكن الفضل نكث البيعة وخرج على ما أُخذ عليه من العهد، وحرض جميع من كان هناك على ترك المأمون والالتحاق بالأمين.

يقول الطبري في هذا: تشاوروا في اللحاق بمحمد الأمين، فقال الفضل بن الربيع: لا

أدع ملكاً حاضراً، (ملك الأمين)، لآخر، (ملك المأمون)، لا يُدرى ما يكون من أمره. وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك.

إذاً فالناقض الأول هو الفضل وهو المعتمد على ملك الأمين ومحرض الناس على الاعتماد عليه.

ثم يقول الطبري عن الفضل إنه بعد وصوله إلى بغداد: «سعى في إغراء محمد، الأمين به، بالمأمون وحثه على خلعه وصرف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى، ولم يكن ذلك من رأي محمد ولا عزمه. بل كان عزمه فيما ذكر عنه الوفاء لأخويه عبد اللّه، المأمون والقاسم بما كان أخذ عليه والده من العهود والشروط، فلم يزل الفضل به يصغّر في عينه شأن المأمون ويزين له خلعه»... إلى أن يقول الطبري: «فأزال محمداً عن رأيه». هذا المذعور الآن من توالي الهزائم، المحمل للأمين مسبباتها، الواصف للأمين بما سمعنا من الصفات، كان الأمين قبل ذلك ـ كما رأينا هنا ـ هو عنده المؤهل للمهمة الكبرى، مهمة إزالة المأمون عن ولاية العهد، ولم يكن ممن ألهتهم كؤوسهم وشغلتهم أقداحهم، ومن الجارين في لهوهم، إلى آخر العيوب التي وصم بها الأمين، ما يجعله غير أهل لأي مهمة صغرت أو كبرت، فكيف بأكبر مهمة في الدولة.

والمأمون الذي يصفه الآن بكل صفات الحزم والقوة والذي يقول عنه ما يقول، أليس هو الذي صغّر شأنه في عين الأمين، حتى أزال الأمين عن رأيه في الوفاء لأخيه؟

لقد تراءت حقيقة الموقف للفضل بن الربيع، ولاح له المصير المظلم الذي ساق إليه الأمين، وساق نفسه معه، فراح يتنصل من المسؤولية ويحملها لضعف الأمين!

هؤلاء هم قذارات الشعوب، الذين لا يبالون أن يدفعوا بشعوبهم ورجالها إلى المهالك ما داموا يأملون تحقيق أهوائهم الذاتية ومصالحهم الشخصية، فإذا نجحوا أسبغوا على أنفسهم البطولات وإذا فشلوا حمّلوا غيرهم المسؤوليات. ها هم الآن يبرزون في هذه الحقبة من التاريخ بشخص الفضل بن الربيع!

ونعود الآن إلى الإصغاء إلى أسد بن يزيد بن مزيد وهو يتمم حديثه قائلاً: «فقلت أنا لطاعة أمير المؤمنين وطاعتك مقدم ولكلّ ما أدخل الوهن والذل على عدوه وعدوك حريص، غير أن المحارب لا يعمل بالغرور ولا يفتتح أمره بالتقصير والخلل، وإنما ملاك المحارب الجنود وملاك الجنود المال....»، إلى أن يقول: «ولا أُسأل عن محاسبة ما افتتحت من المدن والكور».

وهنا تتجلى لنا نفسية هؤلاء الذين عهد إليهم بتقرير مصائر الأمة، فإذا كانت مطالبه

الأولى معقولة، فإن بيت القصيد عنده أن لا يُسأل عن محاسبة ما يفتتح من المدن والكور. أي أن يطلق يده في النهب والسلب، واستصفاء أموال الناس في كل ما يمر به من مدن وقرى!

فكان جواب الربيع له: لقد اشتططت! هذا كل ما كان من جواب الربيع لأسد على ما طلبه من إطلاق يده في العبث في البلاد وأخذ ما يستطيع أخذه من أموال أهلها. وتابع كلامه قائلاً: لا بد من مناظرة أمير المؤمنين. فهو موافق على طلب أسد، ولكن لا بد له من إقناع الأمين بذلك.

ويقول أسد: ثم ركب وركبت معه فدخل قبلي على محمد وأُذن لي فدخلت، فما كان بيني وبينه الأمين إلّا كلمتان حتى غضب وأمر بحبسي.

ويسكت أسد عن ذكر الكلمتين اللتين قالهما للأمين فسببتا حبسه، يسكت عن ذكرهما ربما للتشنيع على الأمين بأنه يسجن ناصحيه!

ولكن بعض خاصة الأمين أوضح حقيقة ما دار في ذلك المجلس بين أسد وبين الأمين، وذكر الكلمتين اللتين أخفاهما أسد عن الناس. ربما فعل هذا بعض خاصة الأمين رداً على ما أراد إلصاقه أسد بالأمين، فقال: إن أسداً قال لمحمد: ادفع إليّ ولدي عبد اللّه المأمون حتى يكونا أسيرين في يدي فإن أعطاني الطاعة وألقى إليّ بيده، وإلّا عملت فيهما بحكمي وأنفذت فيهما أمري. فقال: أنت أعرابي مجنون، أدعوك إلى ولاء أعنة العرب والعجم وأطعمك خراج كور الجبال[٣٢] إلى خراسان وأرفع منزلتك عن نظرائك من أبناء القواد والملوك وتدعوني إلى قتل ولدي وسفك دماء أهل بيتي، إن هذا للخرق والتخليط!

إذاً فشروط أسد بن يزيد بن مزيد لتولي حرب المأمون وضمان النصر عليه هي ثلاثة: أولاً أن يستولي على خراج منطقة الجبال إلى خراسان. ثانياً أن تطلق يده في النهب والسلب واغتصاب أموال أصحاب الأموال. ثالثاً أن يأخذ ولدي المأمون رهينة حتى إذا لم يستسلم له المأمون ذبحهما.

بهذا المنطق كان يتكلم القادة!

وكان للمأمون ولدان ببغداد وهما مع أمهما، أم عيسى ابنة موسى الهادي، وكانا ينزلان مع أمهما بقصر للمأمون في بغداد. وبعد فوز المأمون خرجا إليه مع أمهما إلى خراسان.

ثم استدعى الأمين أحمد بن مزيد عم أسد ليوليه مكان ابن أخيه، في نفس الوقت الذي

(٣٢) الجبال هنا اسم منطقة واسعة.

كان فيه الفضل بن الربيع يقنع عبد اللّه بن حميد بن قحطبة ليقود جيشاً لمحاربة طاهر، ولما مضى أحمد للقاء الأمين مر بالفضل بن الربيع فالتقى هناك بعبد اللّه ثم مضى مع الفضل لمقابلة الأمين.

وكان القرار أن يؤلف جيشان، عدّة كل منهما عشرون ألف رجل يتولى قيادة أحدهما أحمد بن مزيد، ويتولى قيادة الثاني عبد اللّه بن حميد، وأن يتجه الجيشان إلى حلوان لدفع طاهر عنها إن كان قد احتلها، وأما إذا كان معسكراً في شلاشان فعليهما أن يتقدما إليه من حلوان.

وقد كان من سوء التدبير أن يرسل جيشان بقيادتين مستقلتين، وأن لا يكون هناك جيش موحد القيادة متماسك الأجزاء.

ومضى الجيشان حتى نزلا خانقين قريباً من حلوان. فلما علم طاهر بنزولهما حاربهما حرباً نفسية، فكان يرسل جواسيسه إلى عسكريهما فيختلطون بالعسكريين ويثيرون فيهم إشاعات مريبة، ويأتونهم بالأراجيف التي توقع الفتنة بينهم، حتى وقعت الفتنة وقاتل بعضهم بعضاً، فأخلوا خانقين ورجعوا عنها من غير أن يلقوا طاهراً الذي تقدم هذه المرة فاحتل حلوان.

وعند هذا الحد يمكن القول إن المأمون تحول من الدفاع إلى الهجوم على الأعداء، وقرر إقامة جبهة جديدة في الأهواز عهد بقيادتها إلى طاهر بن الحسين على أن يتولى جبهة حلوان هرثمة بن أعين.

وكانت الحال في بغداد حالة فوضى في الرأي ولم تعد هناك خطة واضحة للعمل، وقد صور عبد الملك بن صالح الأمر على حقيقته من مظاهر الفوضى، وهو يشرح الحال للأمين حين قال له:

«إني أرى الناس قد طعموا فيك وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك، وقد بذلت سماحتك فإن أتممت على أمرك أفسدتهم وأبطرتهم وإن كففت أمرك عن العطاء والبذل أسخطتهم وأغضبتهم، وليس تُملك الجنود بالإمساك، ولا يبقى ثبوت الأموال على الإنفاق والسرف. ومع هذا فإن جندك قد رعبتهم الهزائم ونهكتهم وأضعفتهم الحرب والوقائع وامتلأت قلوبهم هيبة لعدوهم ونكولاً عن لقائهم ومناهضتهم، فإن سيَّرتهم إلى طاهر غلب بقليل من معه كثيرهم وهزم بقوة نيته ضعف نصائحهم ونياتهم».

هذا الذي قاله عبد الملك هو صورة ما كان عليه الحال في بغداد. ومعنى ذلك أنه لم يعد من الممكن الاعتماد على عسكر العراق، الذين صار من غير المستطاع إرضاؤهم.

والأهم من ذلك أن معنوياتهم قد تحطمت وفقدوا حماسة القتال وانهارت نفسياتهم، بما تعاقب من هزائم وما عاناه الكثير منهم في خوض المعارك.

فإذا كان لا يمكن الاعتماد على الجنود العراقيين فما هو الحل إذاً؟

لقد ارتأى عبد الملك أن الحل هو في الاعتماد على أهل الشام، فقال متابعاً كلامه:

«وأهل الشام قوم قد ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد، وجلهم منقاد إليّ مسارع إلى طاعتي، فإن وجهني أمير المؤمنين اتخذت له منهم جنداً يعظم نكايته في عدوه ويؤيد اللّه بهم أولياءه وأهل طاعته».

والصورة السوداء التي أبرزها عبد الملك أمام عيني الأمين، والتي لم تكن معالمها خافية عليه، صورة الوضع العام في بغداد، وحيرته فيما يصنع وكيف يتصرف ـ هذه الصورة جعلته يبادر إلى الأخذ برأي عبد الملك دون تردد.

على أننا نفتش هنا عن الفضل بن الربيع، مسبب هذي المآسي كلها، فلا نجده؛ وقرار خطير مثل هذا القرار، كان من المفروض أن لا يغيب عنه الفضل وأن يكون له مشاورة ورأي فيه. ولكننا منذ خذلان أحمد بن مزيد وعبد اللّه بن حميد بن قحطبة الذي كان هو من رشحه ودعمه وقدمه للأمين ـ منذ ذلك الخذلان لم نعد نرى للفضل وجوداً ولا نسمع له صوتاً[٣٣].

ويبدو جلياً أنه بعد توالي الانكسارات، انكساراً وراء انكسار، توارى عن مسرح الأحداث وتركها تجري في أعنتها، متخلياً عن الرجل الذي ورّطه في هذا المأزق الخطير. لقد كان يعمل ما دام لدسائسه مكان للعمل، وما دامت هذه الدسائس يمكن أن توصله إلى إرواء حقده، ولكن تراءى له الآن أن الأمل بات ضعيفاً لذلك لم يعد يبالي بما يحدث وترك ضحيته الأمين يتخبط فيما يتخبط فيه وبخل عليه حتى بالنصح.

الفضل بن الربيـع

مهندس قضية الأمين، الفضل بن الربيع، هو الأبرز لا في إحداث الصراع بين الأخوين فقط، بل في الأحداث التي سبقت عهد الأمين والمأمون، وإذا كان هنا في هذه الأخيرة هو فاعلها، فإنه فيما قبلها متفاعل معها متشابك في وقائعها وفي رأس المتشابكين بين رجالها.

(٣٣) بعد ظفر المأمون استتر، ثم عفا عنه المأمون ولكن أهمله بقية حياته فعاش خاملاً حتى توفي بطوس سنة ٢٠٨ هـ.

وإذا كان لبعض الرجال قضية يعملون لها ويكافحون من أجلها، قد ينجحون وقد يفشلون، ولكنهم في كلا الحالين يظلون مصاولين متحفزين، لا يتراجعون، ولا يتوارون عند بوادر الفشل...

إذا كان لبعض الرجال قضية، فلم يكن لهذا الرجل قضية، كانت العقد النفسية هي التي تحركه، كان النسب المجهول الذي يرمى به هو الذي يقود خطواته، كان نجاح الآخرين هو الذي يثير نيران غيظه، فيحاول أن يحرق بهذه النيران الأخضر واليابس.

ومن سوء حظ الأمم أن يجد بعض أصحاب هذه الصفات مكاناً لهم في الصدارة، وأن تتاح لهم إمكانية تحريك الأحداث المصيرية، فيحركوها وفق ما توحيه دوافعهم العُقَدية وحوافزهم النَّقْصيّة، فيورطون الأمة ورطات بعض ما فيها التذابح!

وهكذا كان من الطالع السيىء لعصر ما بعد هارون الرشيد أن رجلاً مثل الفضل بن الربيع كان في الموقع الذي يستطيع فيه تحريك أحداث المصائر.

لنرجع قليلاً إلى الوراء إلى بعض ماضي هذا الرجل، لنرى بعض ملامح تكوينه النفسي.

هو ابن الربيع بن يونس إلى آخر النسب الذي ساقه إليه ابن خلكان في كتابه **وفيات الأعيان**. ولكن ابن خلكان نفسه يعود بعد قليل فيقول: ويقال إن الربيع لم يكن له أب يعرف، وإن بعض الهاشميين دخل على المنصور، (وكان الربيع وزيره)، وجعل يحدثه ويقول: كان أبي رحمه اللّه تعالى، وكان، وكان، وأكثر من الترحم عليه، فقال الربيع: كم تترحم على أبيك بحضرة أمير المؤمنين! فقال الهاشمي: أنت معذور، لأنك لا تعرف مقدار الآباء!

وليس ابن خلكان هو الوحيد الذي تفرد بذكر هذا الأمر، بل أتذكر أني قرأت القصة في مكان آخر، وأتذكر أني قرأت جواب الهاشمي بهذا النص: لا ألومك لأنك لا تعرف حلاوة الآباء...

وابن خلكان يروي خلال سرده ترجمة الفضل بن الربيع أن نزاعاً جرى بحضرة الرشيد بين الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى البرمكي فقال جعفر للفضل: يا لقيط، إشارة إلى ما كان يقال عن أبيه الربيع: إنه لا يُعرف أبوه.

وإذا كان الربيع قد سكت عن هذه الإهانة الموجهة إليه في مجلس المنصور، وكل ما كان لها من صدى في نفسه أنها أخجلته، فإن ابنه الفضل قابل الإهانة نفسها الموجهة إليه في مجلس الرشيد بهذا الرد: إشهد يا أمير المؤمنين.

فقال جعفر للرشيد: تراه عند مَنْ يقيمك هذا الجاهل شاهداً يا أمير المؤمنين، وأنت حاكم الحكام.

وسكوت الربيع، وجواب الفضل هذا الجواب، الذي ليس هو بجواب، هذا السكوت وهذا الجواب هو إقرار ضمني باشتهار التهمة، سواء صحت أو لم تصح.

وإذا كان الربيع قد غطى هذا النقص بنجاحه في حجابته أولاً للمنصور ثم في وزارته له، مما حمل ابن خلكان على القول عن المنصور بأنه كان كثير الميل إليه، حسن الاعتماد عليه ـ إذا كان الأمر كذلك في الربيع، فلم يكن كذلك في الفضل.

يقول ابن خلكان وهو يتحدث عن الفضل: لما آل الأمر إلى الرشيد واستوزر البرامكة، كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بهم ومعارضتهم، ولم يكن له من القدرة ما يدرك به اللحاق بهم، فكان في نفسه منهم إحنٌ وشحناء، قال عبيد اللّه بن سليمان بن وهب: إذا أراد اللّه تعالى هلاك قوم وزوال نعمتهم جعل لذلك أسباباً، فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع وسعي الفضل بهم، وتمكن بالمجالسة من الرشيد فأوغر قلبه عليهم ومالأه على ذلك كاتبه إسماعيل بن صبيح حتى كان ما كان.

ثم يتمم ابن خلكان كلامه قائلاً: ويحكى أن الفضل دخل يوماً على يحيى بن خالد البرمكي وقد جلس لقضاء حوائج الناس، وبين يديه ولده جعفر يوقّع في القصص، فعرض الفضل عليه عشر رقاع للناس، فتعلل يحيى في كل رقعة بعلة، ولم يوقع في شيء منها البتة، فجمع الفضل الرقاع وقال: ارجعن خائبات خائنات، ثم خرج وهو يقول:

متى عسى يُثني الزمان عنانه بتصريف حال والزمان عثور
فتقضى لبانات وتشفى ضغائن وتحدث من بعد الأمور أمور

فسمعه يحيى وهو ينشد ذلك فقال له: عزمت عليك يا أبا العباس إلّا رجعت، فرجع، فوقّع له في جميع الرقاع. ثم ما كان بعد قليل حتى نُكبوا على يده، وتولى بعدهم وزارة الرشيد. وفي ذلك يقول الشاعر:

ما رعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع
إن دهراً لم يرع عهداً ليحي غير راع ذمام آل الربيع

وهكذا عاش الفضل عقدتين: عقدة التعيير بالنسب وعقدة القصور عن الوصول إلى المنصب الرفيع، وكانت منزلة البرامكة من الرشيد وما لهم من الصيت الحسن بين الناس تزيد عقدتيه تعقيداً وتؤرث حنقه على الناس والحياة، وكان أقصى ما وصل إليه هو التمكن من مجالسة الرشيد. ولا شك أنه لم يكن يريد أن يذكرهم بخير في مجلس الرشيد، ولكننا لا نسلم لابن خلكان بما زعم من أنه كان سبب هلاكهم وزوال نعمتهم، ثم تراجع عن ذلك فقال: إنه كان من أسباب زوال أمرهم، لا سبب ذلك.

فلم يكن لا للفضل بن الربيع ولا لإسماعيل بن صبيح أن ينال من البرامكة في مجلس الرشيد أيام كان الرشيد طوع أيديهم وكانوا خلصاءه الأدنين. وسبب هلاكهم وزوال نعمتهم وانقضاء أمرهم هو أمر أكبر من أن يكون مسببه طعن الفضل فيهم!

ولكن الأكيد هو ما قاله ابن خلكان من أنه كان في نفسه منهم إحن وشحناء.

هذه الإحن والشحناء وعجزه عن التشبه بالبرامكة ومعارضتهم، هو ما كوّن شخصيته، وجعلته بلا قضية، أو بالأحرى جعلت قضيته منبعثة من الإحن والشحناء والعجز عن التشبه بالناجحين ومعارضتهم.

ومن تنبعث قضيته من هذا المنبعث يكنْ من الطبيعي أن تكون سيرته هذه السيرة الحاقدة البعيدة عن الالتزام لا بهدف ولا برجل...

الالتجاء إلى الشام

لا شك أن غياب الفضل قد أفقد موقف الأمين مركزية القرار، فلم يعد هناك من يمكن الركون إلى رأيه في اتخاذ القرارات الحاسمة، لذلك رأينا أنه بمجرد أن عرض عبد الملك بن صالح على الأمين فكرة الاعتماد على أهل الشام في إحباط أمر المأمون، وأن يعهد إليه بالسير إليهم ليقودهم في هذه المهمة الخطيرة ـ بمجرد أن عرض عليه ذلك بادر بالموافقة قائلاً لعبد الملك: «فإني موليك أمرهم ومقوّيك بما سألت من مال وعدة فعجّل الشخوص إلى ما هنالك فاعمل عملاً يظهر أثره وتحمد بركته برأيك ونظرك فيه إن شاء اللّه».

فولاه الشام والجزيرة واستحثه استحثاثاً شديداً، ووجه معه كنفاً من الجند والأبناء كما يقول الطبري.

ولم يكن الأمين مستطيعاً إلّا أن يستجيب بدون تردد لرأي عبد الملك، لانعدام الرأي الآخر وفقدان المستشارين الذين كان من المفروض أن يكون على رأسهم الفضل بن الربيع الذي نفض يديه من الأمر كله، الأمر الذي كان هو وحده المسؤول عن وجوده!

وإذا لم يستجب الأمين لرأي عبد الملك، فماذا يصنع بعد أن صوّر له عبد الملك الواقع في بغداد بتلك الصورة المظلمة التي لا يبدو فيها أي بصيص للنور؟!

ومضى عبد الملك لإنفاذ ما اقترح إنفاذه، فكانت مدينة الرقة أول منزل ينزله في رحلته الطويلة الشاقة. وهي المدينة التي كانت عاصمة ثانية ـ وربما مفضلة ـ للرشيد، والتي تقع على الحدود الفاصلة بين العراق والشام والتي هي اليوم مدينة سورية.

أقام عبد الملك في الرقة واتخذها مقراً لتجميع الجند لا من الشام وحدها بل من

الجزيرة أيضاً، فكتب إلى رؤساء أجناد الشام ووجوه الجزيرة، ويقول الطبري: «لم يبق أحد ممن يرجى ويذكر بأسه وغناؤه إلّا وعده وبسط له في أمله وأمنيته».

وهكذا نرى أن عبد الملك لم يعلن لأهل الجزيرة وأهل الشام قضيةً يقاتلون عنها، ولا فكرةً يتحمسون لها، ولم يذكر لهم رجلاً يستهويهم ذكره أو يؤملهم نجاحه ويؤيسهم فشله. بل كل ما فعل أن وعد كل واحد ممن كتب لهم وعوداً تهم شخصه ولا تتعداه إلى شأن عام. وبسط له في أمله وأمنيته؛ أمله في المطامع وأمنيته في المكاسب، سواء كانت هذه المطامع والمكاسب في المال أو المناصب.

ومن لا تكون لهم قضية يدافعون عنها ولا فكرة يتحمسون لها، ولا رجل يرمز إلى عقيدتهم وميولهم يلتفون حول اسمه، ومن كانت المطامع الشخصية هي التي تجمعهم، والمكاسب الفردية هي التي تلمهم...

إن قوماً مثل هؤلاء لا يستنصر بهم! على أنهم استجابوا لعبد الملك: «رئيساً بعد رئيس، وجماعة بعد جماعة، فكان لا يدخل عليه أحد إلّا أجازه وخلع عليه وحمله، فأتاه أهل الشام: الزواقيل والأعراب من كل فج واجتمعوا عنده حتى كثروا».

وقد استوقفتني كلمة «الزواقيل» فأنا أعترف بجهلي لحقيقة من يقصد بها، وكل ما أعرف عنها هو ما قرأته في معجم **لسان العرب** الذي قال عن كلمة «زقل»: زوقل فلان عمامته: أرخى طرفيها من ناحية رأسه. ابن دريد: الزقل منه اشتقاق الزواقيل، وهم قوم بناحية الجزيرة وما والاها.

وعلى هذا فكل معلوماتي عنهم أنهم من بين من كتب لهم عبد الملك من سكان الجزيرة فاستجابوا له. أما ما هي حقيقة هؤلاء القوم الذين كانوا بناحية الجزيرة وما والاها، أهم من العرب أم من غير العرب؟ فإني معترف بجهلي بذلك. وإذا كان الطبري قد جعلهم طرفاً مقابلاً للأعراب فليس معنى ذلك أنهم ليسوا عرباً، بل ليسوا أعراباً.

وفي حين أن صاحب **لسان العرب** يجعلهم من سكان الجزيرة، فإن الطبري يجعلهم من أهل الشام حين يقول: فأتاه أهل الشام: الأعراب والزواقيل[٣٤].

(٣٤) يقول الدكتور فاروق عمر: كان الزواقيل جماعة وقفت إلى جانب الأمين، وكان غالبية هذه الكتلة يتجمعون في إقليمَي الشام والجزيرة. وتذكر المصادر بعض زعمائهم أمثال نصر بن شبث العقيلي والعباس بن زفر الهلالي. وقد حار المؤرخون في تمييز هذه الجماعة؛ فعرّفهم المستشرق دي خويه في ملحقه لتاريخ الطبري بأنهم مرتزقة غير عرب من السوريين والجزريين، ويبدو أنّ المستشرق دي خويه قد تَوَصّلَ إلى هذا التخريج مستنداً على روايات تشير إلى الزواقيل والأعراب جنباً إلى جنب؛ فلا بد ـ حسب رأيه ـ أن يكون الزواقيل غير عرب.

وهكذا نرى أن الاستجابة لنداء عبد الملك كانت استجابة مرضية، والتلبية كانت شاملة مما حمل الطبري على القول: إن الناس أتوا من كل فج واجتمعوا عند عبد الملك حتى كثروا.

ولكن الذين لا تجمعهم قضية، ولا رجل رمز قضية، سيفرق جموعهم الاختلاف على دابة!

فقد حدث أن بعض جند أهل خراسان[٣٥] نظر إلى دابة كانت أخذت منه في إحدى الوقعات تحت بعض الزواقيل فتعلق بها، فجرى الأمر بينهما إلى أن اختلفا، واجتمعت جماعة من الزواقيل والجند فتلاحموا وأعان كل فريق منهم صاحبه وتلاطموا وتضاربوا بالأيدي!!

وبعد أن كان الأمر أمر نزاع على خلافة، واقتتال على من هو أحق بالخلافة: الأمين أم المأمون، أصبح الأمر أمر نزاع على دابة، ولا ندري إن كانت حمارة أم بغلة، ومن الأكيد أنها لم تكن فرساً أو جواداً لأن هذين لا يعبر عنهما بالدابة. وصار الاقتتال على من هو أحق بهذه الدابة، الزواقيلي أم الخراساني!!

وإذا كان النزاع على الخلافة وعلى من هو أحق بها يستحق أن تجرد في سبيله السيوف وتجري الدماء، فإن هذا التجمع الكبير قد رأى أن النزاع على الدابة وعلى من هو أحق بها يستحق أيضاً أن تجرد في سبيله السيوف وتجري الدماء!

ولكن التمعّن في روايات الطبري وغيرها يؤدي بنا إلى الإستنتاج بأنّ كلا الاصطلاحين يؤدي إلى المعنى نفسه أو على الأقل أنهما غير مختلفين في المفهوم العام. ونحن في الوقت الذي نعطي العذر للمستشرق دي خويه في الالتباس الذي وقع فيه؛ ذلك لأنّ المصادر العربية الأصلية تزخر رواياتها بالاصطلاحات الغامضة التي تبعث على الالتباس؛ فهناك مثلاً ترادف الاصطلاحين (الأعراب) و(الشراة) والواضح أنه لم يكن كل الأعراب شراة خوارج، ولا كل الخوارج الشراة من البدو والأعراب، إلّا أننا نرى بأن الزواقيل في غالبيتهم عرب من القبائل القيسية المستوطنة في بلاد الشام. فمثلاً: يشير الطبري إلى أنّ جعفراً البرمكي أرسل إلى الشام سنة ١٨٠هـ/٧٩٦ - ٧٩٧م لقمع الاضطرابات ووضع حد للعصبيات القبلية بين القيسية واليمانية «وقتل زواقلهم ومتلصصتهم»، كما وأننا ذكرنا سابقاً بأنّ زعماءهم كانوا عرباً من شيوخ القبائل وزعمائها. إنّ أغلب الظن بأنّ الزواقيل عرب قيسية نصروا الأمين وبقوا بعد مبايعة المأمون ضد السلطة العباسية، ولذلك نَعَتَتْهُمْ السلطة بـ «اللصوصية» وكان لهذا النعت ما يبرّره حيث إنّ هؤلاء البدو كانوا في حالة اقتصادية سيئة. وربما عمدوا إلى السلب والنهب لإقامة أودهم. وبمرور الزمن أصبح اصطلاح الزواقيل اصطلاحاً اجتماعياً أكثر من كونه عنصرياً يدلّ على العرب «الضعفاء» والمعدمين وخاصة القيسية منهم.

(٣٥) إن لورود كلمة جند خراسان هنا دلالة تاريخية كبرى، وهي تؤيد ما ذهبنا ونذهب إليه من رفض فكرة أن الفرس ناصروا المأمون والعرب ناصروا الأمين، وأن كلمة «الخراسانيون» تعني الفرس.

فإذا كان الخراسانيون فرساً ناصروا المأمون، فهذا هو الطبري يخبرنا بأن بين مناصري الأمين جنداً خراسانيين، فالمأمون والأمين يستويان في مناصرة الخراسانيين لهم. فإذا كان المقصود بالخراسانيين هم الفرس فالفرس مع الفريقين، وإذا كان المقصود بالخراسانيين (عرب خراسان) - وهو ما نذهب إليه - فهم أيضاً مع الفريقين.

فبعد التلاطم والتضارب بالأيدي، استعد الأبناء وتهيؤوا وأتى الزواقيل وهم غارّون فوضعوا فيهم السيوف فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وذبحوهم في رحالهم. وتنادى الزواقيل فركبوا خيولهم ولبسوا أسلحتهم ونشبت الحرب بين الفريقين!

ولنترك الآن، مؤقتاً، الزواقيل وخصومهم في حربهم، ونتوجه إلى كلام الطبري، فهو في كلامه الأول يجعل الأعراب في مقابل الزواقيل، أما هنا فهو يجعل الأبناء في مقابل الزواقيل. وقد مر معنا فيما تقدم من الكلام ما المقصود بالأبناء، وهكذا يزداد في ذهننا غموض المقصود بالزواقيل، وسيزداد هذا الغموض بعد كلام يأتي.

عذراً من القارىء إذا شغلنا الخوض في معاني الكلمات عن الخائضين في الدماء فها نحن لا نطيل في خوضنا لنعود إلى المطيلين في خوضهم.

لقد كان الضائع الأكبر في هذا المعمعان هو عبد الملك بن صالح، فهذا الرجل الذي أوهم الأمين بما أوهمه، ومناه النصر بجموع أهل الشام، وهذا الذي أوهم نفسه ومناها قبل أن يوهم الأمين ويمنيه، هذا الرجل وجد نفسه فجأة أمام مشكل الدابة، بعد أن كان أمام مشكل الخلافة، وبعد أن كان جهده منصباً على التفكير بجمع هذه الجموع صار الآن منصباً على التفكير بتفريقها بعضها عن بعض.

فحسب أنه كما وفق في جمعها فسيوفق في تفريقها فبادر بإرسال رسول إلى المتقاتلين يأمرهم بالكف ووضع السلاح!

لقد ظن أنه ـ وهو الذي جمعهم ـ قد أصبح الآمر الناهي فيهم، ولكنهم لما اجتمعوا إليه إنما اجتمعوا طمعاً بما في يديه من مال، وقد حازوا هذا المال. أما الآن فما دام ليس وراء تنفيذ أمره إلّا الهواء، فقد كان أثر أمره عليهم أن قذفوا رسوله بالحجارة ومضوا في اقتتالهم يومهم ذلك قتالاً شديداً. وأكثرت الأبناء القتل في الزواقيل.

وهل أطرف وأفجع في وقت واحد من النهاية التي انتهى إليها عبد الملك، هذا المعد نفسه ليقذف المأمون عن عرش الخلافة، إذا بالذين أعدهم لتولي هذا القذف يقذفون رسوله بالحجارة!

وسنرى في توالي الحوادث أنها انقلبت في سيرها طرائف ممزوجة بالفجائع!

وعبد الملك الذي كان يعتبر نفسه حتى الآن أمير الفريقين إذا بالأحداث تدفعه دفعاً للانحياز إلى أحدهما على الآخر.

ويضطرب علينا فهم حقيقة ما يقصد الطبري حين يقول عن عبد الملك: وأكثرت الأبناء القتل في الزواقيل، فأخبر عبد الملك بكثرة من قتل، وكان مريضاً مدنفاً فضرب بيده

على يد ثم قال: واذلّاه تستضام العرب في دارها ومحلها وبلادها، فغضب من كان أمسك عن الشر من الأبناء.

إن ما يفهم من كلمة الطبري هذا أن عبد الملك غضب لكثرة من قتل الأبناء من الزواقيل فقال ما قال، فهل كان الزواقيل عرباً؟ وهل كان ما ذهبنا إليه من قبل أن المقصود بـ «الأبناء» هم أبناء من قاموا بالدعوة العباسية كان خطأ... وأن المقصود به هم السلالة التي ولدت باليمن من الفرس الذين أرسلهم كسرى الأول أنوشروان لنجدة سيف بن ذي يزن على الأحباش.

هذا ما يفهم من غضب عبد الملك وصراخه: واذلّاه، تستضام العرب في دارها ومحلها وبلادها، وغضب من أمسك عن الشر من الأبناء وانتصروا لجماعتهم كما سنرى.

إن في هذا دلالات عديدة منها أن ذلك الزمن الطويل الذي مضى على تلك السلالة الفارسية في اليمن وتوالدها جيلاً بعد جيل لم يجعلها تندمج في الوسط العربي فتتعرب، بل ظلت معروفة بفارسيتها، ومنها مشاركتها مشاركة فعالة في الأحداث الإسلامية لا سيما العربية منها، وهجرتها من اليمن هجرة جماعية نظير الهجرة العربية للمشاركة في الفتوح وغير الفتوح مما يقتضي قتالاً.

لقد غضب الفريق المحايد من الأبناء من تعصب عبد الملك للزواقيل وجعلهم يتخلون عن حيادهم، وجعل الأمر يتفاقم. فتجمع الزواقيل بالرقة. ويقول الطبري: «واجتمع الأبناء وأهل خراسان بالرافقة»(٣٦).

وهنا نعود إلى التساؤل عن المقصود بأهل خراسان في هذا الكلام؟ فإذا كان المقصود به الفرس، وهو الأرجح، لانضمامهم إلى الأبناء، سلالة الفرس، فمعنى ذلك أن الفرس انقسموا كالعرب بين المأمون والأمين، وأن الزعم بأن الفرس كانوا نصراء المأمون، كما كان العرب نصراء الأمين، هو زعم باطل.

وعندما تكامل الانقسام في الرقة والرافقة وصار الناس بين زواقيل وأبناء، وبدت طلائع الحرب بينهم، وكما نسوا من قبل الخلافة التي اجتمعوا من أجل تقرير مصيرها، واستعاضوا عنها بالدابة، نسوا الدابة، وكما أنه لم يعد يذكر الخلافة ذاكر كذلك لم يعد يذكر الدابة ذاكر، ولا ندري لمن استقر ملك الدابة هل للخراساني أم للزواقيلي؟!!

(٣٦) الرافقة: يقول في **معجم البلدان**: الرافقة بلد متصل البناء بالرقة وهما على ضفة الفرات وبينهما مقدار ثلاثمائة ذراع، ولها ربض بينها وبين الرقة وبه أسواقها. ويقول الطبري: هكذا كانت أولاً، أما الآن فإن الرقة خربت وغلب اسمها على الرافقة وصار اسم المدينة الرقة.

أقول: عندما تكامل الانقسام وبدت طلائع الحرب، بدأت تظهر خفايا النفوس، فقام رجل من أهل حمص موجهاً كلامه إلى أبناء مدينته قائلاً:

يا أهل حمص: الهرب أهون من العطب، والموت أهون من الذل. إنكم بعدتم عن بلادكم وخرجتم من أقاليمكم ترجون الكثرة بعد القلة والعزة بعد الذلة، ألا وفي الشر وقعتم وإلى حومة الموت أنختم. إنا المنايا في شوارب المسودة وقلانسهم. النفير قبل أن ينقطع السبيل وينزل الأمر الجليل ويفوت المطلب ويعسر المذهب ويبعد العمل ويقترب الأجل.

لقد بين هذا الخطيب البليغ الحكيم حقيقة ما كان يرجوه أهل الشام من الاستجابة لعبد الملك، فهم بعد أن انتقل مركز الخلافة من بلادهم، وأصبحت بلادهم مجرد إقليم تابع للعراق، ولم تعد لهم مشاركة في الحكم، أملوا بانتصارهم للأمين أن تكون لهم مكانتهم في مراكز السلطة، ولكن هذا الحمصي الذكي أدرك، بعد أن رأى ما رأى، أن لا أمل في شيء مما توقعوه. لذلك نراه يقول إنهم خرجوا يرجون الكثرة بعد القلة والعزة بعد الذلة. ثم يقول: في الشر وقعتم وإلى حومة الموت أنختم، ثم يطلب إليهم الرجوع إلى بلادهم.

وبعد الخطيب الحمصي قام شاعر كلبي في غرز ناقته وأنشد:

شؤبوب حرب خاب من يصلاها قد شرّعت فرسانها قناها
فأورد اللّه لظى لظاها إن غُمرتْ كلب بها لحاها

ثم أثار فيهم إقليميتهم، وذكّرهم بانكساراتهم أمام الجيوش العباسية قائلاً: يا معشر كلب! إنها الراية السوداء واللّه ما ولت ولا عدلت ولا ذلّ نصرها ولا ضعف وليها، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم وآثار أسنتهم في صدوركم، اعتزلوا الشر قبل أن يعظم وتخطّوه قبل أن يضطرم، شامكم داركم داركم، الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري، ألا وإني راجع فمن أراد الانصراف فلينصرف معي، ثم سار، وسار معه عامة أهل الشام.

وهنا نعود إلى التساؤل عن الحقيقة التي ينتمي إليها المتقاتلون، فهذا الخطيب الكلبي الذي يبدو أن قبيلته كانت تنزل فلسطين يرى أن الموت في فلسطين، خير من العيش في الجزيرة.

ورأينا عبد الملك من قبل يغضب للزواقيل أهل الجزيرة لأنهم عرب. فهل بلغ الأمر بالعرب يومذاك أن يكونوا إقليميين إلى الحد الذي يكره فيه العربيُ الفلسطينيُ العربيَّ الجزريَّ ولدرجة يرى فيها أن الموت بين العرب الفلسطينيين أفضل من الحياة مع العرب الجزريين.

ثم أن يعلن هذا العربي الكلبي الشامي للشاميين أن الشام وحدها دارهم لا دار لهم سواها، فلا الجزيرة، وهي العربية، دارهم ولا العراق العربي دارهم.

ثم يزداد الأمر تشعباً حين نرى أنه بعد أن أخذت الأمور تشتد، جاء رجل من تغلب إلى مالك بن طوق، فقال له: ألا ترى ما لقيت العرب من هؤلاء، انهض فإن مثلك لا يقعد عن هذا الأمر، قد مدّ أهل الجزيرة أعينهم إليك وأملوا عونك ونصرك.

وهكذا يبدو أن الزواقيل الذين يكرهم ويكره بلدهم ذاك العربي الفلسطيني الكلبي هم عرب صرحاء ثم يزداد الأمر وضوحاً حين يرفض مالك بن طوق التدخل فيجيب التغلبي الذي دعاه إلى نصرة العرب الزواقيل قائلاً: واللّه ما أنا من قيسها ولا يمنها ولا كنت في أول هذا الأمر لأشهد آخره، وإني لأشدّ إبقاء على قومي وأنظَر لعشيرتي من أن أعرضهم للهلاك بسبب هؤلاء السفهاء من الجند وجهال قيس، وما أرى السلامة إلّا في الاعتزال.

وهكذا عرفنا أن الزواقيل أهل الجزيرة هم عرب بن قيس.

واشتعلت الحرب بين الزواقيل القيسيِين وبين الأبناء، وقاد الزواقيل نصر بن شبث فأقبل على فرس كميت أغر عليه دراعة سوداء قد ربطهاُ خلف ظهره وفي يده رمح وترس وهو يقول:

فرسان قيس اصمدنّ للموتْ لا تُرهِبنّي عن لقاء الفوتْ
دعي التنحّي بعسى وليتْ

ثم حمل هو وأصحابه فقاتل قتالاً شديداً فصبر له من يسميهم الطبري هنا «الجند» وهم ممن كانوا قد قدموا مع عبد الملك من بغداد مع من قدم معه من الأبناء وكثر القتل في الزواقيل حتى انهزموا وكانت قيادتهم مؤلفة من كل من القادة العرب نصر بن شبث وعمر السلمي والعياش بن زفر.

أما عبد الملك الذي تركناه مريضاً دنفاً، غاضباً للزواقيل، فقد مات في مرضه.

هكذا كانت نهاية الأمل العريض الذي علقه الأمين على دعوة الشاميين لنصرته، وقد أراح الموت عبد الملك من العودة إلى الأمين حاملاً خبر الخيبة!

اضطرابات في بغداد

الحسين علي بن عيسى بن ماهان، هو ابن القائد الذي مر ذكره والذي كان قائد أول جيش أرسله الأمين لإخضاع المأمون فانتهى الأمر بهزيمة الجيش وقتل قائده كما مر.

الحسين هذا هو الذي قام بأمر الأبناء في قتالهم مع الزواقيل، ولما تمت الهزيمة على

الزواقيل صار هو الأبرز في قيادة من قدموا من بغداد من الجند وغيرهم بقيادة عبد الملك، وبعد أن صار الأمر إلى ما صار إليه وفشل مشروع حملة الشام بتلك الصورة المأساوية الدامية، نادى الحسين في الجند للعودة إلى بغداد، وذلك في شهر رجب من سنة ١٩٦هـ، فلما وصلها أعلن تمرده على الأمين ونادى بخلعه وخطب بالجموع التي اجتمعت عليه من الأبناء ذاماً للأمين قائلاً فيه في بعض ما قال: إن طالت به مدة وراجعه من أمره قوة ليرجعن وبال ذلك عليكم وليُعرفن ضرره ومكروهه في دولتكم ودعوتكم فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم وضعوا عزه قبل أن يضع عزكم فواللّه لا ينصره ناصر إلّا خُذل ولا يمنعه مانع إلّا قتل... إلى آخر ما قال.

والحسين هذا هو الصورة الواضحة للبشر في كل زمان. لم ينفع الأمين عنده أن ولى أباه قيادة أكبر جيش سيره، ولا ما أغدقه على أبيه من خير كثير. ولم يستفزه أن أباه قتل بأيدي أجناد المأمون، وأن ثأره هناك عند المأمون وأجناده، بل فكر فرأى أن أمر الأمين في إدبار، وأمر المأمون في إقبال، فليوطد شأنه عند المقبل عليهم الدهر، وليفز لديهم باليد البيضاء مهما كان في ذلك من عقوق وجحود وغدر!

مضى الحسين هذا بمن استجاب له عازمين على خلع الأمين بالقوة، فاصطدموا بخيل من خيول الأمين من الأعراب وغيرهم فاقتتلوا قتالاً شديداً طوال النهار، ثم استطاع الحسين ومن معه هزيمتهم واعتقد أن الأمر تم له. فأقدم في الحادي عشر من رجب سنة ١٩٦هـ على إعلان خلع الأمين وأخذ البيعة للمأمون من غد يوم الاثنين إلى الليل، ومضى يوم الثلاثاء إلى الأمين فدخل عليه فأخرجه من قصر الخلد إلى قصر أبي جعفر فحبسه هناك إلى صلاة الظهر، ثم ساقه مع أمه إلى المدينة.

وفي الصباح انتشر الخبر وكان للأمين أنصاره فماج الناس بعضهم في بعض، وقام محمد بن أبي خالد بباب الشام مستنكراً ما جرى وتوجه إلى الناس قائلاً: بأي سبب يتأمر الحسين بن علي بن عيسى علينا، ويتولى الأمر دوننا، ما هو بأكبرنا سناً ولا أكرمنا حسباً ولا أعظمنا منزلة، وإن فينا من لا يرضى بالدنية ولا يقاد بالمخادعة. وإني أولكم نقض عهده وأظهر التعيير عليه والإنكار لفعله، فمن كان رأيه رأيي فليعتزل معي.

ثم قام أسد الحربي فقال: يا معشر الحربية: هذا يوم له ما بعده، إنكم قد نمتم وطال نومكم وتأخرتم فقدم عليكم غيركم، وقد ذهب أقوام بذكر خلع محمد وأسره، فاذهبوا بذكر فكه وإطلاقه.

ونحن لا نرى في هذين القولين مجرد إخلاص لمحمد الأمين، بل إن هذا الإخلاص

يمازجه الكثير من المنافسة بين الحسين بن علي بن عيسى وبين قائليهما، فهما ينقمان عليه تفرده بالأمر، وينكران عليه تصدره دونهما، ولا يريان له ميزة تجعله صاحب الرأي الحاسم في هذا الموضوع.

وإذا كان الأول منهما يتحدث بدوافعه الشخصية، ولا يخاطب جماعة بعينها، فإن الثاني تكلم بدوافع قبلية وخاطب عشيرته،(الحربية).

ولا ذكر في كلا القولين للأمين، ولا إشادة به، ولا استنكار لخلعه ولا دعوة لنصرته. بل إن كل ما فيهما هو حسد للحسين بن علي، وغضب على ما صار إليه هو وجماعته من النفوذ والسلطة.

على أن هذا لم يكن موقف الجميع، فإن شيخاً كبيراً محنكاً أقبل على فرسه وخاطب الجمهور المجتمع مخاطبة بعيدة عن الأنانية الشخصية والقبلية، وناقش الموقف مناقشة موضوعية بحتة، وشرح الأمر للناس شرحاً منطقياً.

ويظهر أن البلبلة قد وقعت بين الناس المحتشدين نتيجة القولين السابقين، وتعالى صياحهم وضجيجهم، وكثر أخذهم وردهم، فصاح الشيخ بهم: اسكتوا، فسكتوا، فقال: أيها الناس هل تعتدون على محمد بقطع منه لأرزاقكم؟

فقالوا: لا.

قال: فهل قصر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم؟

قالوا: ما علمنا.

قال: فهل عزل أحداً من قوادكم؟

قالوا: معاذ اللّه أن يكون فعل ذلك.

وهكذا فإن هذا الشيخ الحكيم قد طرح الأمر على الجمهور لا طرحاً شخصياً ولا عشائرياً، بل واجه الجمهور بما فيه مصلحة هذا الجمهور، وتساءل عما إذا كان الأمين قد مس هذه المصلحة. وأساء إلى حياة الناس ومعايشهم، أو أضر بالقيادات التي ارتضوها لأنفسهم.

ومن هنا كان الإصغاء لكلام الشيخ والتمعّن فيه.

ولما أجاب الناس الشيخ بما أجابوا، قال:

فما بالكم خذلتموه وأعنتم عدوه على اضطهاده وأسره؟!

وأردف ذلك بقوله محذراً مما يجر سوء مصير الأمين من فتن يكون الشعب ضحيتها:

واللّه ما قتل قوم خليفتهم قط إلّا سلط اللّه عليهم السيف القاتل والحتف الجارف...

ثم صاح بهم: انهضوا إلى خليفتكم ودافعوا عنه وقاتلوا من أراد خلعه والفتك به. فاستجاب الناس له. ويهمنا هنا أن نشير إلى من ذكرهم الطبري من أن المستجيبين كانوا نوعين من الناس، النوع الأول كانت استجابته عشائرية، وهم الحربية الذين كانت استجابتهم في الحقيقة لأميرهم أسد الحربي قبل أن تكون للشيخ الخطيب؛ أما النوع الثاني فقد عبر عنه الطبري بقوله: «ونهضت الحربية ونهض معهم عامة أهل الأرباض» والمقصود بالأرباض هنا: الضواحي.

وفي هذا دلالة بعيدة المغزى، وتسجيل لمواقف الرأي العام من الأحداث المصيرية، وهذا التسجيل هو الذي كان يهمله مؤرخونا الأقدمون، وبذلك لم يكن تاريخنا المسجل في معظمه هو تاريخ الشعب.

على أن كلمة عابرة مثل هذه الكلمة تعرفنا على الكثير مما نود التعرف عليه. إن قول الطبري أن الناهضين لنصرة الأمين هم عامة أهل الأرباض، يدل دلالة واضحة على أن أهل المدينة، (بغداد)، لم يكونوا معنيين بما يجري، وأن الأحداث، على ضخامتها لم تكن تثير اهتمامهم أو تؤلب جمعهم.

فهم منصرفون إلى تجارتهم ومعايشهم لا يبالون إلى من يصير الحكم، ولا بمن يتولى الخلافة. فالمتجمهرون المستعدون للانضمام إلى أحد الفريقين، والذين أصغوا إلى الخطباء الثلاثة هم أهل الأرباض، وهم الذين اقتنعوا أخيراً بصواب ما دعاهم إليه الشيخ الخطيب، فنهضوا بعامتهم إلى القتال مع الأمين.

وأهل الأرباض هم في أغلبهم فلاحون، ومن لم يكن فلاحاً فهو من ذوي الدخل المحدود. وهذه الطبقة من الناس، فلاحين وذوي دخل محدود، هي المتأثرة بمجرى الأحداث سعادة أو شقاء. فلا عجب أن نراهم مجتمعين لتوقع ما يحدث، متألبين لمناصرة من يرون في مناصرته مصلحتهم.

فلما اقتنعوا بكلام الشيخ الخطيب لبوا دعوته وأعلنوا انضمامهم إلى من يقاتل دفاعاً عن خلافة الأمين.

وهؤلاء لم يكن لهم زعامة تقودهم ورياسة يمشون وراءها وإنما هم جمهور شعبي مؤلف من أصناف شتى من الناس.

ولما كان الشيخ الخطيب لم يتصدَّ للقيادة، وكان الخطيب الأول محمد بن أبي خالد لم يكن ذا جماعة ـ كما يُبدو من كلامه ـ فهو لم يتكلم إلّا عن نفسه ولم يخاطب قوماً بعينهم.

وكان الخطيب الثاني أسد الحربي هو وحده صاحب جماعة خاطبها واستفز شعورها، فمشت بقيادته التي كانت القيادة الوحيدة الموجودة في الساحة فاستقطب جمهور الأرباضيين وغير الأرباضيين من المشاركين في التجمهر، وغدا أسد الحربي زعيم الحركة المضادة لحركة الحسين بن علي بن عيسى، فتصدى له، واصطدم الفريقان في قتال عنيف استمر من ارتفاع النهار إلى انكسار الشمس وانتهى بظفر الحركة المضادة وأسر الحسين بن علي بن عيسى، فأسرع أسد الحربي فدخل على الأمين فكسر قيوده وأقعده في مجلس الخلافة.

وسيق الأسير الحسين إلى الأمين فأنّبه وذكره بأياديه على أبيه، فاعترف بذلك وطلب العفو، فأعلن الأمين عفوه عنه، وزاد على ذلك بأن دعاه إلى أن يثأر لأبيه بالذهاب والياً على حلوان وما وراءها. وهكذا رفع منزلته وأعاده إلى مركز القيادة.

والواقع أن المؤرخ يحار في تفسير تصرف الأمين مع هذا الذي خان عهده وألّب الناس عليه وأعلن خلعه وسجنه وأهانه!

أكان الباعث على ذلك تشتت فكر الأمين بحيث أصبح لا يدري ما يفعل، أم شعوره بقلة الأعوان فأراد أن يستزيد منهم حتى ولو كانوا ممن جربهم فبان كفرانهم للنعم ونكرانهم للجميل وغدرهم وخيانتهم، متوهماً أن تذكيره للحسين ابن علي بن عيسى بثأر أبيه سيثير حفيظته على من قتلوا أباه فيذهب لقتالهم.

مهما كانت العوامل التي دفعت الأمين إلى هذا التصرف فهي تدل على الضياع النفسي الذي كان يعيش فيه الأمين في تلك الفترة الحرجة من حياته، وعلى انعدام القيادة الاستشارية الحكيمة التي تخطط وتشير وتوجه. ويبدو أنه منذ انسحاب الفضل بن الربيع وإيثاره العزلة ـ بعد أن ورّط الأمين بما ورطه به ـ لم يجرؤ أحد من أصحاب الفكر والرأي أن يشارك في تحمل مسؤولية قيادة وضع كان يسير من تدهور إلى تدهور، ولم يوجد من هذه الطبقة من يرى أن القضية قضيته لا من وجهة شخصية ولا من وجهة عامة ليغامر في نصرتها حتى الاستشهاد.

والحسين هذا الذي عامله الأمين هذه المعاملة رجع إلى حقيقته فلم يلبث أن وقف على باب الجسر، ثم هرب في جماعة من خدمه ومواليه، فأمر الأمين باللحاق به فلحقته الخيل وأدركته فأبدى شجاعة وثباتاً فائقين، ثم عثر به فرسه فسقط فابتدره مطاردوه طعناً وضرباً، وأخذوا رأسه، وكان ذلك على بعد فرسخ من بغداد.

ولم تتجاوز سيطرة الحسين على بغداد أكثر من أربعة أيام، منها يومان قضاهما الأمين مسجوناً. على أن الغريب في الأمر هو ظهور اسم الفضل بن الربيع فجأة لأول مرة بعد ذاك

الغياب الطويل. فالطبري يقول: وفي الليلة التي قتل فيها حسين بن علي هرب الفضل بن الربيع!

فأين كان الفضل، وهو الذي لم يكن له أي تحرك في الأحداث الماضية؟ وممن هرب وإلى أين هرب؟

ولماذا هرب بعد قتل حسين؟

لم يشر الطبري أية إشارة إلى ما ينير لنا الإجابة على هذه الأسئلة فعلينا أن نستنتج استنتاجاً... إن هربه بمجرد قتل حسين بن علي بن عيسى، يدل على أنه كان ينتظر بعد هذا القتل عقاباً هرب منه. ولماذا ينتظر هذا العقاب إذا لم يكن شريكاً لحسين في تصرفاته؟

فهل يمكن أن يكون هو الذي زيّن لحسين أن يفعل ما فعل، وأن يكون شاركه في تدبير ما دبر من خلع الأمين وسجنه والبيعة للمأمون، اعتقاداً منه بإمكان نجاح هذا التدبير، والقضاء نهائياً على الأمين، وأن يتخذ من هذه المشاركة وسيلة تقربه من المأمون تجعله ينسى الماضي ويكافئه على الحاضر، وأنه بعد فشل حسين وقتله خاف الأمين فهرب؟!

إن معرفتنا بأخلاق الفضل تجعلنا لا نستغرب صدور أي شيء منه، وأن لا نستبعد أبداً غدره بالأمين محاولة منه للتقرب من المأمون!

لقد كان كل شيء مهيّأً لنجاح انقلاب حسين بن علي بن عيسى، فالقوة الوحيدة التي كانت تملكها الدولة هي القوة التي عاد بها حسين من الرقة والمؤلفة من الجند والأبناء، وهي نفسها التي ثار بها قائدها حسين على الدولة وأعلن خلع الأمين الذي لم يجد من يدافع عنه.

ولم يكن في ظن أحد أنه يمكن تجميع قوة شعبية ذات قيادة موحدة تستطيع التغلب على قوة حسين، وقد رأينا أنه لا أسد الحربي ولا محمد بن أبي خالد استطاعا أن يقنعا الجمهور الشعبي المحتشد بتأييدهما لمقاومة تسلط حسين. ولولا حكمة الشيخ الخطيب لما اتفقت الكلمة على الانقلاب المضاد لانقلاب حسين بن علي، ولولا وجود أسد الحربي بجماعته لما أمكن إيجاد قيادة يجتمع عليها الجمهور.

إذاً، فانتصار حسين كان شبه مؤكد، لذلك لا نستبعد أن يكون للفضل بن الربيع يد في تدبير أمر انقلاب حسين.

التقدم إلى بغداد

اتخذ طاهر بن الحسين خطة جديدة هي تقطيع أوصال دولة الأمين لإضعاف مركزيته

واستفرادها، وكان قد تم من قبل الاستيلاء على قزوين وضمها إلى دولة المأمون. فأرسل طاهر حملة إلى الأهواز وسار هو في أثرها فتم الاستيلاء عليها، وأقام فيها طاهر وبعث عماله إلى توابعها، كما ولّى على اليمامة والبحرين وعُمان، ثم اتجه إلى واسط، فكان كلما تقدم يفرّ أمامه حكام المقاطعات فيتقدم بدون مقاومة، حتى قرب من واسط وكان عليها السندي بن يحيى الحرشي والهيثم بن شعبة فحاولا الإعداد للمقاومة والدفاع عنها، ولكنهما كانا منهارين نفسياً. ومن طريف ما يرويه الطبري أن الهيثم أمر صاحب مراكبه أن يسرج له دوابه فقرب إليه فرساً، وكانت أمامه عدة أفراس، فرأى المراكبي التغير والفزع في وجهه، فقال له إن أردت الهرب فعليك بهذه فإنها أبسط في الركض وأقوى على السفر، فضحك الهيثم، وقال: قدم فرس الهرب، فإنه طاهر ولا عار علينا في الهرب منه.

وهكذا فقد كان الإعداد للمقاومة هو إعداد للهرب، فتركا واسطاً وهربا عنها، فدخلها طاهر.

وهكذا نرى أن الانهيار النفسي كان عاماً في الدولة ابتداء من العاصمة وصولاً إلى الأطراف البعيدة.

ثم أرسل طاهر إلى فم الصلح من احتلها، ثم خطا خطوة كبرى فأرسل أحد قواده إلى الكوفة لاحتلالها، وكان عليها العباس بن موسى الهادي، فلما بلغه توجه الجيش إلى الكوفة خلع الأمين وكتب بطاعته إلى طاهر وببيعته للمأمون، ونزلت خيل طاهر فم النيل. وغلب طاهر على ما بين الكوفة وواسط.

واتسع الأمر فكتب المنصور بن المهدي، وكان والياً للأمين على البصرة، إلى طاهر بطاعته، وكذلك بايع والي الموصل للمأمون، وهكذا تم استصفاء كبريات المدن العراقية وما يليها من مدن ومقاطعات.

ولما بلغ الأمين ما جرى في الكوفة حاول تدارك الأمر فأرسل حملة عسكرية لإنقاذ الموقف، فتلقتها في الطريق حملة لطاهر، فاقتتلت الحملتان اقتتالاً شديداً انتهى بانهزام الحملة البغدادية.

فوجه الأمين حملة أخرى كان مصيرها الهزيمة، ثم عزم طاهر على التوجه لاحتلال المدائن وكان فيها جند كثير من خيول الأمين يتولى قيادتهم البرمكي كما يسميه الطبري. وقد تحصن بها وكانت الإمدادات متواصلة إليه، ولا بد هنا من أن نذكر كلام الطبري بنصه لنرى كيف كانت عليه الحالة النفسية العامة.

يقول الطبري: «فلما قرب طاهر من المدائن وكان منها على رأس فرسخين نزل فصلّى

ركعتين وسبّح فأكثر التسبيح، فقال: اللهم إنا نسألك نصراً كنصرك المسلمين يوم المدائن. ثم سيّر مقدمته، وسار بعدها فلما سمع أصحاب البرمكي صوت طبوله أسرجوا الدواب وأخذوا في تعبيتهم، وجعل من في أوائل الناس ينضم إلى أواخرهم. وأخذ البرمكي في تسوية الصفوف، فكلما سوّى صفاً انتقض واضطرب عليه أمرهم. فقال: اللهم إنا نعوذ بك من الخذلان. ثم التفت إلى صاحب ساقته فقال: خلِّ سبيل الناس فإني أرى جنداً لا خير عندهم، فركب بعضهم بعضاً نحو بغداد».

وهكذا سلّمت المدائن بدون قتال، وهي التي «كان فيها جند من خيول الأمين كانت الإمدادات تتوالى إليهم» كما ذكرنا من قبل.

وتقدم طاهر فنزل المدائن، وبنزوله المدائن أصبحت بغداد في شبه حصار.

ويصعب علينا، وبيننا وبين تلك الأحداث تطاول الأزمان، أن نعلل هذا الانهيار العام الذي أصاب مملكة الأمين. وقل أن تصاب أمة من الأمم بمثل ما أصيبت به الأمة المنسوبة يومذاك إلى الأمين. فهذا الجيش الكبير المرابط في المدائن الموصول بالإمدادات المتوالية عليه من بغداد القريبة لا يكاد يسمع دقات طبول جيش طاهر حتى يصاب بالهلع ثم تتقوض صفوفه قبل أن يطلق عليها أي سهم أو يشهر عليها أي سيف، ثم يركب بعضه بعضاً هرباً إلى بغداد!...

وقد قيل هذا القول في كل مكان كانت فيه جيوش للأمين، فمنذ تحرك طاهر من حلوان على حدود العراق حتى وصل إلى أطراف بغداد (المدائن)، ثم امتداداً إلى شمال العراق إلى الموصل، فإلى جنوب العراق إلى البصرة فإلى وسط العراق إلى الكوفة، كان الاستسلام عاماً شاملاً، فإذا كان صوت طبول جيش طاهر قد هزم جيش المدائن فاستسلمت، فإن سماع أخبار هذا الجيش كان كافياً لاستسلام المدن الأخرى.

بيعة المأمون في الحرمين واليمن

وتوالت الفجائع على الأمين فإن واليه على مكة قريبه العباسي انتقض عليه غضباً لغدره بأخيه المأمون ونقضه عهد أبيه الرشيد. إذ لما بلغ والي مكة داود بن عيسى خلع الأمين لأخيه المأمون، وكان الأمين قد كتب إليه يأمره بخلع المأمون والبيعة لابنه موسى. كما كان الأمين قد بعث إلى مكة من أخذ الكتابين اللذين كتبهما الرشيد وعلقهما في الكعبة.

ويجب أن لا ننسى أن أخبار انتصارات طاهر قد وصلت إلى مسامع داود.

لقد عزم والي الأمين على مكة داود بن عيسى على بيعة المأمون فجمع حجبة الكعبة

والقرشيين والفقهاء ومن كان شهد على ما في الكتابين من الشهود، وكان داود أحدهم، وقال لهم: قد علمتم ما أخذ علينا وعليكم الرشيد من العهد والميثاق عند بيت اللّه الحرام حين بايعنا لابنيه لنكونن مع المظلوم منهما على الظالم ومع المبغي عليه على الباغي ومع المغدور به على الغادر، فقد رأينا ورأيتم أن محمداً قد بدأ بالظلم والبغي والغدر على أخويه عبد اللّه المأمون والقاسم المؤتمن وخلعهما وبايع لابنه الطفل وهو رضيع صغير لم يفطم واستخرج الشرطين من الكعبة عاصياً فحرقهما بالنار. وقد رأيت خلعه وأن أبايع لعبد اللّه المأمون بالخلافة إذ كان مظلوماً مبغياً عليه.

فقال له أهل مكة: رأينا تبع لرأيك ونحن خالعوه معك. فوعدهم صلاة الظهيرة، وأرسل في فجاج مكة صائحاً يصيح: الصلاة جامعة. فلما جاء وقت صلاة الظهر خرج داود بن عيسى فصلى بالناس صلاة الظهر، وقد وضع له المنبر بين الركن والمقام فصعد فجلس عليه، وأمر بوجوه الناس وأشرافهم فقربوا من المنبر. وكان داود خطيباً فصيحاً جهير الصوت، فلما اجتمع الناس قام خطيباً فقال:

الحمد للّه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ويذلّ من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له قائماً بالقسط لا إله إلّا هو العزيز الحكيم وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالدين وختم به النبيين وجعله رحمة للعالمين صلى اللّه عليه في الأولين والآخرين. أما بعد يا أهل مكة فأنتم الأصل والفرع والعشيرة والأسرة والشركاء في النعمة، إلى بلدكم نفذ وفد اللّه وإلى قبلتكم يأتم المسلمون، وقد علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هارون رحمة اللّه عليه وصلاته حين بايع لابنيه محمد وعبد اللّه بين أظهركم من العهد والميثاق لتنصرن المظلوم منهما على الظالم والمبغيّ عليه على الباغي والمغدور به على الغادر. ألا وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هارون قد بدأ بالظلم والبغي والغدر وخالف الشروط التي أعطاها من نفسه في بطن بيت اللّه الحرام، وقد حلّ لنا ولكم خلعه من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغي عليه المغدور به. ألا وأني أشهدكم أني قد خلعت محمد بن هارون من الخلافة كما خلعت قلنسوتي هذه من رأسي.

وخلع قلنسوته عن رأسه ورمى بها إلى بعض الخدم تحته وأتى بقلنسوة سوداء هاشمية فلبسها، ثم قال: قد بايعت لعبد اللّه المأمون أمير المؤمنين بالخلافة، ألا فقوموا إلى البيعة لخليفتكم. فبايعوه، وظل يتلقى البيعة أياماً.

وكان داود هذا والياً على مكة، وكانت المدينة تابعة لولايته، فكتب إلى خليفته على

المدينة يأمره أن يفعل بأهل المدينة مثلما فعل هو بأهل مكة من خلع محمد والبيعة لعبد اللّه المأمون، فتم له ما أراد.

ثم وجه طاهر والياً من قبله على اليمن، فدعا هذا الوالي أهل اليمن إلى بيعة المأمون، فبايعوا وخلعوا الأمين.

الإطباق على بغداد

أما الحال في بغداد فإن طاهراً أقام على نهر صرصر(٣٧) أي على بعد فرسخين من بغداد في شبه حالة حصار لبغداد غير مهاجم لها بل رادّاً لهجماتها عليه، وهازماً دائماً لهذه الهجمات التي كانت تحاول إبعاده عن بغداد فلا يتسنى لها ذلك. ويبدو أن الأموال كانت متوافرة لدى الأمين فكان يغدقها على أنصاره، في حين أن خزائن طاهر كانت قليلة المال، فلا يتسنى له الإنفاق إلّا على ما لا بد من الإنفاق عليه من لوازم القتال.

يعتقد الطبري أن ما اشتهر به الأمين من إنفاق الأموال والكسي على الأعوان قد أغرى جماعات من جيش طاهر، فخرج من عسكره نحو من خمسة آلاف رجل من أهل خراسان ومن التف إليهم وانضموا إلى الأمين وأن الأمين سُرّ بهم ووعدهم ومناهم.

ولكنني لا أرى رأي الطبري بأن الرغبة في المال قد حملت هذا العدد الوافر على أن ينفصل عن جيش طاهر ويلتحق بجيش بغداد.

لو كان الأمر كما اعتقد الطبري لكان الأمر أمر شراذم محدودة العدد يلتقي أفرادها مصادفة، أما أن ينطلق هذا العدد الضخم المنتمي إلى منطقة واحدة هي خراسان ـ أن ينطلق هذا الانطلاق المنظم في دفعة واحدة فيعلن ولاءه للأمين، فإن ذلك لا يمكن أن يكون دافعه الرغبة في نيل العطايا، بل إن وراءه فكرة معينة تجمع بين هؤلاء الخمسة الآلاف.

وهذا يدلنا على وجود تيارات متباينة في منطقة خراسان، وأن الاتجاه العام هناك لم يكن كله مع المأمون.

ثم إن إشارة الطبري إلى أن هؤلاء المنشقين كانوا من خراسان يجعلنا نتساءل ماذا يعني كون هؤلاء من خراسان بالذات؟

نحن نقول ما قلناه دائماً: إن النسبة إلى خراسان في العصر العباسي وعند قيام الحركة

(٣٧) قال ياقوت في **معجم البلدان**: صرصر: قريتان من سواد بغداد، صرصر العليا وصرصر السفلى، وهما على ضفة نهر عيسى، وربما قيل نهر صرصر فنسب النهر إليهما، وبين السفلى وبغداد نحو فرسخين.

العباسية، لم تكن تعني أن المنسوب هو فارسي، بل كانت تعني أنه من العرب النازلين خراسان، وأن عرب خراسان هم صانعو الثورة على الحكم الأموي، وأنهم كذلك هم الذين كانوا مادة جيوش المأمون، وأن المأمون لم يستند في تحركه على الفرس.

وهذا لا يعني أن فرس خراسان لم يساهموا في الثورة على الأمويين، ولم يشاركوا في نصرة المأمون، بل يعني أن منهم من ناصر هذا الفريق، ومنهم من ناصر الفريق الآخر.

وهذا الذي نذكره هنا إنما نذكره مجملاً، وقد ذكرناه في مكان آخر مفصلاً مدعوماً بالأدلة التاريخية.

وعلى هذا الرأي فإن هؤلاء الخمسة الآلاف هم من عرب خراسان. ومن لا يؤيد رأينا في هذا ويقول إنهم ماداموا منسوبين إلى خراسان فهم فرس، فهو يؤيد رأينا في أن حركة المأمون لم تكن معتمدة على الفرس بدليل أن خمسة آلاف فارسي خراساني انشقوا عن المأمون وانضموا إلى الأمين.

ونعود إلى الحال في بغداد فنرى أن الأمين قد نشط للعمل موجهاً جماعات من رجاله إلى المناطق غير البعيدة عن بغداد لاستنفار أهلها، ويبدو أن انضمام الخمسة الآلاف إليه قد أطمعه في شق آخرين عن جيش طاهر فأرسل دعاة وجواسيس، ومن يغري رؤساء الجند بالترغيب والإطماع، فأحدث ذلك بعض الأثر، ولكنه أثر لم يطل أمره، فبعد صدام مسلح انهزم البغداديون وانتصر الطاهريون.

واستعمل طاهر نفس السلاح فدس عيونه وجواسيسه ودعاته في صفوف جماعة الأمين مرغّبين مثبّطين فنجحوا في إحداث الشغب فيهم على الأمين.

ويبدو أن الفوضى عمت بغداد حتى ليصف الطبري الحال بهذا القول: ونقب أهل السجون وخرجوا منها وفتن الناس ووثب على أهل الصلاح الدُّعار والشطار فعز الفاجر وذل المؤمن واحتل الصالح وساءت حال الناس.

ويقول عن الحال في معسكر طاهر: إلّا من كان في عسكر طاهر لتفقده أمرهم وأخذه على أيدي سفهائهم وفساقهم واشتد في ذلك عليهم، وغادى القتال وراوحه حتى تواكل الفريقان وخربت الديار...

وجاء موسم الحج فلم يغفل طاهر عن هذا الأمر فأرسل من قبله من حج بالناس ودعا للمأمون بالخلافة، وهو أول موسم دعي له فيه بالخلافة في مكة والمدينة.

وبدخول سنة ١٩٧هـ تقرر إحكام الحصار على بغداد وتولت هذا الحصار ثلاث قيادات: طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وزهير بن المسيب، كل واحد منهم بجيشه في

ناحية من نواحي العاصمة، وتولى زهير نصب المجانيق والعرّادات(٣٨)، وحفر الخنادق، فكان إذا انشغل طاهر من جانبه بالقتال راح هو يضرب بالعرادات من أقبل ومن أدبر، ويفرض ضرائب على السفن وعلى التجار ويشتط في ذلك مما أثار سخطاً عاماً وحمل الناس على الشكاية منه إلى طاهر.

وكما كان زهير يضرب بالمنجنيق والعرادة ضرباً عشوائياً يُقتل به الناس، كذلك عمد الأمين إلى الإيعاز لجماعته بإطلاق المجانيق والعرادات فكانت تقتل المدبر والمقبل.

ومن أدبيات تلك الفترة الرهيبة ما قيل في حرب المجانيق من الجانبين. فقد قال أحد الشعراء من أبيات:

لا تقرب المنجنيق والحجرا فقد رأيت القتيل إذ قبرا

يا صاحب المنجنيق ما فعلت كفاك لم تبقيا ولم تذرا

وقال آخر:

يا رماة المنجنيق كلكم غير شفيق

ما تبالون صديقاً كان أو غير صديق

ويلكم تدرون ما تر مون مُرّار الطريق

رب خود ذات دل وهي كالغصن الوريق

أخرجت من جوف دنيا ها ومن عش أنيق

لم تجد من ذاك بدأ أبرزت يوم الحريق

وتقدم المحاصرون حتى وصلوا أطراف بغداد، ونزل طاهر البستان بباب الأنبار وهو أحد أحياء بغداد، فضاق الأمر على الأمين وعظم ذلك عليه وكان قد نفد ما لديه من مال فأمر ببيع كل ما في الخزائن من الأمتعة وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودارهم.

وبدأ الانسلال من صفوف الأمين، وأخذت قياداته بالتفرق عنه والاستئمان إلى طاهر، وراح كل واحد يسعى إلى مكان في السلطة التي بدا أنها هي المنتصرة، ولم يردّ طاهر أحداً. وبلغ الأمر بمن كانوا يتولون قيادة المقاتلين في هذا الصف أن يتولوا قيادة المقاتلين في الصف الآخر، فسعيد بن مالك مثلاً الذي كان من أركان فريق الأمين، استأمن إلى طاهر، فأمده طاهر بالنفقات والفعلة والسلاح وعهد إليه بحفر الخنادق وحماية الجسور والدفاع والهجوم، فقام بما عهد إليه أحسن قيام، وهو واحد من كثيرين أمثاله.

(٣٨) العرادات: جمع عرادة وهي ما يشبه المنجنيق ولكنها صغيرة.

وكما رافقت الأدبيات حرب المجانيق فقد رافقت الآن ما حل ببغداد بسبب التحارب من خراب وهدم وزوال محاسن فقال أحد الشعراء:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ... ألم تكوني زماناً قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم ... وكان قربهم زيناً من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا ... ماذا لقيت بهم من لوعة البين
استودع اللّه قوماً ما ذكرتهم ... إلا تحدر ماء العين من عيني
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم ... والدهر يصدع ما بين الفريقين

ويقول الآخر:

أتسرع الرحلة إغذاذا ... عن جانبي بغداد أم ماذا
ألم تر الفتنة قد ألفت ... إلى أولي الفتنة شذاذا
وانتقضت بغداد عمرانها ... عن رأي لا ذاك ولا هذا
هدماً وحرقاً قد أبيد أهلها ... عقوبة لاذت بمن لاذا
ما أحسن الحالات إن لم تعد ... بغداد في القلة بغداذا

وتوالى الانسلال إلى طاهر، ويقول الطبري إن علي فراهمرد الموكل بإحدى مناطق الدفاع من قبل الأمين كتب إلى طاهر يسأله الأمان ويضمن أن يدفع ما في يده من تلك الناحية إلى الجسور وما فيها من المجانيق والعرادات إليه. فأرسل إليه طاهر مندوباً من قبله فسلم إليه كل ما كان الأمين وكله به.

وهكذا فإن الانسلال لم يعد يقتصر على انسلال الشخص بنفسه، بل تعدى ذلك إلى تسليم ما وُكِلَ بحفظه بما فيه من سلاح.

على أن الملفت هنا اسم هذا الرجل فهو اسم فارسي، وذلك يؤكد على انقسام الفرس، كانقسام العرب، بين الأمين والمأمون، وعلى عدم اختصاص الفرس بالمأمون واختصاص العرب بالأمين.

ويتبع استسلام هذا الموظف الكبير، استسلام موظف أكبر منه وذو موقع حساس في حكومة الأمين ومن كان غير مداهن في أمره وممن قاتل معه في هذا الحصار أحسن قتال، هو صاحب شرطته محمد عيسى، ويصفه الطبري بأنه كان مهيباً في الحرب.

وقد كان وقع استسلام هذين الرجلين على الأمين وقعاً شديداً أوهن ما كان قد بقي من عزمه وضعضع ما لم يكن قد تضعضع من بأسه واستسلم للأمر الواقع، يتوقع ما يكون.

وتتابع الالتحاق بطاهر فمضى إليه أمثال عبد اللّه بن حميد بن قحطبة الطائي وإخوته وولد

الحسن بن قحطبة ويحيى بن علي بن ماهان وملحم بن أبي العاص، وكاتبه آخرون سراً.

على أن من أسوأ ما جرى هو فقدان هيبة الحكم فانطلق اللصوص والفساق يسلبون الرجال والنساء والضعفاء، مستبيحين كل محرم. وبدأ من يستطيع الخروج من بغداد يخرج منها طلباً للسلامة والأمن.

وفي الجانب الآخر كان طاهر قد أحكم قبضته وحال دون أي إخلال بالأمن، وراح يسهل عبور العابرين إليه من بغداد، فكان من يصل إلى منطقته يجد الحماية والأمن، وكانت النساء الهاربات اللواتي أحكمن إخفاء ما يحملن من ذهب وفضة أو متاع أو بزّ، يظهرن ذلك بمجرد عبورهنّ الحد الفاصل بين الجانبين. وفي ذلك يقول بعض شعراء بغداد:

بكَيتُ دماً على بغدادَ لمّا ... فقدت غُضارة العَيشِ الأنيق
تَبَدّلنا هُموماً من سُرورٍ ... ومن سَعةٍ تبدلنا بضيق
أصابتها من الحساد عينٌ ... فأفنَت أهلها بالمنجنيق
فقَوم أُحرِقوا بالنارِ قسراً ... ونائحةٌ تنوحُ على غريق
وصائحةٌ تنادي واصباحا ... وباكيةٌ لفقدان الشَّفيقِ
وحوارءُ المدامعِ ذاتُ دَلٍّ ... مُضمَّخةُ المجاسد بالخلوق
تفرُّ من الحريقِ إلى انتهابٍ ... ووالِدُها يفر إلى الحريق
وسالبةُ الغزالةِ مقلَتيها ... مضاحكها كلألاءِ البُروق
حيارى كالهدايا مفكراتٌ ... عليهنَّ القلائدُ في الحلوق
يُنادين الشفيق ولا شفيقٌ ... وقد فقد الشقيق من الشقيقِ
وقومٌ أخرجوا من ظلّ دنيا ... متاعُهُم يباعُ بكلّ سوق
ومغتربٌ قريبُ الدارِ مُلقىً ... بلا رأس بِقارعة الطريق
توسَّط من قتالهمُ جميعاً ... فما يدرونَ من أي الفريق
فلا ولدٌ يقيمُ على أبيه ... وقد هرب الصديق بلا صديق
ومهما أنس من شيء تولى ... فإني ذاكرٌ دار الرَّقيقِ

حتى هذا الوقت كان حصار طاهر لبغداد حصاراً عسكرياً قتالياً، فلم يمنع وصول الأقوات إليها، ولا حال بين الاستيراد التجاري إليها والتصدير منها. ولما طال الأمر عليه عمد إلى الحصار الغذائي والاقتصادي وأمسك بجميع الطرق الموصلة إليها، فضاقت الحياة وغلت الأسعار ويئس الناس من الفرج.

وكما يكون في كل الأحداث الهامة المصيرية في كل الأوطان، من وجود جماعات لا يبالون بما يحدث، ولا يهمهم أي فريق انتصر وأي فريق انكسر، كذلك كان الأمر يومذاك، عند حصار بغداد وقيام المعارك الدامية، وتداول النصر بين هذا الفريق وبين ذاك الفريق.

لقد كان هناك أفراد لا بل جماعات لا يرون في هذا الصراع بين الأخوين ما يهمهم، وماذا عليهم إذا انتصر الأمين أو انتصر المأمون، وماذا سيغير انتصار أحدهما وانهزام الآخر من ظروف حياتهم، فهم ضحايا كل حكم، أياً كان صاحب هذا الحكم.

وقد كان بين هؤلاء أناس من أطرف من خلق اللّه، عبروا عن لامبالاتهم بما نظموه من الشعر الذي وصل إلينا بعضه، وإذا كان الذي وصل إلينا هو أخبار فرد أو أفراد، فلا شك أن ما لم يصل إلينا هو أخبار جماعات منتشرة في كل مكان كانت لا تبالي إلّا بأمرها اليومي، وحالها المعاشي.

وفي إحدى الوقعات في هذا الحصار، وهي من الوقعات التي تمشي بالموقف إلى الحسم، والتي يصفها الطبري فيما يصف بقوله:

وقاتل طاهر بباب الكرخ وقصر الوضاح فهزم أصحاب محمد، الأمين، وردوا على وجوههم، ومر طاهر لا يلوي على أحد حتى دخل قسراً بالسيف وأمر مناديه فنادى بالأمان لمن لزم منزله. ووضع بقصر الوضاح وسوق الكرخ والأطراف قواداً وجنداً في كل موضع على قدر حاجته منهم، وقصد إلى مدينة أبي جعفر فأحاط بها وبقصر زبيدة وقصر الخلد من لدن باب الجسر إلى باب خراسان وباب الشام وباب الكوفة وباب البصرة وشاطىء الصراة إلى مصبها في دجلة بالخيول والعدة والسلاح، وثبت على قتال طاهر حاتم بن الصقر والهرش والأفارق، فنصب المجانيق خلف السور على المدينة وبإزاء قصر زبيدة وقصر الخلد ورمى، وخرج محمد، (الأمين)، بأمه وولده إلى مدينة أبي جعفر وتفرق عنه عامة جنده وخصيانه وجواريه في السكك والطرق لا يلوي منهم أحد على أحد.

أمام هذا المصير، وانتظار ما يتوقع من وراء ذلك من نتائج خطيرة، أسرع رجل من المهتمين بهذه الأمور المتابعين لها بدقة، الشاغلين بها أفكارهم ليل نهار، أقبل رجل على حلقة فيها الشاعر عمرو الوراق، حاملاً هذه الأنباء الخطيرة، فكان رد فعل عمرو على ما سمع أن قال: ناولني قدحاً وراح ينشىء الشعر قائلاً:

خذها فللخمرة أسماء لها دواء ولها داء
يصلحها الماء إذا صفقت يوماً وقد يفسدها الماء

وقائل كانت لهم وقعة ... في يومنا هذا وأشياء
فقلت له أنت امرؤ جاهل ... فيك عن الخيرات إبطاء
إشرب ودعنا من أحاديثهم ... يصطلح الناس إذا شاؤوا

يقول راوي الخبر: ودخل علينا آخر فقال: قاتل فلان وأقدم فلان وانتهب فلان، فكان صدى هذا عند هذا الشاعر الطريف الظريف أن أنشد:

أي دهر نحن فيه ... مات فيه الكبراء
هذه السفلة والغو ... غاء فينا أمناء
ما لنا شيء من الأشياء ... إلّا ما يشاء
ضجت الأرض وقد ضجت ... إلى اللّه السماء
رفع الدين وقد ها ... نت على اللّه الدماء
يا أبا موسى لك الخيرات ... قد حان اللقاء
هاكها صرفاً عقاراً ... قد أتاك الندماء

ومن طرائف عمرو هذا أن قال في تلك الأيام:

إذا ما شئت أن تغضب ... جندياً وتستأمر
فقل يا معشر الأجنا ... د قد جاءكم طاهر

على أن هناك طبقة أخرى هي مثل هذه الطبقة لا تبالي ـ في حقيقة أمرها ـ أياً غلب، ولكنها تفترق عن طبقة عمرو الوراق، بأنه ليس لطبقة عمرو ما تخاف عليه، وليكن ما يكون، فالفقر هو الفقر في كلا الحالين والشقاء هو الشقاء.

أما هذه الطبقة الأخرى فإن لها ما تخاف عليه، فهي مع من يحفظ لها مصالحها، ويثبّت ثراءها ولا ينتقص من مواردها، فما دامت المصائر غير واضحة لها، فهي غير مبالية بما يحدث، أما حين يلوح لها أن المنفعة مع هذا، فهي مستعدة للانضمام إليه، وترك ذاك الذي كانت تسالمه.

هذه الطبقة هي طبقة التجار، إذ إنهم حين رأوا أن الكفة بدأت تميل لمصلحة طاهر «مشى بعضهم إلى بعض فقالوا يجب أن نكشف أمرنا لطاهر ونظهر له براءتنا من المعونة عليه، فاجتمعوا وكتبوا كتاباً أعلموه فيه أنهم أهل السمع والطاعة، والحب له لما يبلغهم من إيثاره طاعة اللّه والعمل بالحق والأخذ على يد المريب، وأنهم غير مستحلي النظر إلى الحرب فضلاً عن القتال».

إلى أن ينهوا رسالتهم بقولهم: «وحاش للّه أن يحاربك منا أحد».

والواقع أن رسالة هؤلاء التجار لا تقل في طرافتها عن أشعار عمرو الوراق، فهم يريدون من طاهر أن يصدق أن الذي دفعهم إلى تأييده هو ما يبلغهم من إيثاره طاعة اللّه والعمل بالحق.

على أن هؤلاء التجار لم ينفذوا قرارهم بإرسال الكتاب إلى طاهر، فإن أهل الرأي منهم والحزم قالوا لهم: لا تظنوا أن طاهراً غبي عن هذا وإذكاء العيون فيكم وعليكم حتى كأنه شاهدكم.

ونصحوهم بأن رسالتهم لن يخفى أمرها على من في بغداد، فيخسروا بذلك الفريقين.

وهكذا عدلوا عن إرسال الكتاب.

الناس هم الناس في كل زمان وكل مكان وكل حدث...

وقد ظل عمرو الوراق على طرافته وظرافته مع تتابع المعارك فقال في إحدى تلك المعارك:

ذهبت بهجة بغدا د وكانت ذات بهجه
فلها في كل يوم رجّة من بعد رجه
ضجت الأرض إلى اللّه من المنكر ضجه
أيها المقتول ما أنت على دين المحجه
ليت شعري ما الذي نلت وقد أدلجت دلجه
ألى الفردوس وجهت أم النار توجه
حجر أرداك أم أر ديت قسراً بالأزجه
إن تكن قاتلت براً فعلينا ألف حجه

على أننا نظلم هذا الشاعر إذا اعتبرناه مجرد رجل غير مبال بأحداث وطنه الخطيرة متشاغلاً عنها بحياته الخاصة، فهو لم يكن كذلك في بادىء الأمر ولم يكن هذا من طبيعته، بل رأيناه غير بعيد عن المشاركة فيما يجري، وباعتباره بغدادياً كان منحازاً إلى واقع مدينته المحاصرة، منضوياً إلى عهد المدافعين عنها. ولكن لم يلبث أن تبين له أن ليس وراء هذا قضية يخلص المقاتلون لها، وأن كل إنسان يفتش عن مصالحه وما يستطيع أن يجبر من مغانم.

فقد حدث في إحدى وقعات الحصار أن كان مصير هذه الوقعة على طاهر لا له، وكثر في جماعته القتل والجرح، فأمضّه ذلك وشق عليه، فقام بحملة هدم وإحراق. ويقول الطبري إنها شملت ما بين دجلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة إلى الصراة وأرجاء

أبي جعفر وربض حميد ونهر كرخايا والكناسة، وجعل يُبايت أصحاب محمد، (الأمين)، ويُدالجهم ويحوي كل يوم ناحية بعد ناحية ويخندق عليها المراصد من المقاتلة.

والهدم يومذاك لم يكن كما هو اليوم بوضع المتفجرات في قاعدة البناء حيث تنسفه نسفاً لا يبقي فيه باقية، بل كان بالمعاول. فعندما كان أصحاب طاهر يهدمون بيتاً ويبتعدون عنه، كان أصحاب الأمين يسرعون فينهبون ما في البيت. يقول الطبري: «لقد كان أصحاب طاهر يهدمون الدار وينصرفون فيقلع أبوابها وسقوفها أصحاب محمد، (الأمين)، ويكونون أضرّ على أصحابهم من أصحاب طاهر».

وهذا ما أهاب بهذا الشاعر إلى أن يعتزل الناس وينشغل بنفسه بعد هذه الواقعة التي قال فيها من قصيدة:

لنا كل يوم ثلمة لا نسدها ... يزيدون فيما يطلبون وننقص
إذا هدموا داراً أخذنا سقوفها ... ونحن لأخرى غيرها نتربص
وإن حرصوا يوماً على الشر جهدهم ... فغوغاؤنا منهم على الشر أحرص
فقد ضيقوا من أرضنا كل واسع ... وصار لهم أهل بها وتعرصوا
يُثيرون بالطبل القنيص فإن بدا ... لهم وجه صيد من قريب تقنصوا
لقد أفسدوا شرق البلاد وغربها ... علينا فلا ندري إلى أين نشخص
إذا حضروا قالوا بما يعرفونه ... وإن لم يروا شيئاً قبيحاً تخرصوا

وفي نفس الموضوع قال:

الناس في الهدم وفي الانتقال ... قد عرّض الناس بقيل وقال
يا أيها السائل عن شأنهم ... عينك تكفيك مكان السؤال
قد كان للرحمن تكبيرهم ... فاليوم تكبيرهم للقتال
إطرح بعينيك إلى جمعهم ... وانتظر الرَّوح وعد الليالي
لم يبق في بغداد إلّا امرؤ ... حالفه الفقر كثير العيال
لا أمّ تحمي عن حماها ولا ... خال له يحمي ولا غير خال
ليس له مال سوى مطرَد ... مطرده في كفه رأس مال
هان على اللّه فأجرى على ... كفيه للشقوة قتل الرجال
إن صار هذا الأمر إلى واحد ... صار إلى القتل على كل حال
ما بالنا نُقتل من أجلهم ... سبحانك اللهم يا ذا الجلال

ويبدو جلياً أنه لم يبق في بغداد إلّا كل من لا يستطيع الرحيل. أما هذا الشاعر فقد

أعلن أنه ـ مع استطاعته الرحيل ـ لن يرحل. وهنا بدأ عدم مبالاته بمصائر هذه الحرب، وعدم اهتمامه بما تؤدي إليه من نتائج، فأياً كان الخليفة فإن ذلك لم يعد يعنيه:

ولست بتارك بغداد يوماً ترحّل من ترحّل أو أقاما

إذا ما العيش ساعدنا فلسنا نبالي بعد من كان الإماما

تخيلات وعبر

وقد كان في هذه الحرب ـ كغيرها من الحروب ـ الكثير من العبر، والكثير من تخيلات الناس الوهمية التي تصور لهم الأمور بالصور المشرقة التي لا يخالطها حتى القليل من الضباب، ثم ينجلي الأمر عن كوارث لم يكن في أذهانهم لوقوعها أي احتمال.

فهذه والدة الأمين، (أم جعفر)، التي يتراءى لنا من خلال الحوادث أنها لم تكن بعيدة عن تشجيع ولدها على الغدر بأخيه، أم جعفر هذه، كان في ذهنها أن أمر المأمون لا يحتاج إلّا إلى هبة هواء تكفي لتقويضه، فضلاً عن أن يكون في ذهنها احتمال انتصار المأمون، فها هي توصي قائد الحملة الأولى التي وجهت إلى إخضاع المأمون بقيادة علي بن عيسى بن ماهان، وهي الحملة التي مر ذكرها من قبل، والتي كان عدد رجالها خمسين ألفاً ما بين فارس وراجل، والتي فتحت أمام قائدها بيوت المال وخزائن السلاح، وتركت له اختيار من يشاء من الرجال...

ها هي أم جعفر توصي قائد الحملة بهذه الوصية:

يا علي إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي إليه تناهت شفقتي وعليه تكامل حذري، فإني على عبد اللّه، (المأمون)، منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى. وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه وغاره على ما في يده، والكريم يأكل لحمه ويميته غيره، فاعرف لعبد اللّه، (المأمون)، حق والده وأخوته ولا تجبهه بالكلام فإنك لست نظيره، ولا تقتسره اقتسار العبيد، ولا ترهنه بقيد ولا غل، ولا تمنع منه جارية، ولا خادماً ولا تعنف عليه في السير ولا تساوه في المسير ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه، وإن شتمك فاحتمل منه، وإن سفه عليك فلا تراده.

ثم دفعت إليه قيداً من فضة، وقالت إن صار إليك فقيده بهذا القيد.

على أننا لا ندري كيف نوفق بين قولها لعلي بن عيسى بأن لا يرهن المأمون بقيد ولا غل، وبين إعطائها له قيداً من فضة ليقيد به المأمون، ولعلها ترى أن القيد الحديدي هو القيد المذل، أما إذا كان القيد من فضة فليس فيه إذلال...!

وإذا كان اعتقاد أم جعفر بأن زوال أمر المأمون لا يحتاج إلى أكثر من هبة هواء. فقد تبين أن جيش علي بن عيسى القوي العدة، الكثير العدد، المعقودة عليه هذه الآمال الضخمة، تبين أنه قد انهار بهبة ضعيفة من الهواء!

ولا ندري ما صار إليه أمر القيد الفضي الجميل بعد تلك الهزيمة النكراء التي انتهى إليها الجيش ذي الخمسين ألف فارس وراجل!

أغلب الظن أن من وقع في يده من الجند المنتصرين لم ير حاجة لاستعماله قيداً، بل رآه غنيمة ثمينة!

إن أم جعفر هذه التي كان من مظاهر شفقتها على المأمون أن لا يكون القيد الذي في رجليه قيداً من حديد بل قيداً فضة!...

إن أم جعفر زوجة الرشيد وأم الأمين انتهى أمرها في الدفعة الأولى عند انتصار حركة الحسين بن عيسى الانتصار المؤقت ـ انتهى أمرها إلى أن يأمرها أحد أنصار الحسين هذا بالخروج من قصرها، فلما أبت دعا لها بكرسي وأمرها بالجلوس فيه، فقنعها بالسوط وساءها وأغلظ لها القول فجلست فيه، ثم أمر بها فأدخلت المدينة مع ابنها وولدها.

ثم صارت إلى ما صارت إليه في نهاية الأمر.

نهاية الأمين

تردت أوضاع الأمين ومضت تتردى يوماً بعد يوم، وصار هو موضع استغلال أنصاره وموضع استهداف أعدائه، إنه بين نارين: نار الأنصار ونار الأعداء، فود لو يتخلص من الأنصار ومن الأعداء معاً. فقال مصوراً حاله أوضح تصوير، وذلك عندما ضاق أمره فأمر ببيع ما في الخزائن ليستعين بأثمانه، ولكن ولاتها كتموا ما فيها ليسرقوه، فتضايق عليه حاله وفقد ما كان عنده وطلب الأعوان أرزاقهم، فقال يوماً وقد ضجر مما يرد عليه: وددت أن اللّه عز وجل قتل الفريقين جميعاً وأراح الناس منهم، فما منهم إلّا عدو ممن معنا وممن علينا. أما هؤلاء فيريدون مالي وأما أولئك فيريدون نفسي.

وتظل الطرائف ترافق المآسي، فلما انحصر الأمين داخل المدينة هو ومن بقي معه، وأخذ طاهر عليه الأبواب، ومنع عن المحاصرين الدقيق والماء وغيرهما، ضاق صدر الأمين فأراد أن يفرّج من الضيق الذي هو فيه، فخرج ذات ليلة من القصر إلى قرن الصراة أسفل من قصر الخلد، ثم أرسل إلى إبراهيم بن المهدي أن يأتيه، ويحدث إبراهيم فيقول:

قال لي: يا إبراهيم أما ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر في السماء وضوءه في الماء؟!

أقول: يا لهذي النفس الشاعرية التي لم يشغلها ما هي فيه عن التأثر بجمال الطبيعة... عن طيب الليل الساجي عن حسن القمر في السماء وضوئه في الماء... ماء دجلة.

ولا عن صوغ هذا التأثر بجمل رقيقة عذبة، تبرزها أدباً عالياً، ولا عن تزيين تلك الجمل بالسجع الأنيق!

وإذا كان صاحبنا الشاعر الذي تقدم ذكره، عمرو الوراق، قد أصغى لمن نقل إليه أخبار الحرب من نصر وهزيمة وقتل وجرح، وما ستؤول إليه من مصائر تغير وجه التاريخ ـ أصغى إلى ذلك، ثم انطلق في لامبالته منشداً الشعر مرتشفاً الكأس...

فإن صاحبنا الخليفة الذي يجري كل ما يجري من أجله، لم يكن أقل لامبالاة ولا أقل طرافة من عمرو الوراق.

فالمنظر الشاعري على ضفاف دجلة في تلك الليلة الأضحيانة إذا لم ينطقه بالشعر فقد أنطقه بالنثر، وكما كان ترشف الكأس عند عمرو الوراق هو أبلغ جواب لناقل الأخبار المريعة، كذلك كان الأمر عند محمد الأمين، فبعد أن وصف الطبيعة بما وصف قال لجليسه إبراهيم بن المهدي: هل لك في الشرب؟!

فقال له إبراهيم: شأنك جعلني اللّه فداك!

ويجب أن لا ننسى أن إبراهيم هذا كان من أشهر المغنين في عصره...

فإذا كانت طبيعة الموقف تقضي بأن يكون إلى جانب الأمين في تلك الساعة قائد عسكري يتداول وإياه خطط الدفاع، فقد كان إلى جانبه مغنٍّ فنان!

وإذا كان هذا المغني قد هتف بالأمين: شأنك جعلني اللّه فداك! فقد كان الأمين في موقف يستطاب فيه أن يسمع هذه الاستجابة، لكن لا على أن تكون لدعوة على الشراب، ولا من فم مغن، بل لدعوة إلى الاستجابة في الدفاع، ومن فم قائد عسكري!

ويستمر إبراهيم بن المهدي في رواية ما حدث:

فدعا، (الأمين)، برطل نبيذ فشربه، ثم أمر فسقيت مثله. قال: فابتدأت أغنيه من غير أن يسألني لعلمي بسوء خلقه، فغنيت ما كنت أعلم أنه يحبه، فقال لي ما تقول فيمن يضرب عليك؟ فقلت: ما أحوجني إلى ذلك. فدعا بجارية متقدمة عنده يقال لها ضعف.

وهنا تبدأ سلسلة عجيبة مركبة من خليط من الطرائف والمفارقات والمآسي والمهازل والغرائب، تتمم ما مر من شاعرية ولامبالاة واستهتار وشرب وتغذية وغناء!...

يقول إبراهيم إنه عندما سمع أن اسم الجارية هو ضعف، تطيَّر من اسمها وهم في تلك الحال التي هم عليها.

ولكن إبراهيم لم يتنبه إلى أن أفضل ما ينطبق في تلك الحال هو: الضعف، وأن للأقدار أحياناً من التصاريف ما هو من أعجب العجائب، ومنها هذا الذي يجري الآن لهذا الخليفة الذي أثار غَدْرُهُ بأخيه قضية تحتاج إلى عزم الرجال وصمودهم كصمود الجبال، وتحتاج إلى منادمة الأبطال واقتحام الأهوال!... فإذا به أمامها على ما رأيناه من حال!

فإذا بالأقدار تصرخ في وجهه: ضعف.

وتتابع حلقات السلسلة: يقول إبراهيم فلما صارت الجارية بين يدي الأمين قال لها: تغنّي، فغنت بشعر النابغة الجعدي:

كليب لعمري كان أكثر ناصراً وأيسر ذنباً منك ضُرج بالدم

هذه الجارية كغيرها من الجواري المغنيات يومذاك لابصر لها بالشعر ومعاني الشعر ومناسبات الشعر. وكل ما لديها من ذلك أن لها من يختار لغنائها الشعر الجيد فتستظهره ملحّناً وتغنيه دون أن تعي ما يعني.

ولكن الأقدار تعي ما يعني الشعر فقذفت هذا البيت في وجه الأمين.

يقول إبراهيم: فاشتد ما غنت به عليه وتطير منه، وقال لها غني غير هذا.

الأقدار! ومن يجرؤ على معاندة الأقدار؟! لقد قررت الأقدار أن تأخذ بخناق الأمين فغنت الجارية التي لم تكن تدري ما الذي أوجب غضب الأمين من البيت الذي غنته فأمرها أن لا تكمل الأبيات وأن تنتقل إلى غيرها. ولما لم تكن تدري السبب، ولما كانت الأقدار هي التي تدفعها، فقد انطلقت تغني:

أبكى فراقهم عيني وأرّقها إن التفرق للأحباب بكّاء
ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا وريب الدهر عدّاء

فقال لها الأمين: لعنك اللّه أما تعرفين من الغناء شيئاً غير هذا؟!

فتحيرت المسكينة فأجابته: يا سيدي ما تغنيت إلّا بما ظننت أنك تحبه وما أردت ما تكرهه، وما هو إلّا شيء جاءني، ثم أخذت في غناء آخر:

أما ورب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشَّرَكِ
ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء في الفلك
إلّا لنقل النعيم من ملك عان بحب الدنيا إلى ملك
وملك ذي العرش دائم أبداً ليس بفان ولا بمشترك

فقال لها قومي غضب اللّه عليك، فقامت، وكان له قدح بلور حسن الصنعة، كان موضوعاً بين يديه، فقامت الجارية منصرفة فتعثرت بالقدح فكسرته!

فقال الأمين لإبراهيم: ما أظن أمري إلّا وقد قرب.

فما استتم الكلام حتى سمعنا صوتاً من دجلة: قضي الأمر الذي فيه تستفيان، فقال يا إبراهيم ما سمعتَ فقال إبراهيم: لا واللّه ما سمعت شيئاً، وكنت قد سمعت.

فوثب من مجلسه ذاك مغتماً، ثم ركب فرجع إلى موضعه بالمدينة، فما كان بعد هذا إلّا ليلة أو ليلتان حتى حدث ما حدث من قتله. وذلك لأربع خلون من شهر صفر سنة ١٩٨هـ ولأربع عشرة شهراً منذ ثارت الحرب مع طاهر بن الحسين إلّا اثني عشر يوماً. وبلغ من العمر ٢٨ سنة وكانت ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وثلاثة أيام. ونرى هنا أن نأخذ نص ما ذكره ابن الأثير عن مقتل الأمين. وابن الأثير أخذه عن الطبري، كما فعل في جميع الأحداث التي مرت قبل عصره. نأخذ النص لأنه أبلغ في الأداء.

قال ابن الأثير: لما دخل محمّد، (الأمين)، إلى مدينة المنصور، واستولى طاهر على أسواق الكرخ وغيرها، وقرّ بالمدينة، علم قوّاده وأصحابه أنّهم ليس لهم فيها عدّة الحصر، وخافوا أن يظفر بهم طاهر، فأتاه محمّد بن حاتم بن الصقر، ومحمّد بن إبراهيم بن الأغلب الإفريقي، وغيرهما، فقالوا: قد آلت حالنا إلى ما ترى، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك، فانظر فيه واعتزم عليه، فإنّا نرجو أن يجعل اللّه فيه الخيرة.

قال: وما هو؟

قالوا: قد تفرّق عنك النّاس، وأحاط بك عدوّك، وقد بقي معك من خيلك سبعة آلاف فرس من خيارها، فنرى أن تختار ممّن عرفناه بمحبّتك من الأبناء سبعة آلاف، فتحملهم على هذه الخيل، وتخرج ليلاً على باب من هذه الأبواب، فإنّ اللّيل لأهْلِهِ، ولن يثبت لنا أحد إن شاء اللّه تعالى، فنخرج، حتى نلحق بالجزيرة والشام، فنفرض الفروض، ونجبي الخراج، ونصير في مملكة واسعة ومُلك جديد، فيسارع إليك النّاس، وينقطع عن طلبك الجند ويُحدث اللّه أموراً.

فقال لهم: نِعم ما رأيتم! وعزم على ذلك، وبلغ الخبر إلى طاهر، فكتب إلى سليمان بن المنصور، ومحمّد بن عيسى بن نهيك، والسنديّ بن شاهك: واللّه لئن لم تردّوه عن هذا الرأي لا تركتُ لكم ضيعة إلّا قبضتُها، ولا يكون لي همّة إلّا أنفسكم.

فدخلوا على الأمين، فقالوا له: قد بلغنا الذي عزمت عليه، فنحن نذكّرك اللّه في نفسك، إنّ هؤلاء صعاليك. وقد بلغ بهم الحصار إلى ما ترى، فهم يرون أن لا أمان لهم عند أخيك، وعند طاهر، لجدّهم في الحرب، ولسنا نأمن إذا خرجت معهم أن يأخذوك أسيراً، أو يأخذوا رأسك، فيتقرّبوا بك ويجعلوك سبب أمانهم، وضربوا فيه الأمثال؛ فرجع إلى

قولهم، وأجاب إلى طلب الأمان والخروج، فقالوا له: إنّما غايتك السلامة، واللّهو، وأخوك يتركك حيث أحببتَ، ويفردك في موضع ويجعل لك فيه كلَّ ما يُصلحك، وكلَّ ما تحبُّ وتهوى، وليس عليك منه بأس ولا مكروه. فركن إلى ذلك، وأجاب إلى الخروج إلى هرثمة ابن أعين(٣٩).

فدخل عليه أولئك الذين أشاروا بقصد الشام، وقالوا: إذا لم تقبلْ ما أشرنا به عليك، وهو الصواب، وقبلت من هؤلاء المداهنين، فالخروج إلى طاهر خير لك من الخروج إلى هرثمة؛ فقال: أنا أكره طاهراً، لأنّي رأيتُ في منامي كأنّي قائم على حائط من آجر شاهق في السماء، عريض الأساس، لم أرَ مثله في الطول والعرض، وعليّ سوادي، ومَنطقي، وسيفي، وكان طاهر في أصل ذلك الحائط، فما زال يضربه حتى سقط، وسقطت، وطارتْ قلنسوتي عن رأسي، فأنا أتطيّر منه، وأكرهه، وهرثمة مولانا، وهو بمنزلة الوالد، وأنا أشدّ أنساً به وثقةً إليه.

فأرسل يطلب الأمان، فأجابه هرثمة إلى ذلك، وحلف له أنّه يقاتل دونه إن همّ المأمون بقتله، فلمّا علم ذلك طاهر اشتدّ عليه، وأبى أن يدعه يخرج إلى هرثمة، وقال: هو في جندي والجانب الذي أنا فيه، وأنا أحرجته بالحصار، حتى طلب الأمان، فلا أرضى أن يخرج إلى هرثمة فيكون له الفتح دوني.

فلمّا بلغ ذلك هرثمة والقواد اجتمعوا في منزل خزيمة بن خازم، وحضر طاهر وقواده، وحضر سليمان بن المنصور، والسندي، ومحمد بن عيسى بن نهيك، وأداروا الرأي بينهم، وأخبروا طاهراً أنّه لا يخرج إليه أبداً، وأنّه إن لم يجب إلى ما سأل لم يؤمن إلّا أن يكون الأمر مثله أيام الحسين بن عليّ بن عيسى بن ماهان. وقالوا له: إنّه يخرج إلى هرثمة ببدنه، ويدفع إليك الخاتم، والقضيب، والبردة، وذلك هو الخلافة، فاغتنم هذا الأمر ولا تُفسده! فأجاب إلى ذلك ورضي به.

ثمّ إنّ الهرش لما علم بالخبر أراد التقرّب إلى طاهر، فأخبره أنّ الذي جرى بينهم مكر، وأنّ الخاتم والقضيب والبردة تحمل مع الأمين إلى هرثمة، فاغتاظ منه، وجعل حول قصر أمّ الأمين، وقصور الخلد، قوماً معهم العتل، ولم يعلم بهم أحد؛ فلمّا تهيّأ الأمين للخروج إلى هرثمة، عطش قبل خروجه عطشاً شديداً، فطُلب له في خزانة الشراب ماء، فلم يوجد، فلمّا أمسى، ليلة الأحد، لخمس بقين من محرّم سنة ثمان وتسعين ومائة، خرج بعد العشاء الآخرة إلى صحن الدار، وعليه ثياب بيض، وطيلسان أسود، فأرسل إليه هرثمة: وافيت

(٣٩) كان هرثمة يحاصر بغداد من جانب آخر.

للميعاد لأحملك، ولكني أرى أن لا تخرج الليلة، فإني قد رأيت على الشطّ أمراً قد رابني، وأخاف أن أغلب، وتؤخذ من يديّ. وتذهب نفسك ونفسي، فأقِم اللّيلة حتى أستعدّ وآتيك اللّيلة القابلة، فإن حوربت حاربت دونك.

فقال الأمين للرسول ارجع إليه، وقل له لا يبرح، فإنّي خارج إليه الساعة لا محالة، ولستُ أُقيم إلى غدٍ.

وقلق، وقال: قد تفرّق عني الناس من الموالي والحرس وغيرهم، ولا آمن إن انتهى الخبر إلى طاهر أن يدخل عليّ فيأخذني؛ ثمّ دعا بابنيه، فضمهما إليه، وقبّلهما، وبكى، وقال: أستودعكما اللّه، عزّ وجل، ودمعت عيناه، فمسح دموعه بكمّه، ثم جاء راكباً إلى الشطّ، فإذا حرّاقة هرثمة، فصعد إليها.

فذكر أحمد بن سلّام، صاحب المظالم، قال: كنتُ مع هرثمة في الحراقة، فلمّا دخلها الأمين قُمنا له، وجثا هرثمة على ركبتيْه، واعتذر إليه من نقرس به، ثم احتضنه، وضمّه إليه، وجعله في حجره، وجعل يقبّل يديه ورجليه وعينيه، وأمر هرثمة بالحرّاقة أن تدفع، إذ شدّ علينا أصحاب طاهر في الزواريق، وعطعطوا، ونقبوا الحرّاقة، ورموهم بالآجر والنشّاب، فدخل الماء إلى الحرّاقة، فغرقت، وسقط هرثمة إلى الماء، وسقطنا، فتعلّق الملّاح بشعر هرثمة فأخرجه، وأمّا الأمين فإنّه لما سقط إلى الماء شقّ ثيابه وخرج إلى الشطّ، فأخذني رجل من أصحاب طاهر، وأتى بي رجلاً من أصحاب طاهر، وأعلمه أنّي من الذين خرجوا من الحرّاقة، فسألني من أنا؟ فقلت: أنا أحمد بن سلّام، صاحب المظالم، مولى أمير المؤمنين، قال: كذبت، فأصدقني! قلتُ: قد صدقتُك. قال: فما فعل المخلوع؟ قلتُ: رأيته وقد شقّ ثيابه؛ فركب، وأخذني معه أعدو، وفي عنقي حبل، فعجزت عن العدو، فأمر بضرب عنقي، فاشتريت نفسي منه بعشرة آلاف درهم، فتركني في بيت، حتى يقبض المال، وفي البيت بواريّ وحصر مدرجة ووسادتان.

فلمّا ذهب من الليل ساعة، وإذا قد فتحوا الباب، وأدخلوا الأمين، وهو عريان، وعليه سراويل، وعمامة، وعلى كتفه خرقة خلقة، فتركوه معي، فاسترجعت وبكيت فيما بيني وبين نفسي؛ فسألني عن اسمي فعرّفته، فقال: ضمّني إليك، فإنّي أجد وحشة شديدة. قال: فضممتُه إليّ: وإذا قلبه يخفق خفقاً شديداً؛ فقال: يا أحمد! ما فعل أخي؟ قلتُ: حيٌّ هو. قال: قبّح اللّه بريدهم، كان يقول: قد مات شبه المعتذر من محاربته؛ فقلتُ: بل قبّح اللّه وزراءك؛ فقال: ما تراهم يصنعون بي، أيقتلونني أم يفون لي بأمانهم؟ فقلت: بل يفون لك.

وجعل يضمّ الخرقة على كتفه، فنزعت مبطّنة كانت عليّ، وقلتُ: ألق هذه عليك!

فقال: دعني، فهذا من اللّه، عزّ وجلّ، في مثل هذا الموضع خير كثير.

فبينما نحن كذلك، إذ دخل علينا رجل، فنظر في وجوهنا، فاستثبتها، فلمّا عرفته انصرف، وإذا هو محمّد بن حميد الطاهري، فلمّا رأيته علمتُ أنّ الأمين مقتولٌ؛ فلمّا انتصف اللّيل فُتح الباب، ودخل الدار قومٌ من العجم معهم السيوف مسلولة، فلمّا رآهم قام قائماً، وجعل يقول: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، ذهبتُ، واللّه، نفسي في سبيل اللّه. أمّا من مُغيث، أما من أحد من الأبناء؟[٤٠].

وجاؤوا، حتى وقفوا على باب البيت الذي نحن فيه، وجعل بعضهم يقول لبعض: تقدم، ويدفع بعضهم بعضاً، وأخذ الأمين بيده وسادة، وجعل يقول: ويحكم! أنا ابن عم رسول اللّه[٤١] أنا ابن هارون، أنا أخو المأمون، اللّه اللّه في دمي.

فدخل عليه رجلٌ منهم فضربه بالسيف ضربة وقعت في مقدّم رأسه، وضربه الأمين بالوسادة على وجهه، وأراد أن يأخذ السيف منه، فصاح: قتلني! قتلني! فدخل منهم جماعة. فنخسه واحد منهم بالسيف في خاصرته، فركبوه، فذبحوه ذبحاً من قفاه، وأخذوا رأسه، ومضوا به إلى طاهر، وتركوا جثّته.

فلمّا كان السَّحر أخذوا جثّته، فأدرجوها في جُلّ وحملوها، فنصب طاهر الرأس على برج، وخرج أهل بغداد للنظر، وطاهر يقول: هذا رأس المخلوع محمّد.

فلمّا قتل ندم جند بغداد وجند طاهر على قتله، لما كانوا يأخذون من الأموال.

ولما قُتل الأمين نودي في الناس بالأمان، فأمن النّاس كلّهم، ودخل طاهر المدينة يوم الجمعة، فصلّى بالناس، وخطب للمأمون، وذمّ الأمين.

ولما قُتل الأمين قال إبراهيم بن المهدي يرثيه:

عُوجا بمغني طلل داثر	بالخُلد ذات الصخر والآجر
والمرمر المسنون يُطلى به	والباب باب الذّهب الناضر
عوجا بها فاستَيْقِنا عندها	على يقين قدرة القادر
وأبلغا عنّي مقالاً إلى	المولى على المأمور والآمر
قولا له يا بن ولي الهدى	طهر بلاد اللّه من طاهر

(٤٠) استنجاد الأمين ـ وهو في محنته ـ بالأبناء يدل أن المقصود بكلمة الأبناء فيما تقدم من القول هو سلالة أوائل الداعين لنصرة الدولة العباسية وأنها اختصار لجملة أبناء الدعوة.

(٤١) يستطيع المؤرخ أن يرد على الأمين من وراء العصور: إذا كان هؤلاء لم يردعهم عنك انتسابك إلى عم رسول اللّه، فإن أسلافك لم يرتدعوا عن أن يقتلوا أبناء رسول اللّه(ص).

لم يكفه أن حزَّ أوداجه ذبح الهدايا بمُدى الجازر
حتى أتى يسحبُ أوصاله في شطنٍ، بغى مدى الشابر
قد برّد الموت على جنبه فطرفُهُ منكسر النّاظر

أصداء الفجيعة

لما بعث طاهر بن الحسين برأس الأمين إلى مرو لم يملك الفضل بن سهل نفسه من البكاء وقال: «سلّ علينا، (طاهر)، سيوف الناس وألسنتهم. أمرناه أن يعث به أسيراً فبعث به عقيراً».

أما المأمون فتجلد وقال للفضل: قد مضى ما مضى.

لقد كان الموقف يومذاك يقتضي التجلد، ولكن المأمون أسرَّها في نفسه، وكتم أحزانه وحبس دموعه. ولم يستطع كر الأيام وتوالي السنين أن ينسيه الفجيعة.

والحدث الذي سنذكره هنا متأخر كثيراً عما يجب أن نذكره من أحداث ما بعد قتل الأمين، ولكن لارتباطه بقتل الأمين قدمنا ذكره.

من أحداث سنة ٢٠٥ هـ أن المأمون بعد انتقاله من مرو إلى بغداد واستقراره فيها، كان في مجلس أنس بين خاصته إذ استأذن عليه طاهر بن الحسين فأذن له، فلما جلس بكى المأمون وتغرغرت عيناه، فقال له طاهر: يا أمير المؤمنين لِمَ تبكي لا أبكى اللّه عينيكَ، فواللّه لقد دانت لك البلاد وأذعن لك العباد وصرت إلى المحبة في كل أمرك؟! فقال المأمون: أبكي لأمر ذكره ذل وستره حزن، ولن يخلو أحد من شجن... وأردف ذلك بقوله لطاهر: تكلم بحاجة إن كانت لك.

والذي دعا المأمون لأن يطلب إلى طاهر أن يتكلم بحاجته، هو أن طاهراً قد جاء إلى المأمون في وقت لم يكن من الأوقات المخصصة للزيارات، فأيقن المأمون أن له حاجة حملته على المجيء إليه في هذا الوقت، لذلك قال للحاجب الذي استأذن لطاهر عليه: إنه ليس من أوقاته، ائذن له.

وبالفعل فقد تبين أن لطاهر حاجة، جاء في مثل هذا الوقت لطلب قضائها من المأمون.

ولكن الأمر الغريب هو أن يبكي المأمون في مجلس أنسه بمجرد أن جلس طاهر أمامه، ثم إنه لا يمهل طاهراً ليعرض حاجته رأساً بدون سؤال من المأمون، بل بادره بأن يعرض حاجته، كأنما يطلب إليه أن لا يطيل إقامته في مجلس أنسه لئلا يطول تنغيصه له في هذا المجلس الذي كان بكاؤه فيه أشجى مظاهر التنغيص.

فلما عرض طاهر حاجته قضاها له المأمون في الحال، ثم مضى طاهر لشأنه. ولم يكن ليفوت طاهراً أن وراء بكاء المأمون أمراً لا يمكن تجاهله، وأن لهذا الأمر علاقة به، وأن عليه أن يتحرى عن السبب الباعث على البكاء...

وكان للمأمون خادم اسمه حسين له به كبير اختصاص وله عليه دالة، فذهب إليه طاهر ودفع له مئتي ألف درهم ليسأل المأمون لِم بَكى.

فلما تغدى المأمون قال يا حسين: اسقني. فقال حسين لا واللّه لاسقيتك أو تقول لي لِم بَكيت حين دخل عليك طاهر؟

قال: يا حسين وكيف عنيت بهذا حتى سألتني عنه؟

قال: لغمي بذاك.

قال: يا حسين هو أمر إن خرج من رأسك قتلتك.

قال: يا سيدي ومتى أخرجت لك سراً؟

قال: إني ذكرت محمداً أخي وما ناله من الذلة فخنقتني العبرة فاسترحت إلى الإفاضة، ولن يفوت طاهراً مني ما يكره.

هذا الخادم الذي أباح له المأمون الإدلال عليه، والذي أعطاه من نفسه ما أعطى، وائتمنه على أسراره حتى ليسأله عن أخص خصائص عواطفه، والذي جعل له الخليفة من المنزلة إلى حد يقول له معه: واللّه لاسقيتك أو تقول لي لِمَ بكيت.

هذا الخادم لم يبال أمام إغراء المال أن يخدع مخدومه وأن يفشي سره! لقد كانت المئتا ألف درهم عند هذا الإنسان ثمناً أرفع من الأمانة وأغلى من الوفاء وأعظم من الصدق!

الناس هم الناس! وليس حسين هذا بدعاً في الناس!

أسرع حسين إلى طاهر فنقل إليه السر الخطير!

وخطورته في أن إفشاءه سيفسد على المأمون ما قد يدبر لطاهر من المكروه... ثم ما سيترتب على حذر طاهر وتوقعه الغضب من محاذير ستؤثر في كيان الدولة كما سنرى...

المال سيد كبار السادة فكيف لا يكون سيد صغار الخدم. وحرص هذا الخادم على كسب المال أدى إلى حركة انفصالية في جسم الدولة، سنمر بها في الآتي من القول.

على أننا الآن وقد آثرنا تقديم هذا الحدث نرى أن من حق المأمون علينا أن نتوقف قليلاً قبل إتمام قصّ ما اتخذ طاهر من تدابير لوقاية نفسه من المكروه الذي أسر به المأمون لخادمه حسين وأفشى حسين سره لطاهر.

نقف قليلاً أمام سمو هذا الرجل السامي الخلق، المتفرد بصفات من الإخلاص للأمة، والمتحلي بأشرف العواطف الإنسانية.

لقد عرفنا الملوك قبل المأمون وبعد المأمون لا يبالون أن يقتلوا بأيديهم لا إخوتهم فقط بل أبناءهم إذا حسوا منهم طمعاً بما في أيديهم، والأمثلة على ذلك عديدة في التاريخ لا داعي للاستشهاد بها. وأقرب مثل لعصر المأمون هو عمه موسى الهادي الذي كان عازماً على قتل أخيه الرشيد.

أما هذا الملك النبيل، أما المأمون فقد كان المعتدى عليه المغدور به، المهدد بأن يسلب منه كل شيء.

لم يكن في ذهنه أن طاهراً يقدم على قتل الأمين، وكل ما كان يتوقعه في حال ظفر طاهر، أن يحمل إليه أخاه فيحله في مقره أكرم محل، فيعيش معززاً مكرماً. ولكن طاهراً تعدى طوره فقتل الأمين.

لقد نسي المأمون ما أراد به الأمين من الشر وما ساق إليه من الجيوش، وما قصد إليه من الهوان. ولم يذكر إلّا أن الأمين أخوه، أخوه الذي أذله طاهر ثم قتله، وقد فعل طاهر ذلك وهو يعزز أمر المأمون ويدفع عنه الشر ويعيد إليه الحق ويبني له ملكاً، أي ملك.

لقد كان المأمون في مجلس الأنس، فما إن وقعت عينه على طاهر حتى استحال الأنس حزناً مريراً ودمعاً غزيراً، لم يشفع لطاهر عنده ما شاد له من مجد وما أقام من سلطان وما أعاد من حق!

وأين كل ذلك من تذكر ذل الأخ على يدي طاهر ودمه المراق بسيوف طاهر!

هذا هو المأمون في إنسانيته المثلى! هذا هو المأمون الذي ينسى في شخصه الملك الحاكم المسيطر، ولا يرى إلّا أنه الإنسان الشفوق العطوف. فإذا كان طاهر قد جعل منه ذلك الملك الحاكم المسيطر، فهو غير مستطيع أن يذيب في كيانه الإنسان الشفوق العطوف، وحين تتصادم في شخصه الحالتان، فالمهزومة المتوارية هي حالة الحكم والسيطرة والملك، والمنتصرة الخالدة هي حالة الإشفاق والعطف والحنان...!

هال طاهراً ما عرفه من سبب بكاء المأمون، فكان عليه أن يعمل على أن يكون بعيداً عنه، فمضى إلى أحمد بن أبي خالد طالباً إليه أن يجد وسيلة تبعده عن المأمون، قائلاً له: غيّبني عن عينه،، فقال: سأفعل فبكر إليّ غداً.

ووجد ابن أبي خالد الوسيلة التي يستطيع بها تحقيق طلب طاهر، فركب إلى المأمون، فلما دخل عليه قال: ما نمت البارحة!

فقال: لمَ ويحك؟

فقال: لأنك وليت غسان خراسان وهو ومن معه أكلة رأس، فأخاف أن يخرج عليه خارجة من الترك فتصطلحه...

فقال له: لقد فكرت فيما فكرت فيه، فمن ترى؟

قال: طاهر بن الحسين.

قال: ويلك يا أحمد، هو والله خالع.

لقد كان تفكير المأمون تفكيراً بعيداً، فقد أدرك أن طاهراً سيظل قلقاً لما فعل، وأن هذا القلق سيحمله يوماً على التمرد والانفصال عن الحكم.

ولكن ابن أبي خالد قال له: أنا الضامن له.

قال: فأَنفذه.

فدعا بطاهر من ساعته فعقد له فشخص من ساعته.

واستمر طاهر والياً على خراسان سنتين، لم يغير شيئاً ولم يتظاهر بشيء، فلما كانت سنة ٢٠٧هـ صمم على العصيان، فصعد يوم الجمعة المنبر فخطب، فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له، وقال: اللهم أصلح أمة محمد بما أصلحت به أولياءك، واكفها مؤونة من بغى فيها وحشد عليها بلم الشعث وحقن الدماء وإصلاح ذات البين.

ووصل الخبر إلى المأمون بما كان، فدعا ابن أبي خالد فقال له: أشخص فائتِ به كما زعمت وضمنت.

قال: أبيت ليلتي.

فقال: لا لعمري لا تبيت.

فلم يزل يناشده حتى أذن له بالمبيت.

لكن الأقدار كانت قد عملت عملها، ففي اليوم الذي أعلن فيه طاهر العصيان، مضى في ليله إلى فراشه فمات فجأة في تلك الليلة.

ووصل خبر موته إلى المأمون في مساء اليوم الذي وصله في صباحه نبأ عصيانه، فدعا ابن أبي خالد وقال له: قد مات.

وفاة المأمون

إذا كان المأمون الإنسان، الإنسان بكل ما تحتوي الإنسانية من عواطف كريمة لم يحتمل رؤية مذل أخيه وقاتله، وهو في الوقت نفسه صانع ملكه وباني مجده وموطد أمره،

ومن أجل ذلك فعل ما فعل بالأخ العاق الغادر.

إذا كان المأمون قد أبكاه في مجلس أنسه ـ أبكاه دخول طاهر عليه، ثم كان ما كان من ثورته على حكمه وخلعه من خلافته، وما كان يمكن أن يعقب ذلك من كوارث وفجائع، لولا أن الموت عاجل طاهراً.

إذا كان الأمر كذلك، فإن الإنسان العاطفي الذي بكى لمرأى طاهر، هو نفسه الذي لا يمكن أن ينسى ما كان لطاهر من فضل وأياد، وإذا كان طاهر قد تمرد وعصى وجاهر بالعداء، فله بواعثه ودوافعه، فلا يمكن أن تنسي السيئات الطارئة ما كان من حسنات ماضية.

الإنسان في إنسانيته المثلى يظل إنساناً دائماً، ومن أظهر مظاهر إنسانيته: الوفاء.

وإذا كان طاهر قد مضى بعجره وبجره وحسناته وسيئاته، فقد بقي الوفاء...

لقد أغضى المأمون عن كل ما كان من طاهر، ولم يبق في نفسه إلّا الوفاء، لذلك عمد ـ عندما بلغه نبأ وفاة طاهر ـ إلى تولية ابنه طلحة مكانه على خراسان، فظل والياً عليها سبع سنين، ولما مات طلحة، ولى مكانه أخاه عبد اللّه.

الشعر في المعركة

كان لمقتل الأمين وزوال خلافته أصداء متباينة في الأوساط الشعبية، عبر عنها شعراء ذاك الوقت، فجاء شعرهم صورة عما كان يعتمل في أذهان الشعب من تأثّر بتلك الأحداث، فهذا شاعر ينقم على الأمين لهوه واستهتاره بالقواعد الدينية، وأنه كان بغدره بأخيه المأمون سبباً فيما أصاب البغداديين من محن الحصار وكوارث الحرب، ويرى أنه لم يكن يصلح للملك فهو يقول:

لِم نبكيكَ لِماذا للطرب ... يا أبا موسى وتَرْويج اللعب

ولِتَرْكِ الخمس في أوْقاتها ... حرصاً مِنْكَ على ماء العنب

وَشَنيفٍ أنا لا أبكي له ... وعَلى كوثرَ لا أخشى العطَبْ

لم تكن تَعرفُ ما حدُّ الرّضى ... لا ولا تَعْرفُ ما حد الغضب

لم تكن تَصلُحُ للمُلكِ ولم ... تعطك الطاعةَ بالمُلك العرب

أيها الباكي عليه لا بكت ... عينُ من أبكاكَ إلّا للعجب

لِمَ نبكيكَ لِما عرّضتنا ... للمجانيق وَطَوراً للسَّلَبْ

ولقوم صيَّرونا أعبُداً ... لهُم يبدو على الرأس الذَّنب

في عذابٍ وحصارٍ مُجهِدٍ سَدَّد الطُّرق فلا وجه طلب
زعموا أنك حيٌّ حاشرٌ كلُّ من قد قال هذا قد كذب
ليت من قد قاله في وَحدةٍ من جميع ذاهبٌ حيثُ ذهب
أوجبَ اللّهُ علينا قتله فإذا ما أوجبَ الأمر وجب
كانَ واللّه علَينا فتنةً غضِب اللّه عليه وَكَتَب

والشيء الملفت في هذه الأبيات أن الشاعر قد خص العرب بالذكر وأعلن أنهم لم يكونوا مع الأمين ولم يعطوه طاعة الملك. ثم الإشارة إلى الذل الذي أصاب البغداديين من تسلط الغرباء عليهم حتى أصبح هؤلاء الغرباء هم السادة والبغداديون كالعبيد لهم، وسادت الأذناب على الرؤوس.

ولا شك أنِ هذه الأبيات الشعرية أبيات شعبية محضة تصور الشعور البغدادي الشعبي، وما كان يعانيه الشعب ويفكر به.

على أنه لا بد لنا أن نتساءل عمن يعني هذا الشاعر (بمن صيروهم أعبداً لهم) ومن يقصد بـ (الأذناب التي بدت على الرؤوس)؟

إن مرارة البغداديين تبدو واضحة في هذه الأبيات، ويظل تساؤلنا بغير جواب!

وصاحبنا عمرو الوراق الذي رأينا فيما تقدم من القول عدم مبالاته بما يجري، وقلة اكتراثه حتى بأخطر الأخبار المصيرية، وانصرافه إلى كأسه وشعره ـ إنّ عَمْراً هذا قد انفعل في النهاية بالأحداث ونتائجها وتأثر بما جرى على بغداد من خراب وبموت من مات من خلانه في الوقائع، وبالتشتت الذي أصاب الناس فتفرقوا فرقاً.

إن عمراً الوراق هنا غير عمرو الوراق هناك، لقد عاد صوتاً من أصوات الشعب، بعد أن كان صوت نفسه، يبدو لنا أن نقمته منصبة على طاهر بن الحسين، وأنه هو المخاطب:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ألم تكوني زَماناً قرة العين
ألم يكن فيكِ أقوامٌ لهم شرفٌ بالصالحات وبالمعروف يلقوني
ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنهم وكان قربُهمُ زيناً من الزينِ
صاحَ الزمانُ بهم بالبين فانقرضوا ماذا الذي فجعَتني لوعةُ البينِ
أستودِعُ اللّه قوماً ما ذكرتُهُم إلّا تحدَّرَ ماء العيْنِ مِنْ عيني
كانُوا ففرَّقَهُمْ دهرٌ وصدَّعهمْ والدهرُ يَصدَعُ ما بيْنَ الفريقينِ
كم كانَ لي مُسعدٌ منهم على زمني كم كان منهم على المعْروفِ من عوْنِ
للّهِ درُّ زمان كان يجمعُنا أينَ الزمانُ الذي ولّى ومِنْ أينِ

يا من يُخَرِّبُ بغْداد ليَعْمرَها أهلَكْتَ نفسكَ ما بين الطَّرِيقيْنِ
كانت قلوبُ جميعِ الناسِ واحِدَةً عيْناً وليسَ لكَوْنِ العيْنِ كالدَّينِ
لما أشَتَّهم فرَّقتهُم فِرَقاً والناسُ طُرّاً جميعاً بينَ قلبَيْنِ

ومع ذلك فإن النزعة الفردية تظل متحكمة بهذا الوراق، فبالرغم من أنه في مطلع أبياته يتلهف على بغداد، كل بغداد، وهو ما يتلهف عليه معه كل البغداديين، وبالرغم أنه في ختام الأبيات يتحدث عن، (قلوب جميع الناس)، وتشتت هذي القلوب وتفرقها ـ بالرغم من ذلك، فإنه في الأبيات الأخرى ينسب كل أسى إلى نفسه، فالأقوام ذوو الشرف كانوا يلقونه هو بالصالحات والمعروف، والذين صاح الزمان بهم بالبين فانقرضوا، هو الذي فجعته بهم لوعة البين، وهو الذي يتحدر دمع عينه لهم، وقد كانوا يسعدونه على زمنه...

إنه يرثي بغداد وأهلها لأن النكبة حلت بشخصه. على أننا، إنصافاً للأمين، نذكر هنا بعض ما رثي به من الشعر، ونبدأ ذلك ببيتين طريفين منسوبين لإحدى امرأتين: إما لبابة بنة علي بن المهدي، وأما ابنة عيسى بن جعفر، وهما:

أبكيك لا للنعيم والأنس بل للمعالي والرمح والترس
أبكي على هالك فجعت به أرملني قبل ليلة العرس

والواضح أن القائلة كانت موعودة بالزواج منه ثم قتل قبل الزفاف. ولئلا يظن قارىء بيتيها أنها إنما ترثيه لما ضاع عليها من النعيم والأنس، بل لسموه وبسالته، بدأت بيتيها بما بدأتهما به، ولكنها انطلقت في البيت الثاني على سجيتها فأعربت عن سبب بكائها عليه، على أنها لم تكن بحاجة لتتعلل بما تعللت به، فالناس يعرفون أنها بكته للنعيم والأنس لأنه أرملها قبل ليلة العرس، ولم تبكه للمعالي والرمح والترس، وليس من يلومها على ذلك...

وهناك مرثية الحسين بن الضحاك التي لنا أن نعتبرها مرثية مؤثرة، فقد كان هذا الشاعر من ندماء الأمين فإذا رثاه فهو صادق في رثائه، لأنه خسر بفقدانه ما لم يخسره غيره من أبناء الشعب، وهو يعترف بأنه فقد من كان يسد فاقته، ويكفي هذا لأن يبكيه بدمعه الغزير.

وإذا كانت قصيدة الشاعر الأول هي قصيدة الشعب، وقصيدة الثاني مزيجاً من عواطف الشعب والعواطف الشخصية، فإن قصيدة هذا الشاعر قصيدة شخصية بحتة. فإذا قال الشاعر فيما قال في قصيدته:

لِمَ نبكيك لما عرضتنا للمجانيق وطوراً للسلب

فهذا القول يقوله كل من ناله ما ناله في حصار بغداد، ولم يبق أحد في بغداد لم يصب في ذلك، فالشاعر هنا شاعر الشعب.

وإذا قال الشاعر الثاني:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ... ألم تكوني زماناً قرة العين

فهو بذلك ينطق بلسان جميع البغداديين. ولكنه حين يردف هذا البيت الذي يقول فيه:

ألم يكن فيك أقوام لهم شرف ... بالصالحات وبالمعروف يلقوني

يعود شاعراً فردياً يأسف على زوال أشراف بغداد لأنهم كانوا يلقونه بالصالحات والمعروف.

وحين يقول الشاعر الثالث الذي نحن بصدد الحديث عنه:

هلّا بقيت لسد فاقتنا ... أبداً وكان لغيرك التلف

فهو صريح بأنه يرثي الأمين لدوافع شخصية بحتة، وحين يقول:(فاقتنا) فهو لا يعني جماهير الشعب بل يعني رفاقه من ندامى الأمين.

وقد بلغ الأمر بهذا الشاعر أنه لم يكن يصدق أول الأمر بقتل الأمين وكان يطمع في رجوعه(٤٢):

اللّهُ يعلمُ أنَّ لي كبداً ... حرّى عليك ومُقلَةً تَكِفُ
ولئنْ شَجيتُ بما رُزيتُ به ... إنّي لأضمِرُ فوق ما أصِفُ
هلّا بقيتَ لسدّ فاقَتِنا ... أبداً وكان لغيرِكَ التلَفُ
فلقد خلَفتَ خلائفاً سلَفوا ... ولَسوفَ يُعْوزُ بعدكَ الخَلَفُ
لا باتَ رهطُكَ بعدَ هفوتهمْ ... إني لرهطكَ بعدها شَنِفُ
هتكوا بحُرمتِكَ التي هُتِكَتْ ... حَرَمَ الرّسولِ ودُونَها السُّجُفُ
وثبت أقاربك التي خذَلَتْ ... وجميعها بالذُّلّ معتَرِفُ
لم يفعلوا بالشّطّ إذ حَضَرُوا ... ما تفعلُ الغيْرانةُ الأنِفُ
ترَكوا حَريمَ أبيهمُ نفلاً ... والمُخْصَناتُ صوارخ هتفُ
أبدَتْ مخلخلها على دَهشٍ ... أبكارُهُنَّ وَرَنَّتِ النَّصَفُ

(٤٢) وكان هذا الشاعر ينظم الشعر خلال حصار بغداد دعماً للأمين فمن ذلك قوله يخاطب الأمين:

أمينَ اللّهِ ثق باللّه ... تعطَ الصبْرَ والنصرَه
كِلِ الأَمرَ إلى اللّه ... كَلاكَ اللّهُ ذو القدرَه
لنا النصْرُ بِعَون اللّه ... والكَرّةُ لا الفرَّه
وللمرّاق أعداؤ ... ك يوم السوءِ والدّبرَه
وكأس تلفظ الموتَ ... كريه طعمُها مرَّه
شُقينا وسقيناهُم ... ولكن بهمُ الجِره
كذاكَ الحربُ أحياناً ... علينا ولنا مرَّه

سُلبَتْ معاجِرُهُنَّ واجتُليَت … ذاتُ النّقابِ ونُوزِعَ الشنف
فكأنهُنَّ خِلالَ مُنتهَبٍ … دُرٌّ تكشَّفَ دُونهُ الصَّدَفُ
ملكٌ تخَوَّنَ مُلكَهُ قَدَرٌ … فَوَهى وصَرف الدَّهْرِ مختلف
هيهاتَ بعدكَ أنْ يدومَ لنا … عِزٌّ وأن يَبقى لنَا شرفُ
أفبعدَ عهدِ اللّهِ تقتلهُ … والقتلُ بعد أمانةٍ سرفُ
فستعرفونَ غداً بعاقبَةٍ … عزَّ الإله فأوردوا وقفوا
يا من يُخَوّنُ نومه أرَقٌ … هَدَتِ الشُّجُونُ وقلبُهُ لهِفُ
قد كنتَ لي أملاً غنيتُ به … فمضى وحلَّ محلهُ الأسَفُ
مرجَ النظامُ وعادَ منكرُنا … عرفاً وأنكرَ بعدكَ العرفُ
فالشملُ مُنتشرٌ لفَقدكَ والـ … ـدنيا سدًى والبال منكشفُ

وللحسين بن الضحاك أكثر من قصيدة في رثائه منها القصيدة التالية:

إذا ذكر الأمينُ نعَى الأمينا … وإن رقَد الخليُّ حمى الجفونا
وما برحت منازل بين بُصرى … وكلواذى تهيجُ لي شُجونا
عراصُ الملك خاويةٌ تهادَى … بها الأرواح تنسُجها فنونا
تخَوَّنَ عزَّ ساكِنها زمانٌ … تلَعَّبَ بالقرونِ الأولينا
فشتَّتَ شملَهُم بعدَ اجتماعٍ … وكنتُ بِحُسنِ ألفتهمْ ضنينا
فلم أرَ بعدَهم حُسْناً سواهُم … ولم ترهم عيونُ الناظِرينا
فَوا أسفَاً وإن شمتَ الأعادي … وآهٍ على أميرِ المُؤمنينا
أضلَّ العُرْفَ بعدَكَ مُتْبعُوهِ … وَزِقّه عن مطايا الراغبينا
وكنَّ إلى جنابِكَ كلَّ يومٍ … يرُحنَ على السُّعودِ ويغتَدينا
هو الجبَلُ الذي هَوَتِ المعالي … لهدَّتِه وَريعَ الصَّالحونا
ستندُبُ بعدكَ الدنيا جواراً … وتنْدُبُ بعْدَكَ الدين المَصُونا
فقد ذهَبَتْ بشَاشَةُ كلّ شيءٍ … وعادَ الدين مطرُوحاً مَهينا

فهو في هذه القصيدة يريد أن يتظاهر بأنه في تحسره على الأمين إنما يندب الدين المصون لا الدنيا وحدها، وإنما ينطق بلسان الناس الغيارى لا بلسان نفسه.

ولكننا لا نحسب أن هذا الشاعر كان يهمه من فقدان الأمين أن الدين عاد مطروحاً مهيناً، بل كان يهمه أنه هو عاد بعد الأمين مطروحاً مهيناً.

ونحن وإن كنا لا نسلم بصحة كل ما يُرمى به الأمين من نقائص، فإننا لا نسلم مع

الشاعر بأن الدين كان في عهد الأمين مصوناً أكثر من صيانته بعد الأمين.

ولهذا الشاعر قصيدة عاطفية أخرى منها هذا البيت المؤثر:

أسفاً عليك سلاك أقرب قربة ... مني وأحزاني عليك تزيد

وقال عبد الرحمن بن أبي الهداهد يرثيه:

يا غرب جودي قد بتَّ من وذَمِهْ ... فقد فقدنا العزيزَ من دِيَمِهْ
ألوَتْ بِدنياكَ كفّ نائبةٍ ... وصِرْتَ مغضى لنا على نِقَمِهْ
أصبح للمَوتِ عندنا علمٌ ... يضحكُ سِنُّ المَنُونِ من علَمِهْ
ما استَنزَلت دَرَّةُ المَنونِ على ... أكرَمِ من حلَّ في ثرى رَحِمِهْ
خليفة اللّهِ في بريَّتهِ ... تقصُرُ أيدي المُلوكِ عن شيمِهْ
يفترُّ عن وجهِهِ سنا قَمَرٍ ... ينشَقُّ عن نُورِهِ دُجى ظُلمِه
زلزلَتِ الأرض من جوانِبها ... إذ أولِغَ السَّيْفُ من نجيع دَمِهْ
من سكتَت نفسُه لمصرَعةٍ ... من عُممِ النّاسِ أو ذَوي رَحمِه
رأيتُهُ مثل ما رآهُ بهِ ... حتى تذوَّق الأمرَ منْ سَقمه
كم قد رأينا عزيزَ مملكةٍ ... يُنقَلُ عن أهلِه وعن خدَمِه
يا ملكاً ليسَ بعدَهُ مِلكٌ ... لخاتم الأنبياء في أممهْ
جادَى وحيَّ الذي أقمتَ به ... سَحّ عزيزِ الوكيف من ديمه
لو أحجَمَ الموتُ عن أخي ثقَةٍ ... أُشوِيَ في العزّ مستَوى قَدَمه
أو ملِكٍ لا ترامُ سطوَتهُ ... إلا مُرَامَ الشَّتيمِ في أجمه
خلَّدَكَ العزُّ ما سَرَى سَدَفٌ ... أو قامَ طفلُ العشيّ في قَدَمه
أصبحَ مُلكٌ إذَا اتَّزرتَ به ... يقرع سنَّ الشُّقَاةِ من ندمِه
أثر ذو العرش في عِدَاكَ كما ... أثرَ في عادِهِ وفي إرَمِه
لا يُبْعِد اللّه صيُّورَةَ تليَت ... لخير داعٍ دعاه في حرَمه
ما كنت إلّا كحُلم ذي حُلمٍ ... أولجَ بابَ السُّرورِ في حُلمِه
حتى إذا أطلَقتهُ رَقدتهُ ... عادَ إلى ما اعتراهُ من عَدَمِه

وقال أيضاً يرثيه:

أقول وقد دنوتُ منَ الفرارِ ... سُقيتَ الغيثَ يا قصْرَ القَرارِ
رمتكَ يد الزمانِ بسَهمِ عينٍ ... فصرتَ ملوّحاً بِدخانِ نارِ
أبِن لي عن جميعكَ أين حلوا ... وأينَ زَمرهم بعد المزار
وأينَ محمدٌ وابناهُ مالي ... أرَى أطلالهم سودَ الدّيارِ

كأن لم يؤنسوا بأنيس مُلْكٍ … يصون على الملوك بخيرِ جارِ
إمامٌ كان في الحدثانِ عوناً … لنا والغيثَ يمنح بالقطارِ
لقد ترك الزمان بني أبيه … وقد غمرتهم سود البحارِ
أضاعوا شمسهم فجرت بنحس … فصاروا في الظلام بلا نهارِ
وأجلوا عنهم قمراً منيراً … وداستهم خيول بني الشّرار
ولو كانوا لهم كفؤاً ومثلاً … إذا ما توّجوا تيجان عارِ
ألا بانَ الإمامُ ووارثاهُ … لقد ضرما الحشا منَّا بنار
وقالوا الخُلد بيع فقلتُ ذُلّاً … يصيرُ ببائعيهِ إلى صغارِ
كذاكَ المُلكُ يتبع أوّليهِ … إذا قطعَ القرَارُ من القرار

وقال مقدّس بن صيفي يرثيه:

خليلي ما أتتكَ به الخُطوبُ … فقد أعطتكَ طاعتَهُ النَّحيبُ
تدلَّتْ مِنْ شَماريخِ المنايا … منايا ما تقومُ لها القلوبُ
خلالَ مقابر البُستانِ قبرٌ … يُجاورُ قبْرَهُ أسدٌ غريبٌ
لَقد عَظمتْ مُصيبتهُ على من … له في كلّ مكرُمَةٍ نصيبُ
على أمثاله العبرَاتُ تُذرى … وتُهتك في مآتمِهِ الجيوبُ
وما ادخرت زُبيدَةُ عنهُ دَمعاً … تخصُّ به النّسيبةُ والنَّسيب
دعوا موسى ابنه لِبُكاء دَهرٍ … على موسى ابنه دَخلَ الحزيبُ
رأيتُ مشاهِد الخُلَفاءِ مِنه … خلاءً ما بساحتِها مُجيبُ
ليَهنِكَ أنني كهلٌ عليه … أذُوبُ وفي الحشا كبدٌ تذوبُ
أصيبَ به البعيدُ فخرَّ حُزناً … وعايَنَ يومه فيه المُريبُ
أنادي مِنْ بطونِ الأرضِ شخصاً … يحَرِّكُهُ النّداء فما يُجيبُ
لئن نَعت الحُروبُ إليه نفساً … لقَدْ فجعَتْ بمصْرعَهِ الحُروبُ

وقال خزيمة بن الحسن يرثيه:

سبحان ربك رب العزة الصمدِ … ماذا أصبنا في صُبحةِ الأحدِ
وما أصيبَ به الإسلامُ قاطبةً … من التضعضع في ركنَيه والأود
مَن لم يصب بأمير المؤمنين ولم … يُصبح بمهلكة والهمّ في صُعُد
يا ليلةً يشتكي الإسلامُ مدَّتها … والعالَمون جميعاً آخرَ الأبد
غدرت بالملك الميمون طائرُه … وبالإمامِ وبالضرغامةِ الأسد
سارت إليه المنايا وهي ترهبُه … فواجهتَه بأوغادٍ ذوي عدد

بشُورجينَ وأغتامٍ يقودُهُمُ قريش بالبيض في قمْص من الزرد
فصادَفوه وحيداً لا معين له عليهم غائب الأنصار بالمدد
فجرَّعوه المنايا غيرَ ممتنعٍ فرداً فيا لك من مُستسلِم فَرد
يلقى الوجوه بوجه غير مبتذَلٍ أبهى وأنقى من القُوهية الجدُد
واحسرتا وقريش قد أحاط به والسيف مُرتعد في كف مرتعد
فما تَحرَّكَ بل ما زالَ منتصباً منَكَّس الرأس لم يبد ولم يعد
حتى إذا السيف وافى وسط مفرقه أذرَتْه عنه يداهُ فعل مُتَّئِد
وقام فاعتلقت كفاه لبَّته كضيَغمٍ شرس مستبسل لبد
فاجتَرَّ ثم أهوى فاستقلَّ به للأرض من كفّ ليث مخرج حرد
فكاد يقتُله لو لم يكاثِرُه وقام منفلتاً منه ولم يكد
هذا حديث أمير المؤمنين وما نقصت من أمره حرفاً ولم أزد
لازلتُ أندُبه حتى الممات وإن أخنى عليه الذي أخنى على لبد

وقد حرصنا على نشر هذا الشعر في رثاء الأمين إنصافاً له وتدليلاً على أن الرجل لم يكن على تلك الصورة التي حاول بعض المؤرخين إظهاره فيها من الضعف والتضعضع الفكري والانغماس في اللهو انغماساً لا يتفق مع صفات رجل الدولة.

فنحن حين نترك القصائد الأولى التي لكل واحد من شعرائها بواعثه الخاصة، ونأخذ قصائد الشعراء الثلاثة: عبد الرحمن بن أبي الهداهد الذي رثاه بقصيدتين، ومقدس بن صيفي وخزيمة بن الحسن، فإننا نستدل منها أنه كان للأمين جمهوره الشعبي المتمسك به المتفجع له. هذا الجمهور الذي عبّر هؤلاء الشعراء الثلاثة عن شعوره ونطقوا باسمه، هؤلاء الشعراء الذين لا نرى في قصائدهم أي لفظ يشعر بدافع شخصي أو هوى أناني. ولا نستطيع نحن ـ وبيننا وبين تلك الأحداث هذه المسافات البعيدة من القرون ـ إلّا أن نتوجه بأشد الاحتقار لباعث هذا الشر ومثير هذه الفتن والمسبب لتلك المصائب: الفضل بن الربيع الذي استطاع بما أوتيه من دهاء شرير وقدرة شيطانية أن يغري الأمين بما أغراه حتى إذا رأى بوادر الانخذال تخلى عن الأمين وآثر الانعزال طلباً للسلامة وترك الأمين يتخبط فيما تخبط فيه محروماً من مستشار يعول عليه ويأوي في الرأي إليه.

وإذا كان ما قيل في هذا العصر من أن التاريخ يكتبه المنتصر، فإن هذا القول ينطبق على كل عصر، ومع هذا فإننا لا نحسب أن كبار مؤرخينا قد تعمدوا اهتضام الأمين، وهم الذين استطاعوا أن ينقلوا إلينا مثل ما مر من مراثيه.

وكم يحتاج تاريخنا إلى مخلصين ينبشون خباياه، ويظهرون حقائقه، ويعرضوه خالصاً من شوائب التزييف، وما أكثر التزييف والتحريف فيما وصلنا من هذا التاريخ.

على أننا ونحن ننشر ما ننشر من شعر رثاء الأمين لا بد لنا من نشر القصيدة التي اختلف في اسم ناظمها والتي نسبت إلى أكثر من شاعر، وهي القصيدة التي أرسلتها أم جعفر، (والدة الأمين)، إلى المأمون بعد مقتل ابنها وانتصار المأمون:

لخيرِ إمامٍ قامَ من خيرِ عُنْصُرِ	وأفضَلِ سامٍ فوق أعوادِ منبَرِ
لوارثِ علمِ الأوَّلينَ وفهمِهِم	إلى الملك المأمون من أم جعفر
كتبتُ وعيني تستَهِل دُموعها	إليك ابن عمي من جفوني ومحجري
وقد مسَّني ضرٌّ وذُل كآبةٍ	وأرَّقَ عيني يا ابن عَمي تفكُّري
سأشكو الذي لاقيتُهُ بعدَ فقدِهِ	إليكَ شكاةَ المُستَهامِ المُقَهَّر
وأرجو لما قَدْ مرَّ بي مذ فقدتهُ	فأنت لبثّي خيرُ ربٍّ مغيِّرِ
أتى طاهرٌ لا طهَّرَ اللّهُ طاهرا	فما طاهرٌ فيما أتى بمُطَهَّر
فأخرجني مكشُوفَةَ الوجهِ حاسراً	وأنهَبَ أموالي وأحرَق أديري
يعزّ على هارونَ ما قَدْ لقيتُهُ	وما مر بي من ناقص الخلقِ أعور
فإن كان ما أسدى بأمرٍ أمرتَه	صبَرت لأمر من قدير مقدر
تذكَّر أمير المؤمنين قرابتي	فديتك من ذي حُرمةٍ متذكر

ويقول ابن الأثير إن المأمون لما قرأ هذه القصيدة بكى وقال: أنا واللّه الطالب بثأر أخي، قتل اللّه قتلته.

وأم جعفر التي أرسلت هذه القصيدة إلى المأمون هي التي كانت تأمل أن يأتوا لها بالمأمون أسيراً في قدميه القيد، ولكنها اشترطت أن يكون القيد من فضة لا من حديد، ولا شك أن لأم جعفر أثراً كبيراً في تحريض ولدها محمد الأمين في الإقدام على ما أقدم عليه.

وعدا هذه القصيدة فقد أرسلت للمأمون بعد قتل ابنها كتاباً بليغاً مؤثراً ختمته بقولها: وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعي إليك.

وقد أجابها المأمون على كتابها بكتاب رائع. وهذان الكتابان من أرقى النصوص الأدبية العربية وأكثرها أثراً في النفس واستجاشة للعاطفة الكريمة.

ويؤسفني أن الكتابين لا يحضرانني الآن عند تدوين هذا الكلام، فقد كانا جديرين بأن يضافا إلى مواد هذا الكتاب.

ملحمة بغداد

ما ذكرناه فيما تقدم من الشعر كان صدى لمقتل الأمين. على أن الشعر قد سبق مقتل الأمين، فإن ما كان يصيب بغداد خلال الحصار من فواجع، وما كانت تعانيه من كوارث، وما كان يلقى سكانها من شدائد، قد أنطق شعراءها وأثار قرائحهم، ومن المؤسف أن هذا الشعر وغيره من أمثاله في غير هذه الأحداث لم يلق عناية مؤرخي الأدب العربي، حتى إنهم لم يشيروا إليه أدنى إشارة، وإذا كان هذا الشعر لم يرتفع بمستواه الفني إلى مراتب شعر كبار الشعراء، فإنه بواقعيته وتصويره الدقيق لفترات هامة من تاريخ العرب والإسلام وتعبيره عن أحاسيس الجماهير يعد من أهم الشعر العربي في كل أدواره. وإننا ننشر هنا مطولة للخزيمي حسب تسمية الطبري، يمكننا أن نطلق عليها اسم ملحمة بغداد، وفي اعتقادي أنها جديرة بشروح ودراسات مطولة:

قالوا ولم يلعب الزمان ب ... بغداد وتعثر بها عواثرها
إذ هي مثلُ العروس باديُها ... مُهَوّلٌ للفتى وحاضِرُها
جنةُ دنيا ودارُ مغبَطَةٍ ... قلَّ من النائبات واتِرها
دَرَّتْ خُلوف الدنيا لساكنها ... وقلَّ معسورُها وعاسِرُها
وانفرَجَتْ بالنعيم وانتجعَتْ ... فيها بلذاتها حواضِرُها
فالقومُ منها في روضة أُنِقٍ ... أشرَقَ غِبَّ القطانِ زائرُها
مَن غرَّه العيشُ في بُلْهنيةٍ ... لو أنَّ دُنيا يدُومُ عامرُها
دار ملوكٍ رَسَت قواعدها ... فيها وقرَّت بها منابرُها
أهلُ العلى والثرى وأنديةُ ... الفخرِ إذا عُدّدَت مفاخرُها
أفراخُ نعْمَى في إرْثِ مملكَةٍ ... شَدَّ عُراها لها أكابِرُها
فلم يزل والزمانُ ذو غِيَرٍ ... يقْدَحُ في ملكها أصاغِرُها
حتى تَساقَتْ كأساً مُثَمّلةً ... من فتنةٍ لا يقال عاثِرُها
وافترقتْ بعدَ ألفَة شيعاً ... مقطوعةً بينها أياصِرُها
يا هل رأيتَ الأملاكَ ما صنعت ... إذ لم يَزغْها بالنصح زاجِرُها
أوْرَدَ أملاكنا نفوسَهُمُ ... هُوَّةَ غَيٍّ أعيَتْ مصادِرُها
ماضرّها لو وَفَتْ بمَوثِقِها ... واستحكمتْ في التُّقَى بصائرها
ولم تسافِك دماء شيعتها ... وتبتعل فتية تكابرها
وأقنعتها الدنيا التي جُمِعَت ... لها ورَغب النفوس ضائرُها
ما زال حوض الأملاك مسجورها ... ... بالهوى وساجِرُها

تبقى فضول الدنيا مكاثَرةً حتى أبيحت كَرهاً ذَخائِرُها
تَبيعُ ما جمع الأبُوّة لِلْـ أبناءِ لا أربحَت متاجِرُها
يا هل رأيت الجنانَ زاهرةً يرُوقُ عينَ البصيرِ زاهرُها
وهل رأيتَ القصورَ شارعةً تَكِنُّ مثل الدُّمى مقاصرُها
وهل رأيت القرى التي غَرس الـ أملاك مُخضرَّةً دساكِرُها
محفوفةً بالكرومِ والنخل والريحانِ قد دَمِيَت محاجِرُها
فإنها أصبحت خلايا من الـ إنسان قد دميت محاجرها
قَفراً خَلاء تَعوي الكلابُ بها يُنكرُ منها الرسومَ داثرُها
وأصبحَ البؤسُ ما يفارقها إلفاً لها والسرورُ هاجرُها
بِزَندَ وَردَ والياسِريَّة والشُّطين حيث انتهت معابرها
وبالرحى والخيزُرَانية العليا التي أشرفت قناطرُها
وقَصرِ عَبدُوَيه عبرةٌ وهُدًى لكل نفسٍ زَكَت سَرائرها
فأين حُراسُها وحارسها وأين مجبورُها وجابرها
وأين خِصْيانُها وحشوتها وأين سكانها وعامرُها
أين الجرادِيَّةُ الصقالبُ والـ أحبُش تعدو هُدلاً مشافرُها
ينصدعُ الجندُ عن مواكبها تغدُو بها شُزَّباً ضوامِرُها
بالسِّندِ والهندِ والصقالِبِ والنُّوبةِ شِيبَتْ بها بَرابرُها
طيراً أبابيل أرسلَت عبثاً يقدُمُ سُودانَها أحامِرُها
أين الظباء الأبكارُ في روضة الملك تَهادَى بها غرائِرُها
أين غضاراتها ولَذَّتها وأين مَحبُورُها وحَابِرُها
بالمسك والعنبرِ اليماني والـ أنجُوجِ مَشبُوبَةٌ مَجامِرُها
يَرفلنَ في الخزِ والمجاسِدِ والمَوْشِيّ مخطومَةً مَزامِرُها
فأين رقاصها وزامِرُها يُجبِنَ حيثُ انتهت حناجرُها
تَكادُ أسماعُهم تسيلُ إذا عارض عيدانَها مَزامرُها
أمست كجوف الحمار خاليةً يَسعَرُها بالجحيم ساعرُها
كأنما أصبحت بساحتهم عادٌ ومسْتهم صراصرُها
لا تعلمُ النفسُ ما يُبايتُها من حادث الدهر أو يُباكرُها
تضحي وتُمسي دَريَّةً غرضاً حيث استقرت بها شراشرها
لأسهُمِ الدهر وهو يَرشُقُها مُحنِطُها مرَّةً وباقِرُها

يَابُؤسَ بَغداد دَار مملَكَةٍ ... دارت على أهلها دوائرها
أمهلها اللّه ثم عَاقَبها ... لما أحاطت بها كبائرُها
بالخسف والقَذف والحريق ... وبالحرب التي أصبحت تساورُها
كم قد رأينا من المعاصي بها ... كالعاهر الشوء....
حلت ببغداد وهي آمنةٌ ... داهيةٌ لم تكن تحاذرها
طَالَعها السوء من مَطَالِعِهِ ... وأدركت أهلها جرائرُها
رَقَّ بها الدينُ واستُخف بذي ... الفضل وَعزَّ النُّسَّاكَ فاجرُها
وَخَطَم العبدُ أنفَ سيّدِهِ ... بالرَّغمِ واستعبِدَت مَخادرُها
وصار ربَّ الجيران فَاسقُهُم ... وابتزَّ أمر الدروب ذَاعرُها
من يَرَ بغدادَ والجنودُ بها ... قدْ رَبَّقَتْ حَولها عسَاكرُها
كل طَحُونٍ شهباء بَاسِلَةٍ ... تشقِطُ أحبالها زَماجِرُها
تلقى بِغَيٍّ الردى أوانِسها ... يُرهِقها للقاءِ طِاهِرُها
والشيخ يَعدُو حزماً كتائبهُ ... يقدِمُ أعجازَها يعاوِرُها
وَلِزُهير بالقول مأسَدَة ... مرقومة صلبة مكاسِرُها
كتائبُ الموت تحتَ ألوِيَةٍ ... أبْرَحَ منصورُها ونَاصِرُها
يعلم أن الأقدار واقعةٌ ... وَقعاً على ما أحَبَّ قَادرُها

فتلكَ بغداد ما يُبنى من الذِّلةِ في دُورِها عَصافيرُها

محفوفةٌ بالرَّدَى مُنطقَةٌ ... بِالصُّغر مَحْصُورةٌ جبابِرُها
وبينَ شَطِّ الفُرات منه إلى ... دجلة حيث انتهت مَعابِرُها
كهادِي الشُفَراءِ نافِرُهُ ... تركضُ من حولِها أشاقِرُها
يخرقها ذا وذاك يهدمها ... ويشتفي بالنِّهابِ شاطرُها
والكرخُ أسواقها مُعَطَّلةٌ ... يَستنُّ عَيَّارُها وعائرُها
أخرجت الحربُ من سواقطِها ... آساد غِيلٍ غُلباً تساورُها
من البواري تِرَاسُها من الخُو ... صِ إذا استلأمت مغافرها
تغدُو إلى الحرب في جَواشنها ... الصوف إذا ما عُدَّت أساورها
كتائب (الهرش) تحت رايته ... ساعَدَ طَرّازَها مُقامِرُها[٤٣]

(٤٣) الهرش: قال الطبري، وهو يتحدث عن الأوضاع داخل بغداد أثناء الحصار: أقبل محمد، (الأمين)، على اللهو والشرب ووكل الأمر إلى محمد بن عيسى بن نهيك وإلى الهرش فوضعا مما يليهما من الدروب والأبواب وكلاهما بأبواب المدينة والأرباض وسوق الكرخ وفرض دجلة وباب المحول والكناسة فكان لصوصها وفساقها يسلبون من

لا الرزق تبغي ولا العطاء ولا ... يحشُرُها للّقاءِ حاشِرُها
في كل دَربٍ وكل ناحيةٍ ... خطّارَةٌ يَستَهِلُّ خاطرُها
بِمِثل هَام الرجال من فِلَقِ الصخر ... يَزُودُ المقلاعَ بَائرُها
كأنما فوق هَامِها عِدَفٌ ... من القطا الكُدْرِ هاج نافِرُها
والقومُ من تحتها لهم زُجلٌ ... وهي ترامي بها خَواطِرُها
بل هل رأيتَ السيوف مُصلَتَةً ... أشهرَها في الأسواقِ شاهِرُها
والخيل تستنُّ في أزِقَّتها ... بالترك مسنونةً خناجِرُها
والنفط والنارَ في طرائِقِها ... وهابياً للدخانِ عامِرُها
والنهبُ تَعدُو به الرجال وقد ... أبدت خلاخيلها حَرائِرُها
مُعصَوْصِبات وسط الأزقة قد ... أبرزَها للعيون ساترُها
كلُّ رَقودُ الضُّحى مُخَبَّأةٌ ... لم تَبدُ في أهلها محاجرُها
بيضة خدرٍ مكنونةٌ بَرزَت ... للناس منشورةً غَدائرُها
تَعثُر في ثوبها وتعجلها ... كَبَّةُ خيلٍ زيعتَ حوافرُها
تسألُ أين الطريقُ وَالهَةً ... والنارُ من خلفها تبادرُها
لم تَجتَلِ الشمس حُسن بَهجَتها ... حتى اجتلتها حربٌ تباشرُها
يا هل رأيت الثكلى مُوَلوِلَةً ... في الطُّرق تسعى والجهدُ باهرُها
في إثر نَعشٍ عليه واحدُها ... في صدره طعنةٌ يُساورُها
فَرغاءُ ينقي الشنار مريدها ... يهزها بالسنان شاجرُها

قدروا عليه من الرجال والنساء والضعفاء من الملة والذمة؛ فكان منهم في ذلك ما لم يبلغنا أن مثله كان في شيء من سائر بلاد الحروب. ولما طال ذلك بالناس وضاقت بغداد بأهلها وخرج عنها من كانت به قوة بعد الغُرم الفادح والمضايقة الموجعة والخطر العظيم، فأخذ طاهر أصحابه بخلاف ذلك واشتد منه وغلظ على أهل الريب وأمر محمد ابن خالد بحفظ الضعفاء والنساء وتجويزهم وتسهيل أمرهم. فكان الرجل أو المرأة إذا تخلص من أيدي أصحاب الهرش وصار إلى أصحاب طاهر ذهب عنه الروع وأمن وأظهرت المرأة ما معها من ذهب وفضة أو متاع أو بزّ حتى قيل إن مثل أصحاب طاهر ومثل أصحاب الهرش وذويه ومثل الناس إذا تخلصوا مثل السور الذي قال الله تعالى ذكره: «فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب».

وقال الطبري في موضع آخر: إن محمداً، (الأمين)، أمر زريحاً غلامه بتتبع الأموال وطلبها عند أهل الودائع وغيرهم وأمر الهرش بطاعته، فكان يهجم على الناس في منازلهم ليلاً ويأخذ بالظنة فجبى بذلك السبب أموالاً كثيرة وأهلك خلقاً فهرب الناس بعلة الحج وفر الأغنياء فقال القراطيسي في ذلك:

أظهروا الحج وما ينوونه ... بل من الهرش يريدون الهرب
كم أناس أصبحوا في غبطة ... وُكِلَ الهرش عليهم بالعطب
كل من راد زريح بيته ... لقي الذل ووافاه الحرب

تنظر في وجهه وتهتف بالثـ — كل وعز الدموع خامرها
غرغرَ بالنفس ثم أسلمها — مَطلولَةً لا يخاف ثائرها
وقد رأيت الفتيان في عَرصة — الـمعرَك معفورَةً مَناخرها
كلٌّ فتًى مَناعٌ حقيقَتَه — تَشقَى به في الوَغا مساعرها
باتَتْ عليه الكِلاب تَنْهَشُهُ — مخضوبةً من دم أظافِرُها
أمَا رَأيتَ الخُيولَ جائلَةً — بالقَوْمِ مَنْكُوبَةً دَوَائرُها
تعثرُ بالأوجُهِ الحِسَانِ مِن — القَتلى وغُلَّتْ دماً أشاعِرُها
يطأنَ أكبادَ فتيةٍ نُجُدٍ — يفلِقُ هاماتِهم حوافرها
أمَا رأيت النساء تحتَ المجا — نيق تعادي شُعثاً ضفائرها
عقائلَ القَومِ والعجائزَ والـ — عُنَّسَ لم تخيَّرْ معاصِرُها
يحمِلن قوتاً من الطِّحِين على الْـ — أكتافِ مَعْصُوبَةً معاجِرُها
وذاتُ عيشٍ ضنْكٍ ومُقعِسَةٌ — تشدَخُها صخرَةٌ تعاوِرُها
تسألُ عن أهلها وقد سُلِبت — وابتُزَّ عنْ رأسها غفائِرُها
يا ليتَ ما وللدَّهْرُ ذو دُوَلٍ — يُرجى وأخرَى تخشَى بَوادِرُها
هل ترجعنْ أرضُنا كما غنيتْ — وقد تناهتْ بنا مصايرُها
من مبلغٌ ذا الرئاسَتيْن رسا — لاتٍ تَأتّى للنُّصْحِ شاعِرُها(٤٤)
بأنَّ خيْر الوُلاة قد علم النـ — اسُ إذا عُدِّدتْ مآثِرُها
خليفةُ اللّه من بريَّته الـ — مأمونُ سائسها وجابرُها
سمتْ إليه آمالُ أمتهِ — منقادةً برُّها وفاجرُها
شامُوا حيا العدلِ من مخايلِهِ — وأصحرت بالتُّقى بصائرها
وأحمَدُوا منك سيرة جلت الـ — شَّكَّ وأخرى صحت معاذِرُها
واستجمعت طاعة برفقك للمـ — أمونِ نجديُّها وغائرُها
وأنتَ سمعٌ في العالمين له — ومقلَةٌ ما يكلُّ ناظرُها
فاشكر لذي العرش فضل نعمتِهِ — أوجب فضل المزيد شاكرها
واحذر فداء لك الرعيةُ والْـ — أجنادُ مأمورها وآمرها
لا تردنْ غمرةً بنفسك لا — يصدر عنها بالرأي صادرها

(٤٤) ذو الرئاستين هو الفضل بن سهل وزير المأمون وصاحب تدبيره، اتصل به في صباه وأسلم على يده وصحبه قبل أن يلي الخلافة، فلما وليها جعل له الوزارة وقيادة الجيش معاً فلقب بذي الرياستين، (الحرب والسياسة). وكان حازماً عاقلاً فصيحاً.

عليك ضحضاحها فلا تلج الـ غَمرةَ ملتجَّة زواخرها
والقصدُ أنَّ الطريق ذو شعبٍ أشْأَمُها وعشها وجائرها
أصبحت في أمةٍ أوائلها قد فارقت هديها أواخرها
وأنتَ سُرْسُورُها وسائسَها فهل على الحق أنت قاسرها
أدِّب رجالاً رأيت سيرتَهُم خالفَ حكمَ الكتاب سائرها
وامدد إلى الناس كف مرحمة تَسدُّ منهم بها مفاقرها
أمكنك العدلُ إذ هممت به ووافقت مده مقادرها
وأبصرَ الناس قصدَ وجههمُ وملكت أمَّة أخايرها
تشرع أعناقها إليك إذا الـ سادات يوماً جمَّت عشائرها
كم عندنا من نصيحَة لك في اللّهِ وقربى عزتْ زوافرها
وحرمةٍ قربت أياصرها منك وأخرى هل أنت ذاكرها
سعيُ رجالٍ في العلم مطلبُهُم رائحها باكرٌ وباكرها
دونك غراء كالوَذيلَةِ لا تُفقدُ في بلدةٍ سوائرها
لا طمعاً قُلتها ولا بطراً لكل نفسٍ نفسٌ تؤامرها
سيَّرها اللّه بالنصيحة والـ نسيةِ فاستدمجت مرائرها
جاءتك تحكي لك الأمور كما ينشُرُ بزَّ التجار ناشرها
حمَّلتُها صاحباً أخا ثقةٍ يظلُّ عُجباً بها يحاضرها

يبدو أن هذه الملحمة البغدادية قد أرسلت إلى الرجل الأول والعقل المدبر ثقة حاشية المأمون ذي الرئاستين الفضل بن سهل، وربما لم يكن في نية ناظمها، الخزيمي، عندما بدأ بنظمها أن يرسلها إلى الفضل، بل كانت له دوافعه النفسية للتعبير عما يخالجه من شجون لما أصاب مدينته ولا يزال يصيبها، فاسترسل في الحديث عن ذلك حتى بلغ مبلغاً كبيراً، ثم رأى أن يتوجه بكلامه إلى الفضل بن سهل صاحب الرأي الحاسم الحازم في الدولة الجديدة التي بدأ يلوح للناس أنها هي التي ستكون صاحبة الحول والطول في القابل من الأيام، ليرفع أمرهم إلى المأمون في استعجال البت وتثبيت الأمر.



ولاية العهد بين العباسيين والعلويين

المأمون وولاية العهد

قتل الأمين سنة ١٩٨هـ وبذلك صفت الأمور للمأمون وأصبح الخليفة غير المنازع. وكان عليه أن يبت أول ما يبت بأمر ولاية العهد، وهذه هي السنّة الطبيعية لكل الملوك في كل العصور.

ولكننا نرى المأمون يخرج على هذه السنة فلا يبت بأمر ولاية العهد، وتظل الدولة بلا ولي عهد طيلة ثلاث سنين، وقد كان في تصرفه هذا تعريض للمملكة لخطر مريع، فلو طرقه الموت وهو بدون ولي عهد لتواثب إلى وراثة سلطته المتواثبون، وقامت الفتن أي قيام...

وأي خليفة ـ ولو لم يكن في مثل عقل المأمون وحنكته ـ كان يدرك هذه الحقيقة، ويعرف أن تريّثه بتعيين خلف له فتحاً لباب من الفتن لا يعرف غير اللّه كيف يمكن أن يغلق.

والغريب في الأمر أنه في مثل حال المأمون، وفي سيرة من تقدمه من الملوك، منذ معاوية بن أبي سفيان وصولاً إليه هو، ليس في الأمر ما يوجب التردد ويقتضي التريث، فقد جرت عادة الملوك أن يكون أولياء عهودهم الأكبر سناً من أولادهم، والمأمون ليس عقيماً، فعنده ولده العباس، وهو ولي العهد المنتظر لولاية العهد منذ الساعة التي أعلنت فيها خلافة المأمون.

ولكن المأمون لم يعلن ولده ولياً لعهده، فماذا ينتظر؟ وماذا وراء هذا التواني في تسمية ولي عهده؟

لقد ورث المأمون مملكة مترامية الأطراف، وأمبراطورية تشمل رقعة من الأرض، وجموعاً من الناس، تجعلها المهابة المرهوبة.

لقد بلغت هذه الأمبراطورية ذروة قوتها في عهد أبيه الرشيد، ووصلت إليه بعد فتنة لم

يصعب عليه قمعها، وها هي الآن في يديه بلا منازع ولا معارض، وها هو في قوة شخصيته وشدة مراسه وحسن تدبيره ممسك بزمامها متصرف بأمورها.

إن المملكة التي بدت في عهد الرشيد في ذروة القوة، كانت في نفس الوقت تنطوي على مكامن الضعف.

وإنها، وهي في مظاهر التماسك والتوحد، كانت في واقعها في مزالق التفكك والتمزق.

ففي بلاد الشام قام سنة ١٧٤هـ تمرد عنيف، وفي سنة ١٨٠هـ قامت ثورة لم يمكن إخمادها إلّا بإرسال جعفر البرمكي. وكذلك قامت في الجزيرة سنة ١٧٨هـ حركة الوليد بن طريف الخارجي التي شكلت خطراً حقيقياً على الدولة، ولم ينته الخطر إلّا بإرسال يزيد ابن مزيد الشيباني، كما قامت حركات خوارجية أخرى كحركة العطاف الأزدي وحركة عبد السلام وحركة حمزة بن عبد اللّه الأزدي.

وفي الديلم قامت حركة يحيى بن عبد اللّه الحسني واشتدت إلى الحد الذي اضطر معه الرشيد أن يرسل لإخمادها حملة فيها خمسون ألف مقاتل.

وفي مصر قامت حركة تمرد سنة ١٧٨هـ لم تنته إلّا بإرسال حملة بقيادة هرثمة بن أعين. وفي السنة نفسها قام فيها تمرد آخر. وفي خراسان قام تمرد أبي الخطيب وهيب بن عبد اللّه النسائي.

إلى غير ذلك من الأحداث والثورات.

وخطا الرشيد نفسه الخطوة الأولى في تمزيق الدولة حين ولّى إبراهيم بن الأغلب بلاد إفريقيا على أن تكون ولايتها وراثية في أعقابه، مما كان مؤداه استقلال هذه البلاد وفصلها عن الدولة. ثم أتم الرشيد تقطيع الأوصال بتقسيم الدولة بين ولديه إلى قسمين استقل كل منهما عن القسم الآخر، فعادت الدولة الواحدة دولتين.

ثم قامت الحرب بين الأمين والمأمون وأورثت ما أورثت من التمزق والتفكك.

وجد المأمون نفسه على رأس أمبراطورية واسعة، لها كل مقومات الأمبراطوريات من جيوش وولاة وإدارات وخزائن أموال.

ولكنه بنظره البعيد رأى أنه ينقصها الشيء الذي إذا لم تحظ به، فهي سائرة إلى الاضمحلال، ولن تفيدها كل مظاهر القوة والعظمة، وكل ما لها من اتساع الرقعة وامتداد الحدود وكثرة الأموال والجنود.

هذا الشيء هو التماسك بين أجزائها، والالتحام بين قواها. لقد كان هو بقوة شخصيته

وحزمه وحسن تدبيره كفيلاً باطراد سيرها اطراداً لا يعيقه عائق، وكفيلاً كذلك بأن لا تتشقق أطرافها، ولا تتمزق قواعدها، ولكن من له بمن يضمن لها ذلك بعده؟

لقد كان أحوج ما تحتاجه الدولة هو القيادة ذات الكفاءة المتعددة الجوانب، كفاءة في الإدارة، وكفاءة في الأخلاق وحسن السيرة.

لو أن رجلاً غير المأمون ورث ذلك الملك العريض الذي ورثه المأمون، لما كان شغل تفكيره من يتولى الأمر بعده، فالقاعدة التي سنها معاوية بقيت قاعدة الحكام منذ عهده حتى عهد الرشيد، فالأبناء هم الذين يجب أن يرثوا الآباء في حكم المسلمين، ولو كانوا في مستوى يزيد بن معاوية.

لقد كانت المشكلة محلولة منذ البداية، أو بالأصح لم تكن هناك مشكلة ما دام للمأمون ابن لا يقل في شخصيته عمن كانوا قبله أولياء عهود منذ يزيد.

إن الأمر الطبيعي هنا أن يعهد المأمون بولاية العهد لولده العباس، ولم يكن في تفكير أحد أن الأمر سيكون غير ذلك.

ولكن المأمون كان طرازاً خاصاً بين الحكام. كانت مصلحة الدولة هي التي تهمه ومستقبل الدولة هو الذي يشغله، كان ذلك عنده فوق مصلحته ومصلحة ولده ومصلحة أسرته.

لقد رأى بعين البعيد النظر، العميق الاستنتاج، أن الدولة لكي تظل دولة قوية مترابطة متقدمة يجب أن تقودها يد حازمة صالحة رشيدة، وأن تكون على رأسها زعامة خارقة تستطيع أن تسير بها سليمة في الخضم المتلاطم الذي ينتظرها.

ولم ير في ابنه كفاءة القائد الذي يتخيله في هذا الظرف الاستثنائي الخطر، فتجاوز ابنه إلى من هم أقرب إليه من غيرهم، إلى إخوته، فلم ير فيهم الرجل المؤمل.

لقد كانت مصلحة الأمة هي التي تشغل المأمون، ومستقبل الوطن هو الذي يثير تفكيره. من هو الرجل المنقذ؟ من هو رجل الساعة في هذا الموقف الدقيق الذي يصير إليه أمر الإسلام والمسلمين؟

من هو الربان الذي يستطيع أن يقود السفينة سالمة في البحر العاصف المتواثب الذي ينتظرها؟

من هو الزعيم الذي يستطيع أن يموت المأمون قرير العين على الشعوب الإسلامية إذا سلم إليه زعامتها.

لقد ظل المأمون يدرس ويفكر ويستعرض الرجال ثلاث سنين بقي فيها منصب ولي العهد شاغراً، والدولة مهددة بالفوضى الدموية إذا طرأ طارىء على حياة المأمون.

ثم أعلن قراره بتنصيب علي بن موسى بن جعفر ولياً العهد. فكانت المفاجأة الكبرى التي لم تخطر في بال إنسان[١].

إنه علي بن موسى بن جعفر، إنه الذي تتجمع فيه كل صفات ما نطلق عليه في عصرنا الحاضر لقب رجل الدولة من إيمان وسيرة نقية وإرادة صلبة، وعزم وحزم وعلم.

إنه بطل الإسلام المنشود في زمن هو في أمس الحاجة إلى البطولات.

إن المأمون عرف كيف يضمن للدولة سيرها التقدمي بلا تعثر ولا تعسف حين عزم على تسليم زمامها بعده إلى علي بن موسى بن جعفر، وإذا كان علي الرضا في نظر فريق من الناس هو الإمام المنصوص عليه من أبيه، وإذا كان عندهم موضع التقديس فإنه عند التاريخ الصحيح، مضافاً إلى هذا، رجل من أفذاذ الرجال الذين لا يجود الزمن بأمثالهم كل يوم، والذين تعدهم الدنيا لأيامها العصيبة.

وقد كان يوم الإسلام في تلك الفترة يوماً شديداً عصيباً تقف فيه الدولة الإسلامية على مفترق طرق، فإما أن تجد من يقودها صعوداً إلى القمم العالية وإما أن تزل بها الأقدام في المنحدرات منحدراً بعد منحدر.

وها هو المأمون يهديه اللّه إلى رجل الإنقاذ. وهنا تتجلى حقيقتان طوتهما عن الأنظار تلك السطحية التي عولجت ولا تزال تعالج بها قضية ولاية العهد هذه.

الحقيقة الأولى: عظمة علي الرضا، عظمته لا كإمام فقط نتلقى عنه تعاليم الدين، فيفيض علماً وتقى وهداية وصلاحاً؛ بل عظمته أيضاً إنساناً، إنساناً تتجمع فيه قوة القيادة الشعبية، وقوة القيادة السياسية، وقوة القيادة الإدارية.

عظمة الزعيم والقائد والحاكم.

الحقيقة الثانية: إخلاص المأمون للأمة الإسلامية إخلاصاً لم يسبقه به سابق ولم يلحقه به لاحق، إخلاصاً ضحى فيه المأمون تضحية لم يعرفها التاريخ من قبل. فقد عرفنا الملوك يولون ولاية العهد لأولادهم مهما كان أمر هؤلاء الأولاد. هم أولياء العهود سواء كانوا أقوياء أو عاجزين، صالحين أو فاسدين. بل لقد عرفنا أكثر من ذلك، عرفنا أن بعض الملوك

(١) عمّم المأمون خبر اختياره علياً الرضا (ع) ولياً لعهده على جميع البلاد الإسلامية. يقول المقريزي في خططه (ج ١، ص ١٧٩): «فلما كان في المحرم سنة اثنتين ومئتين ورد كتاب المأمون، (والي مصر)، يأمره بالبيعة لولي عهده علي بن موسى الرضا».

كانوا يعهدون بولاية العهد لأكثر من ولد واحد من أولادهم واحداً بعد الآخر، فيعمل من يصير إليه الملك على إزالة أخيه المعهود إليه بعده من أبيه، يعمد إلى إزالته ليحل ابنه محله.

فعبد الملك بن مروان مثلاً عهد بولاية العهد لابنه الأكبر، (الوليد)، على أن يتولى الأمر بعده أخوه سليمان، وبعد سليمان بقية الإخوة.

ولكن الوليد بعد أن صار الحكم إليه قرر عزل أخيه سليمان عن ولاية العهد، وجعل ابنه مكان أخيه وبدأ الإعداد لإعلان ذلك بعد أن مهد له مع الولاة والقواد، ولكن الأجل عاجله فمات قبل إتمام الأمر.

وقام بنفس العمل الخليفة العباسي المنصور إذ كان الخليفة العباسي الأول، أبو العباس السفاح، قد عهد بولاية عهده إلى أخيه المنصور على أن يكون ولي عهد المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى. ولكن لما صار الأمر إلى المنصور أزاح عيسى عن ولاية عهده وجعلها لولده المهدي على أن يكون عيسى بعده، ثم إن المهدي خلع ابن عمه عيسى من ولايته وعقدها لولده الهادي.

وكذلك فعل الأمين فقد خلع أخاه المأمون من ولاية عهده وجعلها لولده. أما المأمون فقد كان الأمر بيده وكان ولي عهده الطبيعي ولده العباس، ولكن الدولة تحتاج إلى رجل أقوى من العباس، فتجاوز المأمون ولده وضحى به من أجل مصلحة الدولة ثم تجاوز إخوته بعد أن تجاوز ولده، تجاوز ولده وإخوته إلى من كان الكفؤ كل الكفؤ لقيادة الدولة فيما ينتظرها من زعازع. تجاوزهم جميعاً إلى الرضا علي بن موسى بن جعفر، وذلك إخلاص وتلك تضحية لم يسبق المأمون إليهما سابق، ولم يلحقه بعدهما لاحق...

وبعد أن شاءت إرادة اللّه أن لا يتم ما قصد إليه المأمون، فمات الإمام الرضا قبل المأمون ظل المأمون على إخلاصه وتضحيته، فوازن بين ابنه العباس وبين أخيه المعتصم، فوجد أن أخاه، مهما كان شأنه، يظل أكفأ من ابنه فنحى ابنه وجعل أخاه ولياً لعهده.

وتلك هي تضحية أخرى ينفرد بها المأمون على مدى التاريخ.

لقد شاءت مشيئة اللّه ـ ولا راد لمشيئته ـ أن لا يلي أمر المسلمين علي الرضا، وتحققت مخاوف المأمون وأخذت الدولة بالتدهور منذ وفاة المأمون وتولي المعتصم.

ولم يكن أحد أكثر شعوراً بالفاجعة التي حلت بالمسلمين بوفاة الرضا، من المأمون، ولم يحزن على الرضا أحد أكثر مما حزن المأمون، ولم يفض دمع أحد على علي بن موسى أكثر مما فاض دمع المأمون.

إنه لم يفجع بالرجل الذي أحبه حباً شخصياً فقط، بل فجع كذلك في آماله بإنقاذ مستقبل الدولة الإسلامية، وتلك هي أكبر الفواجع...

قدوم الرضا (ع) إلى مرو

قال الطبري: في هذه السنة، أي سنة ٢٠٠ هـ، وجه المأمون رجاء بن أبي الضحاك وهو عم الفضل بن سهل وفرناس الخادم لإشخاص علي بن موسى بن جعفر بن محمد ومحمد بن جعفر.

وروى الصدوق في **العيون** بسنده عن رجاء بن أبي الضحاك قال: «بعثني المأمون في إشخاص علي بن موسى الرضا من المدينة وأمرني أن آخذ به على طريق البصرة والأهواز وفارس ولا آخذ به على طريق قم وأمرني أن أحفظه بنفسي بالليل والنهار حتى أقدم به عليه فكنت معه من المدينة إلى مرو». وجاء في **أعيان الشيعة**: «يأتي عن أبي الفرج والمفيد أنه كان المتولي لإشخاصهما الجلودي واسمه عيسى بن يزيد ويبعده أن الجلودي كان من قواد الرشيد وكان عدواً للرضا فلم يكن المأمون ليبعثه في إشخاصه، وأورد المفيد في **الإرشاد** بعض ما أورده أبو الفرج الأصفهاني والظاهر أن ما اتفقا فيه نقله المفيد من المقاتل لأن نسخته كانت عنده بخط أبي الفرج كما صرح به في موضع آخر من الإرشاد فما اتفقا فيه نقلناه عنهما وما انفرد به أحدهما نقلناه عنه خاصة، قالوا: كان المأمون قد أنفذ إلى جماعة من آل أبي طالب فحملهم إليه من المدينة وفيهم الرضا علي بن موسى عليهما السلام فأخذ بهم على طريق البصرة حتى جاء بهم وكان المتولي لإشخاصهم المعروف بالجلودي قال أبو الفرج: من أهل خراسان».

وروى الكليني أن المأمون كتب إلى الرضا (ع): لا تأخذ على طريق الجبل وقم وخذ على طريق البصرة والأهواز وفارس. وفي رواية الصدوق: كتب إليه المأمون: لا تأخذ على طريق الكوفة وقم فحمل على طريق البصرة والأهواز وفارس وهي شيراز وما والاها. وذلك لأن الذاهب من العراق إلى خراسان له طريقان، (أحدهما)، طريق البصرة ـ الأهواز ـ فارس؛ والثاني طريق بلاد الجبل وهي كرمانشاه ـ همذان ـ قم.

وقال الحاكم في **تاريخ نيسابور**: أشخصه المأمون من المدينة إلى البصرة ثم إلى الأهواز ثم إلى فارس ثم إلى نيسابور إلى أن أخرجه إلى مرو وكان ما كان.

قال أبو الفرج والمفيد في تتمة كلامهما السابق: فقدم بهم، أي بالجماعة من آل أبي طالب، الجلودي على المأمون فأنزلهم داراً وأنزل الرضا علي بن موسى عليهما السلام داراً قال المفيد: وأكرمه وعظّم أمره.

البيعة

قال المفيد: وجلس المأمون للخاصة في يوم خميس وخرج الفضل بن سهل فأعلم الناس برأي المأمون في علي بن موسى الرضا عليهما السلام وأنه قد ولاه عهده وسماه الرضا، وأمرهم بلبس الخضرة والعود لبيعته في الخميس الآخر على أن يأخذوا رزق سنة. فلما كان ذلك اليوم ركب الناس على طبقاتهم من القواد والحجاب والقضاة وغيرهم في الخضرة وجلس المأمون ووضع للرضا وسادتين عظيمتين حتى لحق بمجلسه وفراشه وأجلس الرضا عليهما في الخضرة وعليه عمامة وسيف ثم أمر ابنه العباس بن المأمون أن يبايع له أول الناس، فبايعه الناس ووضعت البدر وقامت الخطباء والشعراء فجعلوا يذكرون فضل الرضا «ع» وما كان المأمون في أمره، ثم قال المأمون للرضا «ع»: اخطب الناس وتكلم فيهم فحمد اللّه وأثنى عليه وقال: «إن لنا عليكم حقاً برسول اللّه ﷺ ولكم علينا حقاً به فإذا أنتم أديتم إلينا ذلك وجب علينا الحق لكم». ولم يذكر عنه غير هذا في ذلك المجلس. وروى الصدوق في **العيون والأمالي**: صعد المأمون المنبر ليبايع علي بن موسى الرضا (ع) فقال: أيها الناس جاءتكم بيعة علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب واللّه لو قرئت هذه الأسماء على الصم والبكم لبرئوا بإذن اللّه عز وجل.

وروى الصدوق في **العيون**: كانت البيعة للرضا عليه السلام لخمس خلون من شهر رمضان سنة ٢٠١هـ.

وقال المفيد وأبو الفرج: وأمر المأمون فضربت له الدراهم وطبع عليها اسم الرضا (ع) وخطب للرضا (ع) في كل بلد بولاية العهد. قال أبو الفرج: وقال المفيد: روى أحمد بن محمد بن سعيد قال حدثني يحيى بن الحسن العلوي قال حدثني من سمع عبد الحميد بن سعيد يخطب في تلك السنة على منبر رسول اللّه ﷺ بالمدينة فقال في الدعاء له: اللهم وأصلح ولي عهد المسلمين علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

ستة آباء هم ما هم أفضل من يشرب صوب الغمام

عهد المأمون للرضا (ع)

كتب المأمون بخطه ومن إنشائه عهداً للرضا «ع» بولاية العهد وأشهد عليه، وكتب عليه الرضا «ع» بخطه وذكره عامة المؤرخين. قال علي بن عيسى الإربلي في **كشف الغمة**: في سنة ٦٧٠ وصل من مشهده الشريف أحد قوامه ومعه العهد الذي كتبه المأمون بخط يده وبين سطوره وفي ظهره بخط الإمام عليه السلام وما هو مسطور فقبلت مواقع أقلامه

وسرحت طرفي في رياض كلامه وعددت الوقوف عليه من منن اللّه وإنعامه ونقلته حرفاً حرفاً وهو بخط المأمون:

بسم اللّه الرحمن الرحيم. هذا كتاب كتبه عبد اللّه بن هارون الرشيد أمير المؤمنين لعلي بن موسى بن جعفر ولي عهده أما بعد فإن اللّه عز وجل اصطفى الإسلام ديناً واصطفى له من عباده رسلاً دالين عليه وهادين إليه يبشر أولهم آخرهم ويصدق تاليهم ماضيهم حتى انتهت نبوة اللّه إلى محمد ﷺ على فترة من الرسل ودروس من العلم وانقطاع من الوحي واقتراب من الساعة فختم اللّه به النبيين وجعله شاهداً لهم ومهيمناً عليهم وأنزل عليه كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد بما أحل وحرم ووعد وأوعد وحذر وأنذر وأمر به ونهى عنه لتكون له الحجة البالغة على خلقه ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة وإن اللّه لسميع عليم﴾ فبلغ عن اللّه رسالته ودعا إلى سبيله بما أمره به من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ثم بالجهاد والغلظة حتى قبضه اللّه إليه واختار له ما عنده ﷺ فلما انقضت النبوة وختم اللّه بمحمد ﷺ الوحي والرسالة جعل قوام الدين ونظام أمر المسلمين بالخلافة وإتمامها وعزها والقيام بحق اللّه فيها بالطاعة التي بها تقام فرائض اللّه وحدوده وشرائع الإسلام وسننه ويجاهد بها عدوه فعلى خلفاء اللّه طاعته فيما استحفظهم واسترعاهم من دينه وعباده وعلى المسلمين طاعة خلفائهم ومعاونتهم على إقامة حق اللّه وعدله وأمن السبيل وحقن الدماء وصلاح ذات البين وجمع الألفة وفي خلاف ذلك اضطراب حبل المسلمين واختلالهم واختلاف ملتهم وقهر دينهم واستعلاء عدوهم وتفرق الكلمة وخسران الدنيا والآخرة فحق على من استخلفه اللّه في أرضه وائتمنه على خلقه أن يجهد للّه نفسه ويؤثر ما فيه رضى اللّه وطاعته ويعتد لما اللّه مواقفه عليه ومسائله عنه ويحكم بالحق ويعمل بالعدل فيما حمله اللّه وقلده فإن اللّه عز وجل يقول لنبيه داود «ع» ﴿يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل اللّه إن الذين يضلون عن سبيل اللّه لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾، وقال اللّه عز وجل: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾، وبلغنا أن عمر بن الخطاب قال: لو ضاعت سخلة بشاطىء الفرات لتخوفت أن يسألني اللّه عنها، وايم اللّه إن المسؤول عن خاصة نفسه الموقوف على عمله فيما بينه وبين اللّه ليعرض على أمر كبير وعلى خطر عظيم فكيف بالمسؤول عن رعاية الأمة وباللّه الثقة وإليه المفزع والرغبة في التوفيق والعصمة والتسديد والهداية إلى ما فيه ثبوت الحجة والفوز من اللّه بالرضوان والرحمة وأنظر الأمة لنفسه أنصحهم للّه في دينه وعباده من خلائفه في أرضه من عمل

بطاعة اللّه وكتابه وسنة نبيه عليه السلام في مدة أيامه وبعدها وأجهد رأيه ونظره فيمن يوليه عهده ويختاره لإمامة المسلمين ورعايتهم بعده وينصبه علماً لهم ومفزعاً في جمع ألفتهم ولمّ شعثهم وحقن دمائهم والأمن بإذن اللّه من فرقتهم وفساد ذات بينهم واختلافهم ورفع نزغ الشيطان وكيده عنهم فإن اللّه عز وجل جعل العهد بعد الخلافة من تمام أمر الإسلام وكماله وعزه وصلاح أهله وألهم خلفاءه من توكيده لمن يختارونه له من بعدهم ما عظمت به النعمة وشملت فيه العافية ونقض اللّه بذلك مكر أهل الشقاق والعداوة والسعي في الفرقة والتربص للفتنة ولم يزل أمير المؤمنين منذ أفضت إليه الخلافة فاختبر بشاعة مذاقها وثقل محملها وشدة مؤونتها وما يجب على من تقلدها من ارتباط طاعة اللّه ومراقبته فيما حمله منها فأنصب بدنه وأسهر عينه وأطال فكره فيما فيه عز الدين وقمع المشركين وصلاح الأمة ونشر العدل وإقامة الكتاب والسنة ومنعه ذلك من الخفض والدعة ومهنأ العيش علماً بما اللّه سائله عنه ومحبة أن يلقى اللّه مناصحاً له في دينه وعباده ومختاراً لولاية عهده ورعاية الأمة من بعده أفضل ما يقدر عليه في ورعه ودينه وعلمه وأرجاهم للقيام في أمر اللّه وحقه مناجياً له تعالى بالاستخارة في ذلك ومسألته الهامة ما فيه رضاه وطاعته في آناء ليله ونهاره معملاً في طلبه والتماسه في أهل بيته من ولد عبد اللّه بن العباس وعلي بن أبي طالب فكره ونظره مقتصراً ما علم حاله ومذهبه فهم على علمه وبالغاً في المسألة عمن خفي عليه أمره جهده وطاقته حتى استقصى أمورهم معرفة وابتلى أخبارهم مشاهدة واستبرى أحوالهم معاينة وكشف ما عندهم مساءلة فكانت خبرته بعد استخارته للّه وإجهاده نفسه في قضاء حقه في عباده وبلاده في البيتين جميعاً علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب لما رأى من فضله البارع وعلمه الناصع وورعه الظاهر وزهده الخالص وتخليه من الدنيا وتسلمه من الناس وقد استبان له ما لم تزل الأخبار عليه متواطية والألسن عليه متفقة والكلمة فيه جامعة ولما لم يزل يعرفه به من الفضل يافعاً وناضياً وحدثاً ومكتهلاً فعقد له بالعهد والخلافة من بعده واثقاً بخيرة اللّه في ذلك إذ علم اللّه أنه فعله إيثاراً له وللدين ونظراً للإسلام والمسلمين وطلباً للسلامة وثبات الحق والنجاة في اليوم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين ودعا أمير المؤمنين ولده وأهل بيته وخاصته وقواده وخدمه فبايعوا مسرعين مسرورين عالمين بإيثار أمير المؤمنين طاعة اللّه على الهوى في ولده وغيرهم ممن هو أشبك منه رحماً وأقرب قرابة وسماه الرضا إذ كان رضاً عند أمير المؤمنين فبايعوا معشر أهل بيت أمير المؤمنين ومن بالمدينة المحروسة من قواده وجنده وعامة المسلمين لأمير المؤمنين وللرضا من بعده علي بن موسى على اسم اللّه وبركته وحسن قضائه لدينه وعباده بيعة مبسوطة إليها أيديكم منشرحة لها صدوركم عالمين بما

أراد أمير المؤمنين بها وآثر طاعة اللّه والنظر لنفسه ولكم فيها شاكرين اللّه على ما ألهم أمير المؤمنين من قضاء حقه في رعايتكم وحرصه على رشدكم وصلاحكم راجين عائدة ذلك في جمع ألفتكم وحقن دمائكم ولمّ شعثكم وسدّ ثغوركم وقوة دينكم واستقامة أموركم وسارعوا إلى طاعة اللّه وطاعة أمير المؤمنين فإنه الأمر الذي إن سارعتم إليه وحمدتم اللّه عليه عرفتم الحظ فيه إن شاء اللّه وكتب بيده في يوم الاثنين لسبع خلون من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين.

وكتاب الرضا (ع) على ظهر العهد

بسم اللّه الرحمن الرحيم. الحمد للّه الفعال لما يشار لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وصلاته على نبيه محمد خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين. أقول وأنا علي الرضا بن موسى بن جعفر إن أمير المؤمنين عضده اللّه بالسداد ووفقه للرشاد عرف من حقنا ما جهله غيره فوصل أرحاماً قطعت وأمن نفوساً فزعت بل أحياها وقد تلفت وأغناها إذ افتقرت مبتغياً رضى رب العالمين لا يريد جزاء من غيره وسيجزي اللّه الشاكرين ولا يضيع أجر المحسنين وإنه جعل إليّ عهده والإمرة الكبرى إن بقيتُ بعده فمن حل عقدة أمر اللّه بشدها وفصم عروة أحب اللّه إيثاقها فقد أباح حريمه وأحل محرمه إذا كان بذلك زارياً على الإمام منتهكاً حرمة الإسلام بذلك جرى السالف فصبر منه على الفلتات ولم يعترض بعدها على العزمات خوفاً من شتات الدين واضطراب حبل المسلمين ولقرب أمر الجاهلية ورصد فرصة تنتهز وبائقة تبتدر وقد جعلت اللّه على نفسي إذا استرعاني أمر المسلمين وقلدني خلافته العمل فيهم عامة وفي بني العباس بن عبد المطلب خاصة بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وأن لا أسفك دماً حراماً ولا أبيح فرجاً ولا مالاً إلّا ما سفكته حدود اللّه وأباحته فرايضه وأن أتخير الكفاة جهدي وطاقتي وجعلت بذلك على نفسي عهداً مؤكداً يسألني اللّه عنه فإنه عز وجل يقول ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾ وإن أحدثت أو غيرت أو بدلت كنت للغير مستحقاً وللنكال متعرضاً وأعوذ باللّه من سخطه وإليه أرغب في التوفيق لطاعته والحؤول بيني وبين معصيته في عافية لي وللمسلمين ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن الحكم إلّا للّه يقضي بالحق وهو خير الفاصلين﴾ لكني امتثلت أمر أمير المؤمنين وآثرت رضاه واللّه يعصمني وإياه وأشهدت اللّه على نفسي بذلك وكفى باللّه شهيداً وكتبت بخطي بحضرة أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه والفضل بن سهل وسهل بن الفضل ويحيى بن أكثم وعبد اللّه بن طاهر وثمامة بن أشرس وبشر بن المعتمر وحماد بن النعمان في شهر رمضان سنة إحدى ومائتين.

الشهود على العهد

شهد يحيى بن أكثم على مضمون هذا المكتوب ظهره وبطنه وهو يسأل اللّه أن يعرف أمير المؤمنين وكافة المسلمين بركة هذا العهد والميثاق، وكتب بخطه في التاريخ المبين فيه عبد اللّه بن طاهر بن الحسين أثبت شهادته فيه بتاريخه شهد حماد بن النعمان بمضمونه ظهره وبطنه وكتب بيده في تاريخه بشر بن المعتمر يشهد بمثل ذلك.

رسم أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه قراءة هذه الصحيفة التي هي صحيفة الميثاق نرجو أن يجوز بها الصراط ظهرها وبطنها بحرم سيدنا رسول اللّه ﷺ بين الروضة والمنبر على رؤوس الأشهاد بمرأى ومسمع من وجوه بني هاشم وسائر الأولياء والأجناد بعد استيفاء شروط البيعة عليهم بما أوجب أمير المؤمنين الحجة على جميع المسلمين ولتبطل الشبهة التي كانت اعترضت آراء الجاهلين وما كان اللّه ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه وكتب الفضل بن سهل بأمر أمير المؤمنين بالتاريخ فيه.

هذا ما ذكره صاحب **كشف الغمة** وقال سبط ابن الجوزي في **تذكرة الخواص**: ثم قرىء العهد في جميع الآفاق وعند الكعبة وبين قبر رسول اللّه ﷺ ومنبره وشهد فيه خواص المأمون وأعيان العلماء فمن ذلك شهادة الفضل بن سهل كتب بخطه شهدت على أمير المؤمنين عبد اللّه المأمون وعلى أبي الحسن علي بن موسى بن جعفر بما أوجبا به الحجة عليهما للمسلمين وأبطلا به شبهة الجاهلين وكتب فضل بن سهل في التاريخ المذكور وشهد عبد اللّه بن طاهر بمثل ذلك وشهد بمثله يحيى بن أكثم القاضي وحماد ابن أبي حنيفة وأبو بكر الصولي والوزير المغربي وبشر بن المعتمر في خلق كثير.

صورة الدرهم الذي ضرب في عهد الرضا (ع) بأمر المأمون

كما أورده صاحب كتاب **مطلع الشمس** واستشهد على ذلك جماعة من العلماء والمجتهدين ووضعوا خطوطهم وخواتيمهم وأصل الصورة بالخط الكوفي ونقشت أيضاً بالخط النسخ وهذه صورة الخط النسخ.

كتب على أحد الجانبين في الوسط في سبعة سطور هكذا:

اللّه

محمد رسول اللّه

المأمون خليفة اللّه

مما أمر به الأمير الرضا

ولي عهد المسلمين علي بن موسى

ابن علي بن أبي طالب

ذو الرياستين

وكتب عن الجانب الآخر في الوسط في أربعة سطور هكذا:

لا إله إلّا

اللّه وحده

لا شريك له

المشرق

وكتب على أحد جانبي الدرهم بشكل دائرة هكذا:

محمد رسول اللّه أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وعلى الجانب الآخر بشكل دائرتين داخلة وخارجة فعلى الداخلة هكذا:

بسم اللّه ضرب هذا الدرهم بمدينة أصبهان سنة أربع ومائتين.

وعلى الخارجة هكذا:

في بضع سنين للّه الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون.

ومما ينبغي التنبه له أن كتابة هذا الدرهم تؤيد أن وفاة الرضا «ع» سنة ٢٠٦هـ وتوهن ما قيل إن وفاته سنة ٢٠٣هـ أو أقل. وضرب نقود الدولة باسم الرضا هو تطبيق عملي لولاية العهد.

الإمام الرضا (ع) ودعبل الخزاعي

وقدم الشاعر دعبل الخزاعي على الرضا عليه السلام فأنشده القصيدة التالية:

تجاوبن بالإرنان والزفرات نوائح عجم اللفظ والنطقات

يخبرن بالأنفاس عن سر أنفس أسارى هوى ماض وآخر آت

فأسعدن أو أسعفن حتى تقوضت صفوف الدجى بالفجر منهزمات

على العرصات الخاليات من المهى سلام شج صبٌّ على العرصات

فعهدي بها خضر المعاهد مألفاً من العطرات البيض والخفرات

ليالي يعدين الوصال على القلى ... ويعدي تدانينا على الغربات
وإذ هن يلحظن العيون سوافراً ... ويسترن بالأيدي على الوجنات
وإذ كل يوم لي بلحظي نشوة ... يبيت لها قلبي على نشوات
فكم حسرات هاجها بمحسّر ... وقوفي يوم الجمع من عرفات
ألم تر للأيام ما جر جورها ... على الناس من نقص وصول شتات
ومن دول المستهزئين ومن غدا ... بهم طالباً للنور في الظلمات
فكيف ومن أنى يطالب زلفة ... إلى اللّه بعد الصوم والصلوات
سوى حب أبناء النبي ورهطه ... وبغض بني الزرقاء والعبلات
وهند وما أدت سمية وابنها ... أولو الكفر في الإسلام والفجرات
هم نقضوا عهد الكتاب وفرضه ... ومحكمه بالزور والشبهات
ولم تك إلّا محنة كشفتهم ... بدعوى ضلال من هن وهنات
تراث بلا قربى وملك بلا هدى ... وحكم بلا شورى بغير هداة
رزايا أرتنا خضرة الأفق حمرة ... وردت أجاجاً طعم كل فرات
وما سهلت تلك المذاهب فيهم ... على الناس إلّا بيعة الفلتات
وما قيل أصحاب الفعيلة جهرة ... بدعوى تراث في الضلال بتات
ولو قلد الموصى إليه زمامها ... لزمت بمأمون على العثرات
أخي خاتم الرسل المصفى من القذى ... ومفترس الأبطال في الغمرات
فإن جحدوا كان الغدير شهيده ... وبدر وأحد شامخ الهضبات
وآي من القرآن تتلى بفضله ... وإيثاره بالقوت في اللزبات
وغر خلال أدركته بسبقها ... مناقب كانت فيه مؤتنفات
مناقب لم تدرك بخير ولم تنل ... بشيء سوى حد القنا الذربات
نجيّ لجبريل الأمين وأنتم ... عكوف على العزّى معاً ومناة
بكيت لرسم الدار من عرفات ... وأذريت دمع العين بالعبرات
وفك عرى صبري وهاجت صبابتي ... رسوم ديار قد عفت وعرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات
لآل رسول اللّه بالخيف من منى ... وبالبيت والتعريف والجمرات
ديار علي والحسين وجعفر ... وحمزة والسجاد ذي الثفنات
ديار لعبد اللّه والفضل صنوه ... نجيّ رسول اللّه في الخلوات
وسبطي رسول اللّه وأبني وصيه ... ووارث علم اللّه والحسنات

منازل وحي اللّه ينزل بينها على أحمد المذكور في السورات
منازل قوم يهتدى بهداهم فتؤمن منهم زلة العثرات
منازل كانت للصلاة وللتقى وللصوم والتطهير والحسنات
منازل لا فعل يحل بربعها ولا ابن فعال هاتك الحرمات
ديار عفاها جور كل منابذ ولم تعف للأيام والسنوات
فيا وارثي علم النبي وآله عليكم سلام دائم النفحات
لقد أمنت نفسي بكم في حياتها وإني لأرجو الأمن بعد مماتي
قفا نسأل الدار التي خف أهلها متى عهدها بالصوم والصلوات
وأين الأولى شطت بهم غربة النوى أفانين في الآفاق مفترقات
هم أهل ميراث النبي إذا اعتزوا وهم خير سادات وخير حماة
إذا لم نناج اللّه في صلواتنا بأسمائهم لم يقبل الصلوات
مطاعيم في الإعسار في كل مشهد لقد شرفوا بالفضل والبركات
وما الناس إلّا غاصب ومكذب ومضطغنٌ ذو إحنة وترات
إذا ذكروا قتلى ببدر وخيبر ويوم حنين أسبلوا العبرات
فكيف يحبون النبي ورهطه وهم تركوا أحشاءهم وغرات
لقد لاينوه في المقال وأضمروا قلوباً على الأحقاد منطويات
فإن لم تكن إلّا بقربى محمد فهاشم أولى من هن وهنات
سقى اللّه قبراً بالمدينة غيثه فقد حل فيه الأمن بالبركات
نبي الهدى صلى عليه مليكه وبلغ عنا روحه النحفات
وصلى عليه اللّه ما ذرّ شارق ولاحت نجوم الليل مبتدرات

* * *

أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً وقد مات عطشاناً بشط فرات
إذاً للطمت الخد فاطم عنده وأجريت دمع العين في الوجنات
أفاطم قومي يا ابنة الخير واندبي نجوم سماوات بأرض فلاة
لقد آمنت نفسي بكم في حياتها وإني لأرجو الأمن بعد مماتي
قبور بكوفان وأخرى بطيبة وأخرى بفخ نالها صلواتي
وأخرى بأرض الجوز جان محلها وقبر بباخمري لدى الغربات
وقبر ببغداد لنفس زكية تضمنها الرحمن في الغرفات
فأما الممضات التي لست بالغاً مبالغها مني بكنه صفات

قبور بجنب النهر من أرض كربلا ... معرسهم فيها بشط فرات
توفوا عطاشى بالفرات فليتني ... توفيت فيهم قبل حين وفاتي
إلى اللّه أشكو لوعة عند ذكرهم ... سقتني بكأس الثكل والفظعات
أخاف بأن ازدراهم فتشوقني ... مصارعهم بالجزع فالنخلات
تقسمهم ريب المنون فما ترى ... لهم عقوة مغشية الحجرات
إخلان منهم بالمدينة عصبة ... مدينين أنضاء من اللزبات
قليلة زوار سوى أن زوراً ... من الضبع والعقبان والرخمات
لهم كل يوم تربة بمضاجع ... ثوت في نواحي الأرض مفترقات
تنكب لأواء السنين جوارهم ... ولا تصطليهم جمرة الجمرات
وقد كان منهم في الحجاز وأرضها ... مغاوير نحارون في الأزمات
حمى لم تزره المدنيات وأوجه ... تضيء لدى الأستار في الظلمات
إذا وردوا خيلاً بسمر من القنا ... مساعير حرب أقحموا الغمرات
وإن فخروا يوماً أتوا بمحمد ... وجبريل والفرقان ذي السورات
وعدوا علياً ذا المناقب والعلى ... وفاطمة الزهراء خير بنات
وحمزة والعباس ذا الهدي والتقى ... وجعفراً الطيار في الحجبات
أولئك لا منتوج هند وحزبها ... سمية من نوكى ومن قذرات
ستسأل فعل عنهم وفعيلها ... وبيعتهم من أفجر الفجرات
هم منعوا الآباء عن أخذ حقهم ... وهم تركوا الأبناء رهن شتات
وهم عدلوها عن وصي محمد ... فبيعتهم جاءت على الغدرات
وليهم صنو النبي محمد ... أبو الحسن الفراج للغمرات
ملامك في آل النبي فإنهم ... أحباي ما داموا وأهل ثقاتي
تخيرتهم رشداً لنفسي إنهم ... على كل حال خيرة الخيرات
نبذت إليهم بالمودة صادقاً ... وسلمت نفسي طائعاً لولاتي
فيا رب زدني في هواي بصيرة ... وزد حبهم يا رب في حسناتي
سأبكيهم ما حج للّه راكب ... وما ناح قمريٌّ على الشجرات
وإني لمولاهم وقالٍ عدوهم ... وإني لمحزون بطول حياتي
بنفسي أنتم من كهول وفتية ... لفك عناة أو لحمل ديات
وللخيل لما قيد الموت خطوها ... فأطلقتم منهن بالذربات
أحب قصي الرحم من أجل حبكم ... وأهجر فيكم أسرتي وبناتي

وأكتم حبيكم مخافة كاشح عنيد لأهل الحق غير مواتي
فيا عين بكيهم وجودي بعبرة فقد آن للتسكاب والهملات
لقد خفت في الدنيا وأيام سعيها وإني لأرجو الأمن بعد وفاتي
ألم ترني مذ ثلاثين حجة أروح وأغدو دائم الحسرات
أرى فيأهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيئهم صفرات
فكيف أداوي من جوى لي والجوى أمية أهل الفسق والنبعات
وآل زياد في الحرير مصونة وآل رسول اللّه في الفلوات
سأبكيهم ما ذر في الأرض شارق ونادى منادي الخير بالصلوات
وما طلعت شمس وحان غروبها وبالليل أبكيهم وبالغدوات
ديار رسول اللّه أصبحن بلقعاً وآل زياد تسكن الحجرات
وآل رسول اللّه تدمى نحورهم وآل زياد آمنو السربات
وآل رسول اللّه تسبى حريمهم وآل زياد ربة الحجلات
وآل رسول اللّه نحف جسومهم وآل زياد حفل القصرات
إذا وتروا مدوا إلى واتريهم أكفاً عن الأوتار منقبضات
فلولا الذي أرجوه في اليوم أو غد تقطع نفسي إثرهم حسراتي
خروج إمام لا محالة خارج يقوم على اسم اللّه والبركات
يميز فينا كل حق وباطل ويجزي على النعماء والنقمات
فيا نفس طيبي ثم يا نفس أبشري فغير بعيد كُلُّ ما هو آتي
ولا تجزعي من مدة الجور إنني أرى قوتي قد آذنت بثبات
فإن قرب الرحمن من تلك مدتي وأخّر من عمري ووقت وفاتي
شفيت ولم أترك لنفسي غصة ورويت منهم منصلي وقناتي
فإني من الرحمن أرجو بحبهم حياة لدى الفردوس غير تبات
عسى اللّه أن يرتاح للخلق إنه إلى كل قوم دائم اللحظات
فإن قلت عرفاً أنكروه بمنكر وغطوا على التحقيق بالشبهات
تقاصر نفسي دائماً عن جدالهم كفاني ما ألقى من العبرات
أحاول نقل الصم عن مستقرها وإسماع أحجار من الصلدات
فحسبي منهم أن أبوء بغصة تردد في صدري وفي لهواتي
فمن عارف لم ينتفع ومعاند تميل به الأهواء للشهوات

قال ابو عمرو الكشي بلغني أن دعبل بن علي وفد على أبي الحسن الرضا (ع) بخراسان

فلما دخل عليه قال إني قد قلت قصيدة وجعلت في نفسي أن لا أنشدها أحداً أولى منك فقال هاتها فأنشد قصيدته التي يقول فيها:

ألم ترني مذ ثلاثين حجة ... أروح وأغدو دائم الحسرات
أرى فيأهم في غيرهم متقسماً ... وأيديهم من فيئهم صفرات

فلما فرغ من إنشادها قام أبو الحسن (ع) ودخل منزله وبعث إليه بخرقة فيها ستمائة دينار وقال للجارية قولي له يقول لك مولاي استعن بهذه على سفرك واعذرنا فقال دعبل لا والله ما هذا أردت ولا له خرجت ولكن قولي له هب لي ثوباً من ثيابك فردها عليه أبو الحسن (ع) وقال له خذها وبعث إليه بجبة من ثيابه. وروى الصدوق في **العيون** في هذا الخبر بوجه أبسط فروى بسنده عن عبد السلام بن صالح الهروي قال دخل دعبل بن علي الخزاعي على أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام بمرو فقال يا ابن رسول الله إني قد قلت فيكم قصيدة وآليت على نفسي أن لا أنشدها أحداً قبلك فقال: «مدارس آيات»، البيت، فلما بلغ إلى قوله «أرى فيأهم»، البيت، بكى أبو الحسن وقال صدقت يا خزاعي فما بلغ إلى قوله:

إذا وتروا مدوا إلى واتريهم ... أكفاً عن الأوتار منقبضات

جعل أبو الحسن يقلب كفيه ويقول أجل والله منقبضات. فلما بلغ إلى قوله:

لقد خفت في الدنيا وأيام سعيها ... وإني لأرجو الأمن بعد وفاتي

قال الرضا عليه السلام آمنك الله يوم الفزع الأكبر.

وفي **تاريخ دمشق** أن المأمون لما ثبت قدمه في الخلافة وضرب الدنانير باسمه أقبل يجمع الآثار في فضائل آل الرسول فتناهى إليه فيما تناهى من فضائلهم قول دعبل:

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالركن والتعريف والجمرات

فما زالت تردد في صدر المأمون حتى قدم عليه دعبل فقال له أنشدني قصيدتك التائية ولا بأس عليك ولك الأمان من كل شيء فيها فأنا أعرفها وقد رويتها إلّا أني أحب أن أسمعها من فيك فأنشده حتى صار إلى هذا الموضع:

ألم ترني مذ ثلاثين حجة ... أروح وأغدو دائم الحسرات
أرى فيئهم في غيرهم متقسماً ... وأيديهم من فيئهم صفرات
فآل رسول الله نحف جسومها ... وآل زياد غلظ القصرات
بنات زياد في الخدور مصونة ... وبنت رسول الله في الفلوات

فبكى المأمون حتى اخضلت لحيته وجرت دموعه على نحره.

ويروي دعبل ما جرى له عند مغادرته مرو عائداً إلى العراق قال:

وكررت إلى العراق فلما صرت ببعض الطريق خرج علينا أكراد يعرفون بالشاذنجان فسلبوني وسلبوا القافلة وكان ذلك في يوم مطير فاعتزلت في قميص خلق قد بقي عليّ وكبر أسفي على الثوب والمنشفة التي وهبها لي الرضا عليه السلام وجعلت أحدث نفسي أنني أسألهم إياها فبينا أنا في غمرة الفكر إذ مر بي أحد الأكراد فلما رأى نهاب القافلة أنشد:

أرى فيئهم في غيرهم متقسماً وأيديهم في فيئهم صفرات

ثم بكى توجعاً لأهل البيت عليهم السلام واستمر في إنشاد القصيدة وهو يبكي فلما رأيت ذلك عجبت من لص كردي يتشيع وطمعت في القميص والمنشفة فدنوت منه فقلت يا سيدي لمن هذا الشعر فقال ما أنت وذاك ويلك، قلت لي فيه سبب أخبرك به قال هذه القصيدة صاحبها أشهر من أن يجهل. قلت فمن هو قال دعبل شاعر آل محمد صلوات اللّه عليهم وجزاه خيراً. قلت فأنا واللّه دعبل وهذه قصيدتي فقال أتدري ما تقول قلت الأمر أشهر من ذلك سل من أحببت من أهل القافلة يخبرك بصحة قولي قال إذاً واللّه لا يذهب لأحد من القافلة خلال فما فوقه والحمد للّه الذي أقدرني على قضاء حقك يا شاعر آل محمد. ثم نادى في الناس من أخذ شيئاً فليرده على صاحبه فرد عليّ وعلى الناس جميع أموالهم حتى لم يضع لأحد منا عقال فلما وصلت قم أعطيت بالمبطنة ألف دينار فقلت لا واللّه ولا خرقة منها فلما خرجت منها وقف لي بعض أحداث قم فقطعوا علي الطريق وأخذوا المبطنة فعدت إلى قم وناشدتهم بصاحب المبطنة فاعترفوا لي بها وقالوا لم نفعل هذا إلّا رغبة في التبرك بها وما كنا نطوي عنك علم ما فعلنا فخذ الألف دينار وأعطنا أي القشرين شئت فاخترت البطانة لقربها من جسمه صلى اللّه عليه وأعطوني ألف دينار ثمن الظهارة».

الرأي الآخر

أما من لا يرون رأينا، فإننا إنصافاً لهم نسجل لهم هنا آراءهم ليكون القارىء على بينة من ذلك:

روى الصدوق في كتاب **عيون أخبار الرضا** بسنده عن ياسر الخادم: قال لما كان بيننا وبين طوس سبعة منازل اعتلّ أبو الحسن «ع» فدخلنا طوس وقد اشتدت به العلة فبقينا بطوس أياماً فكان المأمون يأتيه في كل يوم مرتين.

وقال المجلسي في **البحار**: إعلم أن أصحابنا وغيرهم اختلفوا في أن الرضا «ع» هل مات حتف أنفه أو مضى شهيداً بالسم وهل سمه المأمون أو غيره والأشهر بيننا أنه مضى شهيداً بسمّ المأمون «اهـ». وروى الصدوق في **العيون** عدة روايات في أنه سمه المأمون وكذلك روى المفيد في **الإرشاد**. وفي خلاصة **تذهيب الكمال** في أسماء الرجال عن **سنن ابن ماجة** القزويني كلاهما من علماء أهل السنة أنه مات مسموماً بطوس. وفي **مقاتل الطالبيين**: «كان المأمون عقد له على العهد من بعده ودس له فيما ذكر بعد ذلك سماً فمات منه». وفي **تهذيب التهذيب** للحافظ بن حجر عن الحاكم في **تاريخ نيسابور** أنه قال استشهد علي بن موسى بسنا آباد. وفيه عن أبي حاتم بن حبان أنه «ع» مات آخر يوم من صفر وقد سم في ماء الرمان وسقي. وقال الطبري إنه أكل عنباً فأكثر منه فمات فجأة.

وقال المفيد في **الإرشاد**: كان الرضا علي بن موسى يكثر وعظ المأمون إذا خلا به ويخوفه اللّه ويقبح له ما يرتكب من خلافه فكان المأمون يظهر قبول ذلك منه ويبطن كراهته واستثقاله. قال المفيد وأبو الفرج ودخل الرضا (ع) يوماً عليه فرآه يتوضأ للصلاة والغلام يصب على يده الماء فقال (ع) يا أمير المؤمنين لا تشرك بعبادة ربك أحداً، قال المفيد فصرف المأمون الغلام وتولى تمام وضوئه بنفسه وزاد ذلك في غيظه ووجده، وكان الرضا يزري على الحسن والفضل ابني سهل عند المأمون إذا ذكرهما ويصف له مساويهما وينهاه عن الإصغاء إلى قولهما وعرفا ذلك منه فجعلا يحطبان عليه عند المأمون ويذكران له عنه ما يبعده منه ويخوفانه من حمل الناس عليه، فلم يزالا كذلك حتى قلبا رأيه فيه وعمل على قتله، وقال أبو الفرج اعتل الرضا علته التي مات فيها وكان قبل ذلك يذكر ابني سهل عند المأمون فيزري عليهما وينهى المأمون عنهما ويذكر له مساويهما (اهـ).

أما الكليني فليس في كتابه رواية تدل على أنه مات مسموماً. وفي **كشف الغمة**: «بلغني ممن أثق به أن السيد رضي الدين علي بن طاوس كان لا يوافق على أن المأمون سم الرضا ولا يعتقده وكان كثير المطالعة والتنقيب والتفتيش على مثل ذلك والذي كان يظهر من المأمون من حنوه عليه وميله إليه واختياره له دون أهله وأولاده مما يؤيد ذلك ويقرره».

قال سبط ابن الجوزي في **تذكرة الخواص**، وظاهر أنه نقله عن أبي بكر الصولي في **كتاب الأوراق**: «وزعم قوم أن المأمون سمه وليس بصحيح فإنه لما مات علي توجع له المأمون وأظهر الحزن عليه وبقي أياماً لا يأكل طعاماً ولا يشرب شراباً وهجر اللذات»، ويأتي تفصيل الحال في ذلك. قال المفيد: بعد ما ذكر أن المأمون عمل على قتل الرضا (ع) فاتفق أنه أكل هو والمأمون طعاماً فاعتل منه الرضا (ع) وأظهر المأمون تمارضاً

وقال أبو الفرج اعتل الرضا فجعل المأمون يدخل إليه فلما ثقل تعلل المأمون وأظهر أنهما أكلا عنده طعاماً ضاراً فمرضا.

وكلام المفيد يدل على أنه كان قد سمه في ذلك الطعام فتمارض المأمون ليوهم الناس أن مرض الرضا من الطعام الضار لا من السم ولكن عبارة أبي الفرج تدل على أن الطعام لم يكن مسموماً وإنما كان السم في غيره مما يأتي، لكن المأمون أظهر المرض من أكل الطعام الضار. قال أبو الفرج: ولم يزل الرضا عليلاً حتى مات، واختلف في أمر وفاته وكيف كان سبب السم الذي سقيه، ثم قال المفيد ونحوه أبو الفرج، فذكر محمد بن علي بن حمزة عن منصور بن بشير عن أخيه عبد اللّه بن بشير قال أمرني المأمون أن أطول أظفاري على العادة ولا أظهر لأحد ذلك ففعلت ثم استدعاني فأخرج لي شيئاً يشبه التمر الهندي وقال لي اعجن هذا بيديك جميعاً ففعلت ثم قام وتركني ودخل علي الرضا عليه السلام فقال ما خبرك، قال له أرجو أن أكون صالحاً. قال له وأنا اليوم بحمد اللّه صالح فهل جاءك أحد من المترفقين في هذا اليوم قال لا فغضب المأمون وصاح على غلمانه وقال للرضا فخذ ماء الرمان الساعة فإنه مما لا يستغنى عنه ثم دعاني فقال ائتنا برمان فأتيته به فقال لي اعصره بيديك ففعلت وسقاه المأمون الرضا بيديه فشربه فكان ذلك سبب وفاته ولم يلبث إلّا يومين حتى مات عليه السلام. قال محمد بن علي بن حمزة عن أبي الصلت الهروي قال دخلت على الرضا عليه السلام وقد خرج المأمون من عنده فقال لي يا أبا الصلت قد فعلوها أي سقوني السم وجعل يوحد اللّه ويمجده. قال محمد بن علي وسمعت محمد بن الجهم يقول كان الرضا عليه السلام يعجبه العنب فأخذ له منه شيء فجعل في مواضع إقماعه الإبر أياماً ثم نزعت منه وجيء به إليه فأكل منه وهو في علته التي ذكرناها فقتله وذكر أن ذلك من لطيف السموم.

قال علي بن عيسى الإربلي في **كشف الغمة**: قد ذكر المفيد شيئاً ما يقبله نقدي ولعلي واهم وهو أن الإمام عليه السلام كان يعيب ابني سهل عند المأمون ويقبح ذكرهما إلى غير ذلك وما كان أشغله بأمور دينه وآخرته واشتغاله باللّه عن مثل ذلك وعلى رأي **المفيد** رحمه اللّه أن الدولة المذكورة من أصلها فاسدة وعلى غير قاعدة مرضية فاهتمامه عليه السلام بالوقيعة فيهما حتى أغراهما بتغيير رأي الخليفة عليه فيه ما فيه ثم إن نصيحته للمأمون وإشارته عليه بما ينفعه في دينه لا يوجب أن يكون سبباً لقتله وموجباً لركوب هذا الأمر العظيم منه وقد كان يكفي في هذا الأمر أن يمنعه عن الدخول عليه أو يكفه عن وعظه. ثم إنا لا نعرف أن الإبر إذا غرست في العنب صار العنب مسموماً ولا يشهد به القياس الطبي واللّه تعالى أعلم بحال الجميع وإليه المصير وعند اللّه تجتمع الخصوم. قال:

ورأيت في كتاب يعرف بـ **كتاب النديم** لم يحضرني عند جمع هذا الكتاب: أن جماعة من بني العباس كتبوا إلى المأمون يسفهون رأيه في تولية الرضا عليه السلام العهد بعده وإخراجه عنهم إلى بني علي عليهم السلام ويبالغون في تخطئته وسوء رأيه فكتب إليهم جواباً غليظاً سبهم فيه ونال من أعراضهم وقال فيهم القبائح وقال من جملة ما قال وبقي على خاطري: أنتم نطف السكارى في أرحام القيان، إلى غير ذلك وذكر الرضا عليه السلام ونبه على فضله وشرف نفسه وبيته وهذا وأمثاله مما ينفي عن المأمون الإقدام على إزهاق تلك النفس الطاهرة والسعي فيما يوجب خسران الدنيا والآخرة واللّه أعلم.

قال المجلسي في **البحار**: رد الإربلي في **كشف الغمة** ما ذكره المفيد بوجوه سخيفة ثم قال بعد نقل كلامه ولا يخفى وهنه إذ الوقيعة في ابني سهل لم تكن للدنيا حتى يمنعه عنها الاشتغال بعبادة اللّه تعالى بل كان ذلك لما وجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورفع الظلم عن المسلمين مهما أمكن وكون خلافة المأمون فاسدة لا يمنع منه كما نصح غيره للمسلمين في الغزوات والحروب. ثم إنه ظاهر أن نصيحة الأشقياء ووعظهم بمحضر الناس لا سيما المدعين للفضل والخلافة مما يثير حقدهم وحسدهم وغيظهم. قال سبط ابن الجوزي عن **كتاب الأوراق** لأبي بكر الصولي: وقيل إنه دخل الحمام ثم خرج فقدم إليه طبق فيه عنب مسموم قد أدخلت فيه الإبر المسمومة من غير أن يظهر أثرها فأكله فمات «اهـ»، مع أن الخبر الآخر دال على سمه بالرمان.

وقال أبو فراس الحمداني:

باؤوا بقتل الرضا من بعد بيعته وأبصروا بعض يوم رشدهم فعموا

وقال دعبل في رثاء الرضا «ع»:

شككت فما أدري أمسقي شربة فأبكيك أم ريب الردى فيهون

قال المفيد ونحوه قال أبو الفرج: لما توفي الرضا «ع» كتم المأمون موته يوماً وليلة ثم أنفذ إلى محمد بن جعفر الصادق «ع» وجماعات من آل أبي طالب الذين كانوا عنده فلما حضروه نعاه إليهم وبكى وأظهر حزناً شديداً وتوجعاً وأراهم إياه صحيح البدن وقال يعز علي يا أخي أن أراك في هذه الحال قد كنت أؤمل أن أقدم قبلك فأبى اللّه إلّا ما أراد ثم أمر بغسله وتكفينه وتحنيطه وخرج مع جنازته يحملها حتى انتهى إلى الموضع الذي هو مدفون فيه الآن فدفنه. والموضع دار حميد بن قحطبة في قرية يقال لها سنا آباد على دعوة من نوقان بأرض طوس وفيها قبر هارون الرشيد وقبر أبي الحسن «ع» بين يديه في قبلته.

وروى الصدوق في كتاب **عيون أخبار الرضا** بسنده في حديث: أن آخر ما تكلم به الرضا «ع»: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وكان أمر اللّه قدراً مقدوراً﴾.

وأنه شق لحد الرشيد فدفنه معه وقال نرجو أن ينفعه اللّه تبارك وتعالى بقربه.

من مراثي الرضا (ع)

قال علي بن أبي عبد الخوافي يرثي الرضا (ع):

يا أرض طوس سقاك اللّه رحمته ... ماذا حويت من الخيرات يا طوس

طابت بقاعك في الدنيا وطيبها ... شخص ثوى بسنا آباد مرموس

يا قبره أنت قبر قد تضمنه ... حلم وعلم وتطهير وتقديس

فافخر فإنك مغبوط بجثته ... وبالملائكة الأبرار محروس

في كل عصر لنا منكم إمام هدى ... فربعه آهل منكم ومأنوس

أمست نجوم سماء الدين آفلة ... وظل أسد الشرى قد ضمها الخيس

وقال دعبل الخزاعي يرثيه:

يا حسرة تتردد ... وعبرة ليس تنفد

على علي بن موسى ... بن جعفر بن محمد

وقال السيد محسن الأمين يرثيه من قصيده:

حيّ طوساً لا بارح الغيث طوسا ... في ثراها الهدى غدا مرموسا

أرض قدس طابت وطاب ثراها ... بضريح الرضا علي بن موسى

أي بدر قد غيبوا بسنا ... باد يجلو الدجنة الحنديسا

رزؤه شك في حشا الدين سهماً ... وإلى الحشر جرحه ليس يوسى

يا مجداً يطوي الفلاة بحرف ... في سراها لا تعرف التعريسا

تسبق الريح والبروق إذا ما ... غلست في مسيرها تغليسا

إقرَ منّي السلام قبراً بطوس ... وأطل لثمه إذا جئت طوسا

مظاهرة مرو

ومن أعظم ما كان يشجيني، تحويل نتيجة مظاهرة مرو في اليوم الذي طلب فيه المأمون من الرضا أن يصلي بالناس صلاة العيد، تحويل نتيجة هذه المظاهرة العظمى عن أهدافها الحقيقية إلى نتيجة عكسية.

فقد قالوا: إنه لما بلغ المأمون ما قوبل به خروج الرضا للصلاة من حماسة الناس وعواطفهم، قال الفضل بن سهل للمأمون إن بلغ الرضا المصلى على هذا السبيل افتتن به الناس فأنفذ إليه يرجع، فبعث المأمون يطلب إليه الرجوع وأن يصلي بالناس من كان يصلي بهم، فرجع الرضا ولم يصلِّ بالناس.

الحقيقة هي أبعد ما تكون عن هذا الخيال العجيب.

لقد كان للمأمون معارضون في تولية عهده للإمام الرضا لأسباب نعرفها كلنا، وحاول هؤلاء المعارضون أن يثيروا معارضة شعبية على المأمون، حاولوا ذلك في بغداد وغير بغداد. فأراد المأمون أن يرد عليهم بنفس سلاحهم وأن يبرهن لهم بأن الشعب يؤيده فيما أقدم عليه وأن للرضا بين جماهير الشعب من المنزلة ما ليس مثلها لغيره وأن الرضا إذا كان مرشحه لولاية العهد، فهو في الوقت نفسه مرشح الشعب. وجاء العيد فوجد المأمون فرصته للبرهنة على ذلك، فدعا الرضا للصلاة بالناس بالعيد، وانتشر الخبر بين الناس.

وتسامعوا بنبأ عزم الرضا على أن يؤم الجموع بصلاة العيد، فبكرت الجماهير كلها إلى الشوارع والطرقات والمسالك لتحية الرضا والتبرك بطلعته، وخرج بتواضعه وبساطته، وكبر وكبر مواليه معه ثم مشى حتى وقف على الباب الأكبر، فأعاد التكبير هناك.

يقول راوي الخبر: وكبر الناس معه فخيل إلينا أن السماء والحيطان تجاوبه، وتزعزعت مرو بالبكاء والضجيج لما رأوا أبا الحسن وسمعوا تكبيره.

هذه الصورة الوجيزة الرائعة التي رواها شاهد عيان تعطينا حقيقة ما جرى.

لقد كان ظهور الرضا للجماهير، ثم هتافه: اللّه أكبر ـ لقد كان ذلك كافياً لأن يثير في الجماهير أقصى حماستها، ويبعث فيها أخلص عواطفها فاندفعت إليه بحبها وولائها يحاول كل واحد فيها أن يستطيع الوصول إليه فيلمس ثوبه إذا لم يستطع تقبيل يده، وأن يفوز عن قرب بالتطلع إلى وجهه والنظر إلى عينيه وجبينه وكل كيانه.

لقد كانت الجماهير تملأ الشوارع والميادين والدروب، وكلها تحاول الاقتراب من الرضا. ولما حاول الرضا أن يشق طريقه إلى المسجد كانت الجموع بحماستها واندفاعها تسد عليه كل طريق، فعجز عن أن يتحرك من مكانه وخشي أن تفوت الناس صلاة العيد، فأرسل إلى المأمون من يبلغه حقيقة الواقع، وأنه لا يستطيع أن يخترق تلك الحشود الحاشدة، العاكفة عليه وإن على المأمون أن يكلف بإمامة الناس بالصلاة من كان يؤمهم من قبل.

هذا هو الصحيح فيما جرى يومذاك.

الصدى في بغداد

أرسلت سلطات الخلافة ما يمكن أن نسميه باصطلاحنا الحاضر بلاغاً رسمياً إلى بغداد بإعلان ولاية العهد للرضا طالبة إلى من فيها تنفيذ محتواه. وكان البلاغ يتضمن ما يلي:

إن أمير المؤمنين المأمون قد جعل علي بن موسى بن جعفر بن محمد وليّ عهده من بعده، وذلك أنه نظر في بني العباس وبني علي فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أورع ولا أعلم منه وأنه سماه الرضا من آل محمد.

ثم يأمر البلاغ متولي الحكم في بغداد بطرح لبس السواد ولبس ثياب الخضرة، وأن يأمر من قبله من أصحابه والجند والقواد وبني هاشم بالبيعة له وأن يأخذهم بلبس الخضرة في أقبيتهم وقلانسهم وأعلامهم، ويأخذ أهل بغداد جميعاً بذلك.

وكان متولي الحكم في بغداد عيسى بن محمد بن أبي خالد منتدباً لذلك من الحسن ابن سهل الذي كا قد تلقى هو بلاغ الخلافة، وكان إذ ذاك خارج بغداد فأبلغه إلى عيسى.

فدعا عيسى أهل بغداد إلى ذلك على أن يعجل لهم رزق شهر والباقي إذا أدركت الغلة.

كان هذا الأمر لدى البغداديين مفاجأة غير متوقعة، فبعد انتظار ثلاث سنوات كان فيها موقع ولاية العهد معطلاً، وأنظار الناس منصرفة إلى العباس بن المأمون، متعجبين من تأخر تنصيبه ولياً للعهد، إذا بهم يفاجؤون بما لم يخطر لهم على بال...!

ولم يكن من السهل تسليم جميع الناس بهذا الواقع المفروض فانشطروا شطرين: شطر سلّم وأقر وقال: نبايع ونلبس الخضرة؛ وشطر تمرد وأبى كان على رأسه بنو العباس، فقال: لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس. ونسب هذا الفريق ما جرى إلى سعي الفضل بن سهل به إلى المأمون وإقناعه بتنفيذه.

ومضت أيام كان الإنكار فيها فردياً، فرأى العباسيون الغاضبون أنه لا بد من الاجتماع والتداول وتقرير ما يجب اتخاذه من مقاومة عملية، فاجتمعوا وقرروا خلع المأمون وتولية أحدهم مكانه، وكان رأس العباسيين الناقمين المتكلمين في ذلك الأخوين إبراهيم ومنصور ابني المهدي وعمَّي المأمون.

وبعد المداولة تقرر مبايعة إبراهيم بالخلافة مكان المأمون على أن يكون ولي عهده ابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي.

وهنا يظهر واضحاً ما قلناه من قبل من فقدان الرجال الأكفياء في العباسيين، وأن ذلك كان من دوافع المأمون لنقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين. فحين لا يجد العباسيون

المعارضون أكفأ من إبراهيم بن المهدي وحين يكون هذا أكفأ مرشح منهم، يكون المأمون فيما فعله على صواب.

فإبراهيم بن المهدي كان كل ما برز فيه في المجتمع هو أنه صاحب صوت جميل جعله ينصرف منذ نعومة أظفاره إلى الغناء، فكان معروفاً بأنه مغنٍّ.

ولم تكن كلمة الفن والفنان، قد عرفت في ذلك الوقت ليلطفوا كلمة مغنٍّ بكلمة فنان كما يفعلون اليوم. ونحن مع احترامنا للفن وللفنانين لا نحسب أنه يمكن أن ينتقل أحد بقفزة واحدة من عرش الفن إلى عرش الخلافة ويكون أهلاً للعرش الثاني.

فاختيار العباسيين المعارضين لإبراهيم بن المهدي كان من حاجتهم للرجال، وربما كان تفضيله لأنه الأكبر سناً.

وقد كان اختيار إبراهيم للخلافة موضع تندر شعري ونثري، فمن ذلك قول دعبل الخزاعي:

نبق ابن شكلة بالعراق وأهله فهفا إليه كل أخرق مائق
إن كان إبراهيم مضطلعاً بها فلتصلحن من بعده لمخارق

وكان مخارق مغنياً من الدرجة الثانية، وابن شكلة: المقصود به إبراهيم. وقوله أيضاً:

يا معشر الأجناد لا تقنطوا وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون حنينية يلتذها الأمرد والأشمط
والمعبديات لقوادكم لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق قواده خليفة مصحفه البربط[٢]

وذلك أنه قل المال عند إبراهيم فخرج رسوله إلى الناس وقد اجتمعوا فصرح لهم بأن لا مال عنده، فقال بعض الغوغاء الظرفاء: أخرجوا إلينا خليفتنا ليغني لأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات، ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات فتكون عطاء لهم.

وقد كان الاحتفال بتنصيب إبراهيم أول المحرم يوم الجمعة في المسجد الجامع فصعد إبراهيم المنبر فكان أول من بايعه العباسيون.

ومن الملفت للنظر أن الساعين في ترتيب ذلك وفي حشد الناس له كانوا من غير العرب، من أمثال السندي وصالح صاحب المصلى ومنجاب ونصير الوصيف وسائر الموالي.

(٢) الحنينية نوع من الألحان منسوب إلى حنين المغني، والمعبديات ألحان منسوبة إلى معبد المغني، والبربط آلة موسيقية هي المعروفة اليوم بالكمنجة.

وهكذا فإن الموالي، كل الموالي غير العرب، في بغداد، هم الذين خلعوا المأمون ونصبوا مكانه خليفة آخر.

وبعد أن تمت البيعة كان لا بد من استرضاء الجند فوعدهم بأن يعطيهم أرزاق الأشهر الستة. ولكنه عجز عن ذلك فلم يكن في خزائنه ما يقوم بذلك.

فلما طالبوا وألحوا بالطلب دافعهم، فلما رأوا ذلك شغبوا عليه، فأعطاهم مئتي درهم لكل رجل، وكتب لبعضهم إلى قرى السواد بقيمة مالهم حنطة وشعيراً.

وعندما انتشروا في القرى لمطالبة المزارعين بما كتب لهم لم يمروا بشيء إلّا انتهبوه. ويبدو أن خروجهم كان في الصيف، موسم استخراج الحنطة والشعير، فكانوا يستولون على كل ما يجدونه على البيادر، فيأخذون نصيب الحكومة ونصيب المزارعين!

وهكذا بدأت خلافة (الفنان) إبراهيم بن المهدي، أول ما بدأت، بالنهب.

واستطاع إبراهيم السيطرة على الكوفة والسواد كله وعسكر بالمدائن. وقسم بغداد إلى قسمين شرقي وغربي وجعل لكل قسم والياً مستقلاً.

ويقول الطبري إن إبراهيم قال في تلك الحال هذا البيت:

ألم تعلموا يا آل فهر بأنني شريت بنفسي دونكم بالمهالك

على أن الطبري لم يبين لنا ما إذا كان هذا (الفنان) الكبير قد ألقى هذا البيت مجرد إلقاء، أم أنه لحنه ثم غناه بصوته الجميل...

غير أن المهالك التي تحدث عنها مفاخراً، إذا كانت له نهاية، فقد كانت بداية للشعب الذي انتهب جنود إبراهيم أمواله واستولوا على أرزاقه.

أصولية

إذا كنّا اليوم نعيش عهد أصولية إسلامية متصلبة لها أحداثها ووقائعها مع السلطة، فقد برز في تلك الفترة في بغداد أصولي عنيد نرى أن لا نغفل ذكره ونحن نستعرض أحداث الصراع على السلطة. ففي ذكره تأكيد على أن الأصولية المتشددة ليست بنت اليوم، بل لها جذورها الضاربة في كل زمن.

فقد كان في بغداد رجل اسمه سهل بن سلامة، كان يدعو إلى العمل بكتاب اللّه وسنة رسوله، فاجتمع عليه عامة أهل بغداد. وقد كان الخليفة (الفنان) إبراهيم قد همّ بقتاله ثم شغلته عنه أمور.

وكان أصحاب سهل قد بايعوه على العمل بالكتاب والسنة وأن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولما تجردت السلطة للتخذيل عنه ثم لقتاله وتمكنت من القبض عليه سيق إلى إسحاق بن موسى الهادي وهو ولي عهد عمه إبراهيم الذي كان غائباً عن بغداد، فكلمه وحاجه وجمع بينه وبين أصحابه وقال له: حرضت علينا وعبت أمرنا. وكان بذلك يتهمه بأنه مؤيد لولاية عهد الرضا. فتنصل من ذلك وقال: إنما كانت دعوتي عباسية وإنما كنت أدعو إلى العمل بالكتاب والسنة، وأنا على ما كنت عليه، أدعوكم إليه الساعة، فلم يقبلوا منه، ثم قالوا له اخرج إلى الناس فقل لهم: إن ما كنت أدعوكم إليه باطل.

فأخرج إلى الناس وقال: قد علمتم ما كنت أدعوكم إليه من العمل بالكتاب والسنة، وأنا أدعوكم إليه الساعة. فلما قال لهم ذلك وجؤوا عنقه وضربوا وجهه.

فلما صنعوا به ذلك قال: المغرور من غررتموه. فأخذ وأدخل إلى إسحاق فقيده، وفي اليوم الثاني خرجوا به إلى إبراهيم بالمدائن. فلما دخل عليه كلمه بما كلمه به إسحاق، فرد عليه مثل ما رد على إسحاق.

وقد كانوا أخذوا رجلاً من أصحابه، فضربه إبراهيم ونتف لحيته وقيده وحبسه...

وهكذا فإن الخليفة (الفنان) وضع عقوبة جديدة للمغضوب عليهم هي: نتف اللحى!...

فلما أخذ سهل حبسوه أيضاً، وكان بين خروج سهل وحبسه اثنا عشر شهراً. والله أعلم كيف أنهوا أمره بعد ذلك.

تولية الحسن بن سهل

في أول الإجراءات التي اتخذها المأمون بعد أن دان له الأمر، كان إرساله الحسن بن سهل والياً على قسم كبير من المملكة حدده الطبري بما يلي: كُوَر الجبال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن.

بقي أن نعرف ما المقصود هنا بـ (الجبال). بلاد الجبل أو بلاد الجبال، كما يعرفها **معجم البلدان** هي: «ما بين أصفهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين، (كرمنشاه)، والري، (طهران)، وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكُوَر العظيمة».

هذا المدى الواسع كان يعرف في عهد البويهيين باسم بلاد الجبل، ولما جاء السلاجقة بعد البويهيين سموه عراق العجم. ويقول حمد الله، (١٢٨١ - ١٣٤٩م)، في كتابه **نزهة القلوب** إن حدوده: آذربيجان، كردستان، خوزستان، فارس، المفازة الكبرى، قومس،

كيلان، وإن أشهر مدنه: أصفهان، همذان، قم، الري، السلطانية، قزوين ساوه، الطالقان، كاشان، جرباذقان، نهاوند، يزد وغيرها.

ويعترض ياقوت في **معجم البلدان** على تسميته بالعراق فيقول: «إن ذلك غلط لا أعرف سببه، وهو اصطلاح محدث، وقد ظننت أن ملوك السلجوقية كان أحدهم إذا ملك العراق دخلت هذه البلاد في ملكه فكانوا يسمونه سلطان العراق، وهذا أكثر إقامته بالجبال، فظنوا أن العراق الذي منسوب إليه ملكه هو الجبال»[٣].

قلنا إن المأمون ولّى الحسن بن سهل حكم ما مرّ ذكره من البلاد على أن يدير ذلك من بغداد؛ كما ولى طاهر بن الحسين حكم الموصل والجزيرة والشام والمغرب، على أن يدير ذلك من الرقة.

والواقع أنه كان على هذين الرجلين أن يوطدا حكم المأمون وأن يبسطا سلطته فيما وليا من بلاد إذا نظرنا إليها اليوم على الخريطة فإننا نرى أنها هي الدولة، وأن ما خرج عن حكمهما هو جزء من القسم الشرقي بقي تابعاً لسلطة الخليفة مباشرة، يديره من مرو.

نقول سلطة الخليفة باعتبار وجوده هو نفسه في مرو، وإلّا فإن الحاكم الفعلي لهذا القطاع هو الفضل بن سهل.

أما المأمون فهو المشرف على الجميع.

ولم تكن مهمة الحسن بن سهل مهمة سهلة، فقد واجهته أول ما واجهته حركة محمد ابن إبراهيم بن طباطبا في الكوفة مدعومة، أو بالأحرى منبعثة، من تدبير أبي السرايا القائد الغاضب.

(٣) من الطرائف في هذا الموضوع قول أبي دلف العجلي، وقد فرق في شعره بين (الجبال) وبين (العراق):

وإني امرؤ كسروي الفعال ... أصيف الجبال وأشتو العراقا
وألبس للحرب أثوابها ... وأعتنق الدارعين اعتناقا

وبلغ هذان البيتان إلى عبد اللّه بن طاهر، وكان سيىء الرأي في أبي دلف فقال:

ألم تر أنّا جلبنا الخيول ... إلى أرض بابل قبّاً عتاقا
فما زلن يُسعفن بالدارعين ... طوراً حزوناً وطوراً رقاقا
إلى أن وربن بأذنابها ... قلوب رجال أرادوا النفاقا
وأنت أبا دلف ناعم ... تصيف الجبال وتشتو العراقا

فلما وقف أبو دلف على هذه الأبيات آلى على نفسه لا يصيف إلا بالعراق ولا يشتو إلّا بالجبال، وقال:

ألم ترني حين حال الزمانُ ... أصيف العراق وأشتو الجبالا
سموم المصيف وبرد الشتاء ... حنانيك حالاً أزالتك حالا
فصبراً على حدث النائبات ... فإن الخطوب تذل الرجالا

وقد كانت حركة خطرة لم يمكن إخمادها إلّا بعد وقائع ومعارك، كما قامت حركات أخرى في عدة أمكنة اقتضى إخمادها جهوداً عنيفة ووقائع دامية.

على أن تمرداً واجه الحسن بن سهل في بغداد نفسها، وكان قد اتخذ مقره في المدائن وجعل علي بن هشام والياً على بغداد، واشتد التمرد إلى الحد الذي استطاع معه المتمردون إخراج علي بن هشام من بغداد، وإحلال منصور بن المهدي مكانه، بعد أن راودوه على الخلافة فامتنع عليهم، ورضي بأن يتولى أمر بغداد على أن يدعو للمأمون.

ولما وصلت هذه الأخبار إلى الحسن بن سهل ترك المدائن ـ القريبة من بغداد ـ ولم يقف إلّا عند واسط، وتقدم المتمردون إليه في واسط فحدث بينه وبينهم قتال دامٍ، وتطورت الأمور في غير صالح الحسن حتى اضطر إلى ترك واسط إلى المبارك وأقام بها.

وظلت الفتن تهب في مكان وتهمد في مكان، حتى جاء الخبر إلى بغداد بتولية المأمون ولاية العهد لعلي الرضا (ع)، وكان من الأمر في بغداد ما تقدم ذكره.

وعندما وصل هذا الخبر كان الحسن بن سهل في، (المبارك)، مقيماً في معسكره، فأتاه أمر المأمون بلبس الخضرة وأن يبايع لعلي بن موسى بن جعفر بولاية العهد ويأمره بأن يتقدم إلى بغداد حتى يحاصر أهلها.

فنفذ الحسن أمر المأمون وتقدم لحصار بغداد بعد أن كتب لأحد قواده لحصارها من جانب آخر.

وكان إبراهيم قد خرج بقواته من بغداد حتى وصل المدائن فعسكر فيها. ولكن الأحداث تطورت في بغداد إلى الحد الذي أدى إلى أن يُخلع إبراهيم من الخلافة وأن تُصلى الجمعة فيها ويُدعى للمأمون. وبدأ الأنصار يتفرقون عن إبراهيم، وبعد معركة عند جسر نهر ديالى هزم إبراهيم، وأخذ من كان قد بقي معه من العباسيين والقواد يلتحقون بالفريق الآخر واحداً بعد واحد، ثم شعر بأن من بقي معه يحاولون القبض عليه وتسليمه فاستطاع النجاة بنفسه والتواري عن الأنظار. وظل مختفياً حتى جاء المأمون من مرو إلى بغداد، فلم يظهر له أثر.

وفي إحدى الليالي التقى ليلاً حارس أسود في بغداد بثلاث نسوة متنقبات، فقال من أنتن؟ وأين تردن في هذا الوقت من الليل؟ وكان إبراهيم أحد المتنقبات، فخاف أن يكتشفه الحارس فأعطاه خاتم ياقوت كان في يده له قدر عظيم ليخليهن ولا يسألهن.

فلما نظر الحارس إلى الخاتم استراب بهن، وقال هذا خاتم رجل له شأن فساقهن إلى رئيسه، فأمرهن أن يسفرن، فتمنع إبراهيم، فجذبه الرجل فبدت لحيته، فلم يعرفه، لذلك

ساقه إلى من هو أعلى منه فعرفه فذهب به إلى باب المأمون فأُعلم به، فأمر بالاحتفاظ به في الدار.

فلما كان في الغد أقعد في دار المأمون لينظر إليه العباسيون والقواد والجند، وصيروا المقنعة التي كان متنقباً بها في عنقه، والملحفة التي كان ملتحفاً بها في صدره ليراه الناس ويعلموا كيف أُخذ.

ثم حوله المأمون إلى إحدى دور قواده ليحبس عنده. ثم أخرجه المأمون معه حيث خرج إلى الحسن بن سهل بواسط.

ثم خلى سبيله وصيره عند أحد قواده وصير معه اثنين يحفظانه، إلّا أنه موسع عليه، عنده أمه وعياله ويركب إلى دار المأمون والاثنان معه يحفظانه. ولا شك في أن يكون المأمون قد أطلقه بعد ذلك.

ويروى أنه لما دخل على المأمون قال له هيه يا إبراهيم فقال يا أمير المؤمنين وليُّ الثأر محكَّمٌ في القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاغترار بما مدّ له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك اللّه فوق كل ذي ذنب كما جعل كل ذي ذنب دونك فإن تعاقب فبحقك وإن تعف فبفضلك. قال بل أعفو يا إبراهيم فكبر ثم خر ساجداً. وقيل إن إبراهيم كتب بهذا الكلام إلى المأمون وهو مختف فوقع المأمون في حاشية رقعته «القدرة تذهب الحفيظة والندم توبةٌ وبينهما عفو اللّه وهو أكبر ما نسأله» فقال إبراهيم يمدح المأمون:

يا خير من ذَمَلَت يمانيةٌ به	بعد الرسول لآيس ولطامعِ
وأبرَّ من عبدَ الإله على التقى	عيناً وأقولَه بحقّ صادعِ
عسل الفوارع ما أطعت فإن تهج	فالصّابُ يُمزج بالسمام الناقع
متيقظاً حذراً وما يخشى العدى	نبهانُ من وسَنَات ليل الهاجعِ
مُلئت قلوب الناس منك مخافة	وتبيت تكلؤهم بقلب خاشع
بأبي وأمي فدية وبنيهما	من كل معضلة وريب واقعِ
ما ألين الكنَفَ الذي بوّأتني	وطناً وأمرَعَ رتعةُ للراتع
للصالحات أخاً جعلت وللتقى	وأباً رؤوفاً للفقير القانعِ
نفسي فداؤك إذ تضلُّ معاذري	وألوذ منك بفضل حلم واسع
أملاً لفضلك والفواضل شيمةٌ	رفَعَت بناءك بالمحل اليافع
فبذَلَت أفضل ما يضيق ببذله	وُسعُ النفوس من الفعال البارع

وعفوت عمن لم يكن عن مثله عفوٌ ولم يشفع إليك بشافع
إلّا العلو عن العقوبة بعدما ظفرت يداك بمُستكين خاضع
فرحمت أطفالاً كأفراخِ القطا وعويل عانسة كقوس النازع
وعطفت آصرةً عليَّ كما وعى بعد انهياض الوتيّ عظم الظالع
اللّه يعلم ما أقول فإنها جهد الألية من حنيف راكع
ما إن عصيتك والغُواة تقودني أسبابها إلّا بنيَّةِ طائع
حتى إذا علقت حبائل شقوتي بردىً إلى حفر المهالك هائع
لم أدر أنَّ لمثل جرمي غافراً فوقفت أنظر أي حتف صارعي
ردَّ الحياة عليَّ بعد ذهابها ورعُ الإمام القادر المتواضع
أحياك من ولاك أطول مدَّةٍ ورمى عدُوَّك في الوتين بقاطع
كم من يدٍ لك لم تحدّثني بها نفسي إذا آلت إليَّ مطامعي
أسديتها عفواً إليَّ هنيئة فشكرت مُصطنعاً لأكرم صانع
إلّا يسيراً عند ما أوليتني وهو الكثير لديَّ غير الضائع
إن أنت جدت بها عليَّ تكن لها أهلاً وإن تمنع فأعدل مانع
إن الذي قسم الخلافة حازها في صلب آدم للإمام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها وحوى رداؤك كلَّ حبر جامع

فذكر أن المأمون حين أنشده إبراهيم هذه القصيدة قال أقول ما قال يوسف لإخوته ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم وهو أرحم الراحمين﴾.

هذا الفنان الذي أراد أن يعيش فنه، وأراد أن يكون للفن دولة وسلطان... هذا الفنان لا ندري ماذا كان شأنه مع فنه خلال تلك الفترة التي مضت بين صعوده منبر المسجد الجامع لتلقّي البيعة بالخلافة، وبين القبض عليه متنكراً بثياب امرأة؟

هل استطاع أن ينسى فنه فلا يرسل صوته الرنان بالغناء الرقيق، أم رأى أن ذلك يتنافى مع وقار الخلافة فصمت عن الغناء؟!

لقد مرت به أدوار يستحق كل دور منها أن يتعالى فيه صوته غناء، دور حماسي وهو يقود الكتائب إلى القتال، لقد كان من حق هذه الكتائب عليه أن يفعمها حماسة بأناشيده...!

ودور تصبّر وتفجّع وهو يرى الأنصار يخذلونه بعد أن استشعروا ضعف موقفه، لقد كان من شأن هذا الدور أن يثير أساه فيردد الأغاني الحزينة...!

ودور خوف دائم وهلع مستمر... هذا الدور وحده هو الذي يُسكت أبلغ البلغاء، ويُصمت أشجى المغنين!... فإذا صمت فيه فلا لوم عليه...!

إذا كانت خلافته قد مرت بهذه الأدوار الثلاثة، فإن الناس كل الناس من عهده هو حتى هذا العهد وحتى كل عهد لم يروا فيها إلّا ما يضحك!

حين اقترح الغوغائي الظريف عليه أن يعيض الجنود عن المال بإنشادهم ثلاثة أصوات وحين نظم دعبل له أبياته اللطيفة...

وحين عاقب الخارج عليه بنتف لحيته...

وحين قُبض عليه متخفياً بزي امرأة...

وحين عُرض للناس وفي عنقه المقنعة وعلى صدره الملحفة...

مسكين إبراهيم بن المهدي لقد أراد أن يكون خليفة عظيماً، فإذا به خليفة مضحك...

لقد كان يمكن أن يذكر في التاريخ عظيماً لو أنه استمسك بالفن ولم يتجاوزه إلى المنبر والعرش، لو ظل يضرب بالعود ولم يحاول الضرب بالسيف...

من مرو إلى بغداد

كان الفضل بن سهل هو المشرف على شؤون الدولة في مرو، وكانت أخبار نقمة العباسيين على إخراج الخلافة منهم، وتحول هذه النقمة إلى ثورة وإلى خلع للمأمون ومبايعة لإبراهيم بن المهدي. كانت هذه الأخبار تصل أول ما تصل إلى الفضل بن سهل. ويبدو أن الفضل لم يشأ أن يشغل بها المأمون لأنه كان يرى أن الثورة لا يمكن أن يشتد أمرها، وأن من السهل إخمادها، لذلك لم يوصل الأمر على حقيقته إلى المأمون.

على أن ولي العهد الإمام علياً الرضا كان متنبهاً لكل ما يجري، وكانت له وسائله التي تجعله يراقب مراقبة تامة كل ما يحدث في أرجاء المملكة. فكان على علم بحقيقة الثورة في العراق، وعلم بالأحداث الأخرى، فأخذ بالحزم وتصرف تصرف رجل الدولة المسؤول، وقصد إلى المأمون، وأطلعه على الحقائق وأن حرباً حقيقية تجري بين قوات إبراهيم بن المهدي المبايع بالخلافة، وبين القوات الشرعية. وأن هناك نقمة عامة في العباسيين وفي جمهور في الشعب على ما أقدم عليه من بيعته له بولاية العهد. وأن الفضل بن سهل لا يوصل إليه الأخبار على حقيقتها، بل يوصلها ملطفة مخففة معتمداً على أن أخاه الحسن بن سهل يستطيع القضاء على كل تمرد مبيناً للمأمون أنه ليس مكانهما هو والمأمون هنا في مرو، ولا يمكن أن تكون عاصمة بديلاً عن بغداد، فلا بد من الانتقال إلى بغداد وممارسة

الحكم منها، لا سيما في هذا الظرف بالذات، حيث إن الخليفة وولي العهد يجب أن يكونا على مقربة من الأحداث.

وبعد أن تحقق المأمون مما أخبره به الرضا (ع) قرر الأخذ برأيه والرحيل إلى بغداد. هذا الموقف الذي وقفه الإمام الرضا (ع) نستطيع أن نعتبره الموقف البارز فيما وصلنا من أخباره خلال الفترة التي مارس فيها ولاية العهد في مرو.

أقول: فيما وصلنا، إذ لا شك أن هناك الكثير مما لم يصلنا، مما لم يعن بتدوينه المدونون، ولو حرصوا على تدوين الكثير لعرفنا الكثير مما كنا نحب أن نعرفه عن شخصية رجل الدولة الكبير الإمام علي الرضا. على أن في هذا الموقف وحده ملامح واضحة من تلك الشخصية التي أثبتت أن المأمون كان بعيد النظر عميق الفراسة حين اختارها لإنقاذ الدولة مما يهددها من تدهور بعده.

كان تسيير الحكم الفعلي متروكاً للوزير الفضل بن سهل الذي برهن على كفاءة عالية منذ الساعة الأولى التي التحق فيها بالمأمون، وراح يشير عليه بالرأي الصواب.

والآن بعد أن استتب الحكم وأصبحت خلافة المأمون أمراً قائماً، كان المأمون يتولى الإشراف العام على شؤون الحكم، والتوجيه الذي لا بد منه في الشؤون العامة.

أما الإجراءات الفعلية، والتفاصيل العملية فقد كانت متروكة للفضل بن سهل الذي عهدت إليه وزارة المأمون.

ويجب أن نذكر هنا أن الفضل بن سهل هذا كان المشجع الأول للمأمون على اتخاذ القرار الخطير الذي اتخذه بمبايعة الإمام الرضا بولاية العهد لذلك فقد كان يرى نفسه مسؤولاً عما يمكن أن تؤدي إليه هذه المبايعة من نتائج سلبية أو إيجابية.

ومن هنا كان عندما وصلته أنباء ثورة بغداد وخلع المأمون فيها ومبايعة إبراهيم بن المهدي ـ من هنا كان يوصل هذه الأنباء مخففة إلى المأمون مما يوهم أن الأمر ليس أمر ثورة وخلع وتولية، بل مجرد تمرد «لا خطر فيه» لا سيما وأن المتولي لإخماد تلك الثورة هو أخوه الحسن بن سهل الذي كان مطمئناً إلى كفاءته وحسن تدبيره، فهو يريد له أن ينجح وحده في القضاء على الثوار.

هنا يبرز رجل الدولة العتيد، رجل الدولة الذي لم يكن له من الصلاحيات ـ باعتباره ولياً للعهد ـ ما يخوله التدخل فعلياً في تسيير الأمر، وما يدفعه إلى معاناة المشاكل المعقدة والأحداث المربكة.

ولكن الإمام الرضا لم يكن رجلاً عادياً كغيره من الرجال، ولا ولي عهد كمن تقدمه

من أولياء العهود، كل ما يهمه في ولاية العهد الزهو والاستمتاع وخفض العيش وبسط النفوذ...

لقد اختير ولياً للعهد لمهمة معينة هي الحؤول دون تدهور الدولة وتمزقها، ثم قيادتها في معارج التقدم والترقي والعلاء.

إذاً فإن عليه أن يتحمل مسؤوليته منذ الآن، لذلك تجاوز الوزير وصلاحياته، وتقدم إلى الخليفة بالذات مقدماً له تقريراً شفهياً عما يجري في بغداد، طالباً اتخاذ مخطط عملي لإنقاذ الموقف، أول مادة فيه الانتقال إلى بغداد والإشراف من كثب على الأحداث، وإدارة مكافحة الأخطار إدارة مباشرة.

فكان له ما أراد ونفذ الخليفة منهاجه تنفيذاً حرفياً فأمر بالرحيل إلى بغداد، بعد أن أقام في مرو حوالى ست سنوات ما بين وال وولي للعهد وخليفة.

هذا ـ فيما وصل إلينا من المواقف ـ هذا هو الموقف البارز الذي مارس فيه الإمام الرضا (ع) ـ كما قلت فيما تقدم من الكلام ـ ولاية العهد خلال الإقامة في مرو.

إننا من هذا الموقف وحده نستطيع التعرف على رجل الدولة المعد للأمر الخطير في الغد.

منه نعرف أنه كان محيطاً إحاطة كاملة بما يجري داخل المملكة. وفي هذه الإحاطة ما فيها من حسن التدبير في اختيار الأكفياء يرفعون إليه كل شاردة وواردة من أمور الدولة التي سيتولى في الغد الآتي زمامها.

ثم هذا التقويم السليم لما يجري، ثم هذا الرأي السديد فيما يجب البدء به من عمل، ثم هذا الحزم في تنفيذ رأيه. كل ذلك يرينا ملامح الرجل العظيم، رجل الدولة الإسلامية الذي سيكون عليه حفظها من التضعضع، ثم السير بها قدماً فيما يجب أن تسير إليه من آفاق.

ويخيل إليّ ـ وأنا في هذا البعد الساحق عن الأحداث ـ يخيل إليّ بعد أن قرأت ما قرأت من تاريخ تلك الأيام ـ يخيل إليّ أن الإمام الرضا (ع) قد عزم منذ تلك الساعة على أن يتولى الأمر بنفسه وأن يقود الدولة بيده بمجرد أن يصل بغداد.

ولكن لسوء حظ الدولة وسوء حظ العرب والمسلمين شاءت إرادة اللّه أن يموت الرضا قبل أن يصل إلى بغداد.

ثم رأينا الدولة بعد ذلك تأخذ بالتدهور بمجرد موت المأمون، ثم تستمر بالتدهور إلى ما

نعرفه في صفحات التاريخ. فتحقق ما توقعه المأمون وأراد تلافيه بتعيين الإمام الرضا (ع) لولاية العهد.

وكان من أخطر ما واجه الدولة: الحركات الانفصالية التي بدأت باستقلال محمد بن عبيد اللّه بن زياد ببلاد تهامة وتأسيسه فيها الدولة الزيادية، ثم استقلال بني يُعفر ببلاد الجبال في اليمن.

ثم توالت الانفصالات فترة بعد فترة، فانفصل الأغالبة في تونس، وكان انفصالهم قد بدأ سنة ١٨٤ هـ ـ ٨٠٠ م انفصالاً محدوداً ثم تجذر وتم، والطولونيون في مصر والشام، (٢٥٤ هـ ـ ٨٦٨م)، والإخشيديون، (٣٢٣ هـ ـ ٩٣٥م).

وأقام الطاهريون كياناً خاصاً لهم في خراسان (٢٠٥ هـ ـ ٨٢٠م) ثم أعقبهم الصفاريون، (٢٥٤ هـ ـ ٨٦٨م)، ثم السامانيون، (٢٦١ هـ ـ ٨٧٤م)، ثم الغزنويون، (٣٥١ هـ ـ ٩٦٢م).

وسيطر العلويون على طبرستان، والزياريون على جرجان وما حولها، والبويهيون على فارس والحمدانيون على بعض مناطق الجزيرة وعلىْ شمال سوريا...

وفاة المأمون

توفي المأمون سنة ٢١٨ هـ وهو خارج عاصمته في البذندون ، فنقل جثمانه إلى طرسوس فدفن فيها. وكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، سوى سنين كان دعي له فيها بمكة، وأخوه الأمين محصور في بغداد. وكان مولده سنة ١٧٠ هـ.

يقول ابن الأثير في **الكامل**، (ص ٤٣٠، ج ٦، ط ١٩٦٥): ثم دعا المعتصم حين اشتد الوجع وأحس بمجيء أمر اللّه فقال له: هؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي صلوات اللّه عليه، فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم واقبل من محسنهم ولا تغفل صِلاتهم في كل سنة عند محلها فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى.

المعتصم

يقول الدكتور فاروق عمر في كتابه **الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية** (ص٤٠) من الطبعة الثانية عن المعتصم:

«لم يكن المعتصم في نظر التاريخ خليفة بعيد النظر قديراً في إجراءاته السياسية، بل شب على الرماية والولع بالصيد وركوب الخيل واستعمال السيف والرمح. ولعله أراد بتقريبه

للأتراك تقوية الدولة التي بدأت علائم تصدعها بالظهور، ولكنه أخطأ في هذا التقدير حيث لم يستطع أن يسيطر على الجند الأتراك، واختل التوازن بينهم وبين فرق الجيش الأخرى، كما أن بناءه لسامراء، كان له عواقب على الخلفاء من بعده الذين أصبحوا في عاصمة نائية أشبه ما يكون بمعسكر يحيط به الأتراك، وأصبح بقاؤهم في الخلافة رهناً برضى الأتراك عليهم».

ولم يكن المعتصم يهتم باختيار وزرائه فكان أكثرهم قليلي الثقافة ومن غير طبقة الكتاب.

ونزيد نحن على قول الدكتور فاروق قائلين:

كان المعتصم شبه أمي يقرأ ولا يكتب، لأنه كان له عبد صغير يتعلم معه في الكتّاب، فمات العبد، فقال له الرشيد مات غلامك. قال: نعم واستراح من الكتّاب. فقال له: بلغ الحال من كراهة الكتّاب أن تغبط غلامك على الموت لأنه استراح من الكتّاب. وأعفاه من الذهاب إلى المعلم. فخرج يقرأ ولا يكتب، لهذا لما كتب بعض العمال إلى المعتصم كتاباً فيه لفظ (الكلأ) لم يفهم معناه، فسأل الوزير فلم يعرفه، فقال المعتصم: خليفة أميّ ووزير جاهل، كيف تصلح على هذا حال؟! فسأل بعض الكتاب عنه ففسره، فعزل الوزير واستوزر الكاتب.

ويعود الدكتور فاروق إلى الكلام قائلاً:

«ولكن اصطناع الخليفة للأتراك أدى إلى سخط بغداد وجند بغداد عليه، فقد ضاقت المدينة بمن جاء إليها من الأتراك البدو الحفاة الذين لم يحسنوا التصرف تجاه البغداديين. كما شعر الجند من الفرق الأخرى بالحسد تجاه الأتراك المقربين إلى الخليفة والمتمتعين بامتيازات كثيرة.

نهاية العباس بن المأمون

في مسير المعتصم إلى عزو عمورية حدثت تصرفات أدت إلى استياء بعض القادة وأثارت نقمتهم فاتصلوا بالعباس بن المأمون للقيام بانقلاب يستهدف اغتيال المعتصم وبعض كبار قواده وأحكموا أمرهم في ذلك، فلما دخل المعتصم الدرب في قلة من الناس أشار أحد القادة المتآمرين على العباس أن يتم التنفيذ هنا بأن يثب العباس بالمعتصم فيقتله ويرجع إلى بغداد. فإن الناس يفرحون بانصرافهم إلى بغداد من الغزو. فأبى العباس ذلك وقال: لا أفسد هذه الغزاة. وطلب تأجيل التنفيذ إلى ما بعد الفتح.

وانتهى الأمر بفتح عمورية. وفي تفاصيل لا تعنينا كثيراً اكتُشف أمر المؤامرة وبلغ خبرها

إلى المعتصم، فأمر بالقبض على العباس وعلى القواد المتآمرين. ولما جيء بأحدهم إلى المعتصم ـ وكان العباس موجوداً قال المعتصم للقائد: يا ابن الزانية! أحسنت إليك فلم تشكر، فقال القائد: ابن الزانية هذا، وأومأ إلى العباس، لو تركني ما كنت الساعة تقدر أن تجلس هذا المجلس وتقول هذا الكلام.

ودفع العباس الى الأفشين أحد القواد الموالين، وفي طريق العودة عند مدينة منبج طلب العباس الطعام فقدم إليه طعام كثير ومنع عنه الماء.

ويصف ابن الأثير إماتته بهذه الصورة: وأدرج في مِسْح فمات في منبج.

ويقول في معجم **لسان العرب** عن المسح: إنه الكساء من الشعر، وإنه البلاس، ويفسر البلاس: بأنه المسح، وأن أهل المدينة يسمون المسح بلاساً، وأن من دعائهم أرانيك اللّه على البلس، وهي غرائر كبار من مسوح يجعل فيها التبن ويشهّر عليها من ينكّل به وينادى عليه.

ومهما يكن من أمر فإننا لا نستطيع إلّا أن نذكر للعباس رفضه إفساد الغزاة ولو تعارض ذلك مع مصلحته.



ملحق

طوس

ما هي طوس التي اشتهر دفن الإمام علي الرضا عليه السلام فيها؟

يخيل لأغلب الباحثين أن طوس مدينة من مدن خراسان. ولكن عندما نلاحظ كتب الجغرافيا العربية والفارسية القديمة ـ مع ما فيها من الاختلاف ـ يبدو لنا أن طوس كانت وما زالت ناحية لا مدينة.

قال السمعاني: «طوس ناحية في خراسان فيها ألف قرية» وقال ياقوت الحموي: «طابران إحدى مدينتي طوس، لأن طوس مدينتان أكبرهما طابران، والأخرى نوقان».

على أن ياقوت يعود فيقول حين يتحدث عن طوس: «هي مدينة بخراسان تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما: الطابران، وللأخرى: نوقان، ولهما أكثر من ألف قرية».

وقد جاء في كتاب **حدود العالم** وهو الكتاب الفارسي المؤلف قبل أكثر من ألف سنة والمجهول المؤلف: «إن طوس ناحية وفيها أقضية كطوران ونوغان وبروغن ورايكان وبنوادة. وتقع بين الجبال، وفي تلك الجبال المحيطة بها توجد معادن الفيروزج والرصاص والنحاس والكحل. وتصنع القدور الحجرية من جبالها. وإلى نوغان حيث مرقد الإمام علي ابن موسى الرضا تتوجه الناس للزيارة. وفيها أيضاً قبر هارون الرشيد».

يوضح لنا هذا النص بأن طوران لغة في طابران قاعدة منطقة طوس. وطابران هي المدينة التي تعرضت للغزو سنة ٧٩١هـ من جيش تيمور بقيادة ميران ابنه الثاني والأمير آق بوغا والي هرات حيث قتل السكان عن آخرهم وتحطمت المدينة شر تحطيم مما لم يمكن معه إعادة بنائها إلى يومنا هذا.

والأغلبية العظمى من علماء طوس ينتسبون إلى هذه المدينة الزائلة.

ونوغان: تقع على بعد ميل من جنوب سنا آباد التي يقوم فيها قبر الإمام الرضا عليه السلام.

وبروغن: أخطأ مؤلف كتاب **حدود العالم** في ضبطها، والصحيح هو: تروغيذ أو بروغوذ وهي مدينة وسط الجبال تسمى اليوم ترغبة وينسب إليها العديد من المحدثين والعرفاء والزهاد أمثال: أبو الحسن النعماني بن محمد أحمد التروغيذي الطوسي المتوفي سنة ٣٥٠هـ وأبو عبد اللّه التروغيذي الزاهد المعروف في زمانه.

ورايكان: هي مدينة راتكان أو رادكان وصحفت التاء بالياء. وفي مثل هذه الصورة تلفظ الكلمة في اللغة الفارسية بالتاء والدال.

وتقع مدينة رادكان على بعد عشرة فراسخ من طابران وفيها ولد نظام الملك الطوسي وأبو محمد عبد اللّه بن هاشم الطوسي وأبو الأزهر حسن بن أحمد بن محمد الطوسي المتوفى سنة ٥٣٠هـ. وإلى جانب مدينة رادكان بالذات تتراءى مروج طوس الشهيرة في التاريخ، وفيها اعتلى العرش ملك شاه السلجوقي بأمر من أبيه ألب ارسلان. كما توج فيها علاء الدين تكش خوارزم شاه. وظلت المروج مرتعاً لخيول السلاطين، وكثيراً ما كان يقصدها ملوك إيران للصيد والنزهة يوم الراحة.

بنوادة: لا وجود لهذا الاسم أصلاً لا بين المدن ولا بين القرى، ولعل تحريفاً حصل في ضبط هذا الاسم.

وبهذا يتضح أن طوس اسم منطقة كانت تضم أربع مدن وألف قرية. ولا بد من القول إن خراسان كانت في القرون الإسلامية الأولى أوسع نطاقاً مما هي عليه الآن. وإن ما يطلق عليه اليوم اسم خراسان ليس إلّا جزءاً من خراسان القديمة.

وحتى أوائل القرن السابع الهجري كان إقليم طوس يعد من توابع نيسابور. وبعد تعرض مدينة طابران للغزو والدمار من جيش تيمور، الأمر الذي حولها إلى قفر، أخذت مدينة مشهد تتسع يوماً بعد يوم. ومنذ ستة قرون أصبحت مدينة نيسابور أبرز المدن التابعة لها.

وخلاصة ما يستنتجه المتتبع لكتب البلدانيين أن تحديد إقليم طوس من الناحية الجغرافية هو عبارة عن الصحراء الواقعة بين سلسلتي جبال هزار مسجد و(أجدركوه) أي جبل الثعبان شمالاً، وجبل نيسابور جنوباً. ويتراوح ارتفاع جبال طوس بين ٧٠٠ متر و٣٠٠٠ متر.

ويعود تاريخ طوس إلى عهود بعيدة قبل الإسلام وقد استولى عليها المسلمون في زمن عثمان بن عفان. على أننا لا نجد في المصادر القديمة مثل كتاب **أوستا** أي ذكر لطوس، ولكن في قسم الأحكام والأساطير الذي هو في الحقيقة شرح لهذا الكتاب وكتب بعده، نجد أن شارحي الكتاب يرون أن كلمة (اوروارا) الوردة فيه إنما يقصد بها طوس، كما نجد

في القصص الأسطورية أن تاريخ طوس يرجع إلى جمشيد بيشدادي، وجاء فيها أن طوس هو ابن تون اسفهيد إيران، وقد قام بتجديد وتعمير طوس وأن صحراء طوس سميت باسمه منذ ذلك الوقت. وهذا يرتئيه حمد الله المستوفي في **تاريخ طوس**.

ولا بد من القول إن ما تحويه المنطقة من أنهار وينابيع وما تتمتع به من خصوبة التربة كان له الأثر الكبير في تقدمها على مر العصور. وفي صحراء طوس عينان كبيرتان والعديد من العيون الصغيرة.

١ ـ عين كلسب أو عين كبلاس التي تقع على بعد أربعة فراسخ من الجانب الغربي لمدينة طابران. وعلى بعد ثمانية فراسخ من الجانب الغربي لمدينة مشهد. كما أن هذه العين كانت تجري إلى طابران، وهي الآن تجري إلى مشهد.

٢ ـ عين سو، وكلمة سو مخففة من سوز ويطلق عليها الآن اسم شمشمه سبز أي، العين الخضراء، وتقع في الجنوب الغربي لمدينة مشهد على بعد ١٢ فرسخاً.

وفي الآونة الأخيرة حفرت آبار عميقة في صحراء طوس مما أدى إلى جفاف بعض الأنهر الصغيرة. ومن جبل في شمالي صحراء طوس تجري مياه ثلاثة أنهار جبلية وتنحدر نحو طوس. وهي: نهر رادكان ونهر بغدج ونهر الذرخ. ويوجد في الجبل الجنوبي عدد أكثر.

ولا تزال في صحراء طوس بقايا أثرية لكل من الغزنويين والسلاجقة والمغول وأحفاد تيمور والصفريين والأفشاريين.

وقد خلدت شهرة طوس بدفن الإمام علي الرضا عليه السلام في بداية القرن الثالث الهجري في سنا آباد منها. وقد أكسبها ما قيل فيها من الشعر بالعربية والفارسية مدحاً ورثاء بالإمام صيتاً بعيداً.

وهناك العدد الكثير من المشهورين الذين أنجبتهم طوس ونسبوا إليها منهم: أبو جعفر الطوسي وأبو حامد الغزالي والفردوسي صاحب **الشاهنامه** ونصير الدين الطوسي وكثيرون.

مشهد

على السفوح الشرقية من جبال نيسابور بمنطقة خراسان الواقعة في الشمال الشرقي من إيران مدينة كبيرة عريقة في التاريخ يناهز عمرها الألف السنة، تجمع بين دقة الفن المعماري الإسلامي القديم من المساجد الفخمة والقباب المذهبة المزينة بالقاشاني الثمين، وبراعة الهندسة الحديثة من الشوارع المتسعة والمباني الشاهقة ومعالم المدينة الحاضرة.

هذه المدينة هي مشهد مركز مقاطعة خراسان التي تحدّ روسيا من الشمال وأفغانستان

من الشرق، والتي تستقبل كل عام ما يربو على مليون نسمة من الزائرين من جميع الأقطار الإسلامية والمدن الإيرانية[1].

إن طابران التي مر ذكرها تقع اليوم على بعد نحو عشرين ميلاً من مدينة مشهد وفيها قبر الشاعر أبي القاسم الفردوسي.

ونوغان: هي اليوم جزء من مدينة مشهد وأما سنا آباد فكانت ضيعة وبستاناً لحميد بن قحطبة الذي كان والياً لخراسان في أوائل الخلافة العباسية. وفي سنة ١٩٢هـ كان رافع بن ليث بن نصر بن سيار قد ثار في مرو وما وراء النهر، فمضى هارون الرشيد بنفسه إلى خراسان لإخماد الثورة وكان برفقته ولده عبد اللّه المأمون، فمرض في الطريق ولما وصل طوس اشتد عليه المرض وتوفي فيها سنة ١٩٣هـ ودفن في دار حميد بن قحطبة بسنا آباد. فأمر المأمون ببناء بقعة ومقبرة على قبر أبيه هارون.

وفي طريق عودة الرضا والمأمون من مرو إلى بغداد توفي الإمام الرضا(ع) في طوس فأمر

(١) قال السيد هاشم الأمين عندما زار مقام الإمام علي الرضا (ع) سنة ١٩٦٠م:

هذا أبو الحسن الرضا ... وجلاله ملء الربوع
والمهرجان ومجده ... دفق الجموع على الجموع
السابحات على العطور ... الساطعات على الشموع
من مهجة حرّى ومن ... دمع ومن خدّ ضروع
أو مشرق متهلّل ... نضر التشوق والنزوع
أو هانىء قسماته ... صفو الوداعة في الوديع
وضجيج أفراح وأحز ... انِ وتحنان وروع
والصوت ترجيع الملا ... ئك بالصفاء وبالنصوع
والذكريات تمور بالدا ... مي وتجأر بالوجيع
ضربت رواق محامد ... كالشمس قدسيّ السطوع
يزهو بآل محمّد ... لا بالذّليل ولا الخنوع
أيّام ثاروا للكرا ... مة واستطالوا عن خضوع
ومضوا على سنن الكرا ... مة من شريد أو صريع
فسل القطيع أكان غيـ ... ـر الذلّ جزّار القطيع
بمذلّة الجوعان هـ ... ـان الحق لا جور المجيع
ما ساء ربّ العبد لو ... لا خسّة العبد المطيع
أمحمد ولك العزا ... بالبيت والشمل الجميع
ما كان عهدك من خرا ... سان كعهدك في البقيع
يخلو حماك لغاصب ... هو منه في الرحب الوسيع
وعلى بنيك مضيّق ... ما بين عان أو مروع
لم يقصروا عن عاجزين ... ولم يعفوا عن رضيع
بالسيف، بالتشريد، بالترو ... يع، بالسّم النقيع

المأمون أن يدفن في الجهة الغربية من قبر أبيه داخل البقعة المدفون فيها أبوه. فسميت هذه البقعة منذ ذلك الوقت بمشهد الرضا وأصبحت مزاراً للمسلمين يفدون إليها من كل صوب[٢].

أغفل ذكر مشهد جماعة من علماء العرب منهم ابن خرداذبه والمقدسي وأبو الفداء. وذكرها الاصطخري وابن حوقل وزكريا بن محمد بن محمود القزويني وياقوت الحموي وابن بطوطة.

أما كتّاب الفرس فقد ذكرها صاحب كتاب **نزهة القلوب**، وذكرها الأمير زين الدين محمد في كتاب **زينة المجالس**، والقاضي نور اللّه التستري الحسيني في **مجالس المؤمنين**، وأحمد الرازي في **هفت إقليم**، وميرزا حسين الزنوزي في **رياض الجنة**، وفرهاد ميرزا في كتاب **جم جم**.

وذكر مشهد من الأوروبيين فورشاير الرحالة الإنكليزي في المجلد الثاني من رحلته وقد اجتاز بها سنة ١٧٨٣ والسر جون ملكلم سفير إنكلترا على عهد فتح علي شاه ذكرها صاحبه ماكدونال كينير في كتابه **جغرافية إيران**. والرحالة الإنكليزي فيروزور وقد مر بها في منتصف القرن التاسع عشر وعاشر طائفة من خاصة أهلها وتظاهر بالإسلام توصلاً إلى مقاصده فنجح؛ والمتجول هانوي في رحلته إلى روسيا وإيران سنة ١٧٤٣ وقد تمكن من الدخول إلى نفس مشهد وأفاض في تاريخه القديم والحديث وأورد فصولاً شائقة عن البلدة وأحصى مدارسها وعدد طلابها وذكر أوقافها وأجناسها إلى غير ذلك.

وذكرها أيضاً الدكتور ريتر الألماني من أساتذة جامعة برلين وأعضاء المجمع العلمي في كتابه **خطط إيران** بالألمانية وكثيراً ما يعتمد على كلام فيروزور المتقدم ذكره. والمسيو كنولي وقد مر عليها مجتازاً إلى الهند سنة ١٨٢٣م والمسيو فريه الرحالة الفرنسي ماراً بها سنة ١٨٤٥ في المجلد الأول من رحلته، وصف منظر البلاد الطبيعية وأورد من تاريخها وتعددت له أغلاط، منها قوله إن مشهد وطوس واقعة في أقصى خراسان، مع أن أقصى ديار خراسان بلخ، وقوله: إن الكتابات في أثر المشهد لا يرتقي تاريخها إلى أبعد من عصور الصفويين، والحال أن قسماً منها يرتقي تاريخه إلى زمان السلاجقة والمغول إلى غير ذلك من أوهامه.

(٣) ورد اسم مشهد لأول مرة في كتاب **أحسن التقاسيم** للمقدسي. وذكره ابن حوقل في **المسالك والممالك** باسم مشهد الرضا.



بيـن يدي الكتاب
٥
من الدّعوة إلى الدّولة

الانقلاب الأوّل والأخير... أو تولي الرشيد ١١
الخراسانية ١٤
عروبة نقباء الدعوة ١٥
عروبة الدعوة العباسية في خراسان ١٨
تولية الأمين ٢٥
المأمون بعد الأمين ٢٧
كتاب الأمين إلى الرشيد ٢٩
كتاب المأمون إلى الرشيد ٣١
كتاب الرشيد إلى العمال ٣٢
خروج الرشيد من بغداد ووفاته ٣٤
كتاب الأمين إلى أخيه المأمون ٣٩
كتاب الأمين إلى أخيه صالح ٤٠
دسائس الفضل بن الربيع ٤١
الأمين ينقض العهد والمأمون يرد ٤٣
المسير إلى الحرب ٤٩
وقع الخبر في مرو ٥٤
أثر الهزيمة في بغداد ٥٥

الحال في البلاد ٦١
الفضل بن الربيع ٦٦
الالتجاء إلى الشام ٦٩
اضطرابات بغداد ٧٥
التقدم إلى بغداد ٨٠
بيعة المأمون في الحرمين واليمن ٨٢
الإطباق على بغداد ٨٤
تخيلات وعبر ٩٣
نهاية الأمين ٩٤
أصداء الفجيعة ١٠١
وفاء المأمون ١٠٤
الشعر في المعركة ١٠٥
ملحمة بغداد ١١٤

ولاية العهد بين العباسيين والعلويين

المأمون وولاية العهد ١٢٣
قدوم الرضا (ع) إلى مرو ١٢٨
البيعة ١٢٩
عهد المأمون للرضا (ع) ١٢٩
وكتاب الرضا (ع) على ظهر العهد ١٣٢
الشهود على العهد ١٣٣
صورة الدرهم الذي ضرب في عهد الرضا (ع) بأمر المأمون ١٣٣
الإمام الرضا (ع) ودعبل الخزاعي ١٣٤
الرأي الآخر ١٤٠
من مراثي الرضا (ع) ١٤٤
مظاهرة مرو ١٤٤
الصدى في بغداد ١٤٦

أصولية ١٤٨
تولية الحسن بن سهل ١٤٩
من مرو إلى بغداد ١٥٤
وفاة المأمون ١٥٧
المعتصم ١٥٧
نهاية العباس بن المأمون ١٥٨

ملحق

طوس ١٦٣
مشهد ١٦٥

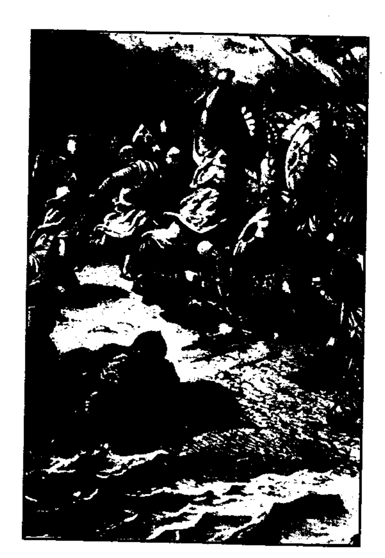
للمؤلف

في منشورات دار الجديد

حسن الأمين

صلاح الدين الأيوبي

بين العباسيين والفاطميين والصليبيين



دار الجديد